مكتبة | 249

ماري نداياي

ثلاث نساءٍ قديرات

رواية

ترجمتها عن الفرنسية
ماري طوق

روائع الأدب الفرنسيّ الحديث

ماري ندياي

ثلاث نساءٍ قديرات

رواية

ترجمتها عن الفرنسية

ماري طوق

مراجعة

كاظم جهاد

مكتبة

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2674.D53 T76125 2017

NDiaye, Marie, 1967-

ثلاث نساء قديرات: رواية / تأليف ماري ندياي ؛ ترجمة ماري طوق ؛ مراجعة كاظم جهاد. - ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

329 ص. ؛ 14 × 21 سم.

ترجمة كتاب: Trois femmes puissantes

تدمك: 2-401-23-9948-978

1- القصص الفرنسية- القرن 21.

أ- طوق، ماري. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Marie NDiaye

Trois femmes puissantes

© Editions GALLIMARD, Paris 2009

كلمة KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 971+

Abu Dhabi Tourism & Culture للسياحة والثقافة

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

تابعوا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

ثلاث نساءٍ قديرات

مكتبة

مقدّمة المُراجِع

في العام 1985، لم يكن لماري ندياي سوى سبع عشرة سنة عندما أرسلت بالبريد مخطوطة روايتها الأولى «أمّا عن المستقبل الثريّ» *Quant au riche avenir* إلى منشورات «مينوي» Minuit الباريسيّة الشهيرة، المعروفة باحتضانها تيّار «الرواية الجديدة» وإصدارها أعمال صامويل بيكيت وكلود سيمون وألان روب غرييه وكلود أولييه ومارغريت دوراس وسواهم من المجدِّدين العظام، ونصوص كبار الفلاسفة من أمثال هربرت ماركوزه وجيل دولوز وفيليكس غواتاري. فإذا بالكاتبة الشابّة تُفاجأ بعد أيّامٍ بمؤسّس الدار ومديرها جيروم لندون يأتي إلى منزل العائلة في إحدى ضواحي باريس، حاملاً لها عقداً لنشر الرواية المذكورة واتّفاقاً على أن يكون هو الناشر الحصريّ لكتاباتها القادمة. وهذا ما حصل، إذ نشرت عن طريق داره عدّة روايات، قبل أن توجّه اختيارها صوب منشورات غاليمار. بعد روايتها الأولى تلك نشرت «المرأة الممسوخة حطبةً» *La Femme changée en bûche*، و«في كنف العائلة» *En famille*، و«طقس موسميّ» *Un temps de saison*، و«الساحرة»

مكتبة

La Sorcière، وروايات أخرى وأعمالاً مسرحيّة حقّقت لها رصيداً أدبيّاً كبيراً بلغ ذروته مع روايتها «روزي كارب» *Rosie Carpe*، التي تُوجّت بجائزة «فيمينا» للرواية في 2001، ثمّ مع «ثلاث نساءٍ قديرات» *Trois femmes puissantes*، المترجمة هنا، والتي نالت عليها جائزة غونكور للرواية في 2009.

ولدت ماري ندياي في بيتيفييه Pithiviers، قرب باريس، في الرابع من حزيران 1967، من أب سنغاليّ عاد إلى بلاده الأمّ وهي في سنتها الأولى، ولم ترَه بعد ذلك سوى ثلاث مرّات، وأمّ فرنسيّة. نشأت في الضاحية الباريسيّة بور لا رين Bourg-la-Reine ثمّ انتقلت إلى النورماندي بعد اقترانها بالكاتب الفرنسيّ جان إيف سندري Jean-Yves Cendrey. ومع انتخاب نيكولا ساركوزي رئيساً للجمهورية الفرنسية في 2007 وتصاعد اليمين المحافظ واليمين المتطرّف في فرنسا، قرّر الزّوجان الانتقال هما وأطفالهما للعيش في برلين. لم تعش الكاتبة في السنغال، بيد أنّ من الواضح أنّ بنوّتها لرجل سنغاليّ لم تعرفه حقّاً قد دمغت بميسمها العميق عالمها الإبداعيّ ونمط تفكيرها وحساسيتها الأدبية. بعض شخوص أعمالها أفريقيّة أو زنجيّة من مناطق أخرى، كما في الرواية المترجمة هنا، وكما في «روزي كارب»، هذه الرواية المفعمة بالسِّحر التي تصف فيها، بتعمّقٍ كبيرٍ، بحثاً مريراً عن الهويّة تخوضه بطلة الرواية. إنّها عودة خائبة للبحث عن الجذور، تقوم بها روزي كارب إلى «غوادلوب»، هذه الرقعة السّوداء أو الخلاسيّة التي تعدّها فرنسا جزءاً منها ضمن ما تدعوه «أقاليم فرنسا لِما وراء البحار». وفي أغلب الروايات الأخرى تختار ندياي شخوصاً غريبة، مأزومة بغموضٍ، وعلى حافّة الانهيار، كما في روايتها الوجيزة «طقس

موسميّ». فيها تصف بمزيج من الواقعية والفنطازية رحلة ربّ عائلة باريسيّ في البحث عن زوجته وابنه. كان قد ذهب معهما في عطلة يمضونها في بلدة ريفيّة. خرج الصبيّ وأمّه ذات صباحٍ لشراء البيض من بيت مجاور، ولم يعودا. وبعد سلسلة من الاستقصاءات المتهمّسة والمفاجآت، اكتشف فيها العلاقات الغامضة لسكّان البلدة، عثر الرجل على زوجته وابنه وهما يمارسان في إحدى الشقق طقساً غريباً قرّرا أن يكّرسا له أيّامهما: يقفان إزاء النافذة طيلة النهار يراقبان حركة الغيوم المارّة. هي تحوّلات رهيبة تتلقّف الكائناتِ امتثالاً لآليّات أو سلطاتٍ عجيبة وغامضة.

في روايات أخرى، تبرع الكاتبة في الإبانة عن ثراء جوّانيّ ترينا أنّه متوافر حتّى لدى أبسط الكائنات وأكثرها امّحاءً في الظاهر. هذا ما نراه مثلاً في روايتها الصادرة حديثاً بعنوان «المعلّمة – رواية طبّاخة» *La Cheffe, roman d'une cuisinière*. يسرد راوية العمل حياة طبّاخة شهيرة، لامعة في فنّ الطهو أو الذُّواقة، ومسيرتها المهنيّة التي كانت مكلّلة بالمجد. يرويها بإحاطة وشغف، لأنّه كان مساعدها وعاشقها، على أنّه عشق من طرف واحد. شخصية الطبّاخة خياليّة، شأنها شأن الشخوص الأخرى، والطّهو مقدّم هنا باعتباره مغامرة روحيّة وفنّاً رفيعاً. هذه الرواية مديح لإرادة الخلق، ومنذ الأيّام التالية لصدورها، احتفى النقّاد بها وبتنويعاتها البارعة على المآكل وطقوس تحضيرها، وعلى الألوان والنكهات، تصفها بشغف وبراعة وشاعريّة، مقدّمةً لنا سلسلة من أجمل اللّوحات الأدبيّة عن أعياد المائدة. في هذا الصنيع وجد النقّاد مجازاً عن فعل الكتابة نفسه، يتجاوز الجسد إلى الروح، ويمرّ بشعائر تشمل أدنى نوابض الكيان. وعن بطلتها صرّحت الكاتبة لإذاعة «فرنسا الدوليّة »(29 سبتمبر 2016): «في هذه

مكتبة

الرواية أحاول أن أفهم ما يدفع شخصاً إلى تهيئة أعداد من الأطباق، وإلى التضحية لذلك بشطر مهمّ من حياته. هذه المعلّمة تتمثّل غايتها ورغبتها في الامّحاء وراء عملها. لا تقول شيئاً عمّا تقوم به وتكره أن تتلقّى إطراءً على مطبخها، لا بل ترى في ذلك افتقاراً للحشمة... تهرب من الأضواء وتعدّها مفسدة للرّوح ومنافية لجوهر صنعتها». ما تعرب عنه هذه المعلّمة هو إرادة في الذهاب إلى أقصى مثال فنيّ رفيع، ورغبة عميقة في أن يكون الصنيع وحده حاضراً هنا.

أمّا «ثلاث نساءٍ قديرات»، فتمتاز أوّلاً بخصوصيّة في الشكل الروائيّ. إنّها تضمّ ثلاث قصص طويلة، كلّ منها مخصّصة لحضور فريد لامرأة، ولكنّ القصص ترتبط بخيوطٍ، بعضها خفيّ والبعض الآخر ظاهر، لتشكّل في نهاية المطاف رواية متكاملة ومنسجمة. والخيط الناظم الأكبر هو هذه الوحدة المعنوية أو الروحيّة، تجمع ثلاث نساء يسيطرن على مصيرهنّ بذكاء وقوّة. الأولى هي نورا، العصاميّة التي صارت محامية بباريس، رغم هجران والدها السنغاليّ (كأبي الكاتبة نفسه) للعائلة. تذهب إلى داكار، لزيارة أبيها المتغطرس والمهووس، الذي لم يلتفت إليها ولا إلى أختها وأمّهما يوماً، والذي يزجّ بأخيهما، الوحيد الذي اصطحبه معه إلى السنغال، يزّج به في مغامرة مظلمة تجعل الفتى يقبع في السّجن. مصير متشابك تروح هي تحلّ وشائعه الواحدة بعد الأخرى. إلى ما وراء جنون الأب وغطرسته الظاهرية تذهب المحامية الشابّة، لتكشف عن أكبر الثغرات والتصدّعات، وتقرّر السّعي إلى إنقاذ شقيقها الصّغير.

المرأة الثانية هي فانتا، التي قلّما تحضر فعليّاً في الصفحات المخصّصة لها من الرواية، والتي تظلّ مع ذلك دائمة الحضور في تداعيات زوجها والبلبة

التي تطبعه بها كثافتُها الإنسانيّة. زوج عاثر، فرنسيّ نشأ في السنغال، عاد بها وبابنهما إلى فرنسا فلم يفلح في تحقيق عيش كريم للعائلة. نراه دائم الحركة في سيّارته العتيقة، في ما يشبه أوديسة بريّة، يجترّ ذكرياته ويحلّل سلوك زوجته ويعلن اندحاره أمام صمتها البليغ. يتحمّل الزوج المسكين غرابات أمّه التي تؤمن بحضور الملائكة ("إنّهم دائماً بيننا")، وينوء تحت عبء ماضي أبيه الرّاحل، ماضٍ تسكنه جريمة يكتشف هو في الختام، بفضل حدّة تداعياته وإلحاحها، أنّ كلّ فشله آتٍ من ذكراها: جيل يسدّد ثمناً باهظاً عن خطايا جيل آخر. بيد أنّ فانتا تظلّ متماسكة على نحو باهر في منفاها هذا، تتحدّث في خاتمة السّرد إلى جارتها ببشاشة وانفتاح يوحيان بتساميها على وضعها البائس المريع كلّه.

أمّا المرأة الثالثة، خادي دمبا، فتقودنا إلى عالم الهجرات المحبَطة الذي نعيش مأساته منذ سنوات، حيث الرحلات المغامِرة تنتهي بغرق الآلاف، وحيث البحث عن ملاذ في الغرب ينتهي بمن يجازف به إلى الموت أو المراوحة في مكانه، أو إلى العبور حيث يفاجأ في إحدى مدن الغرب باستقبال فاتر أو بتهميشٍ معلَن. تعاني خادي، الأرملة الشابّة، شظفَ عائلة زوجها الراحل، التي تقذف بها على طرق الهجرة. هجرة لا تصل إلى إمكان تحقّقها إلّا بعد مهانات وخسارات تصفها الكاتبة في ملحمة صغيرة مكثّفة. وعندما تحاول خادي، بصحبة العشرات من الطامحين للرّحيل، اجتياز الحاجز الشّائك وصولاً إلى إحدى السفن، تهوي منه وترى موتها على هيئة طائر يغنّي لها. طائر لطالما لمحته من قبل، فكأنّه قرينها أو ملاكها الحارس، هي الأميّة التي لم تشأ رغم كلّ الظروف المناوئة أن تتخلّى عن تمسّكها بجوهرها اللّطيف، والتي اعتادت أن تتشبّث في أقسى اللحظات

مكتبة

بامتلائها بذاتها وبحقيقة أنّه مهما حدث فإنّها لا تجهل من هي، هي خادي.

لطالما تكلّم النقّاد، ولطالما أسهبت الكاتبة نفسها في الكلام عن شاكلتها في الكتابة. في موجات متعاقبة والتفافات معاودة تقترب ماري ندياي من جوهر كيان الشخصيّة المحوريّة ومن يحيطون بها، ثمّ في لحظة معيّنة يتحقّق الكشف ونكون عرفنا كلّ شخصيّة في حقيقتها الحميمة وعالمها العميق. يبدو للوهلة الأولى وكأنّها تحيط الشخوص بكثافة معتمة وتمعن في إحاطتها بالأسرار، ثمّ يتجلّى في النهاية أنّها اقتادتنا في متاه كبير يغرق فجأةً بضوء مديدٍ باهر. بعضهم شبّه هذه الكتابة بعمل السِّحر. هذا يشمل البناء السرديّ كما يشمل عبارات الروائيّة، عبارات طويلة في الغالب، تحرص فيها على الإمساك بأدقّ التفاصيل، وعلى قولها بالنبرة الأكثر صدقاً والأشدّ تأثيراً، باذلةً أكبر عناية ممكنة في اختيار النعوت، هذا العنصر اللغويّ الذي تحرص عليه كثيراً.

هذه رواية عن البنوّة المخفِقة والمعيقة (نورما ووالدها المجنون العارف بجنونه كيف يفرض آراءه ومشيئته، وفانتا والعبء الشالّ لزوجها من جرّاء جريمة أبيه وهذيان أمّه عاشقة الملائكة، وخادي المحرومة من الزوج والأبناء والتي يقذف بها أبَوا بعلها المتوفّى على قارعة الطريق). رواية عن الهوّة العميقة الفاصلة بين الأجيال، وعن ظلّ الغرب الطاغي يفرض نفسه على مصير النساء الثلاث، لا سيّما على خادي، تنشد الغرب مثلما ينشده آخرون وتنكفئ دون حلمها لتختفي في سحابة من النور يحوّم فيها حولها طائر أليف، حقيقيّ أو متخيَّل في سكرة الموت ما الفرق؟ رواية عن صمود نساء ثلاث، يقلن «لا »بشتّى الطرق، ويرفضن الانهزام أمام التواءات العالَم، وحين يوجّهن إدانةً ما فهنّ يعبّرن عنها سلوكاً، لا في

خطابات تحرّرية زائفة بل يتوسّلن من أجل ذلك حتّى بالصمت، صمت مدوٍّ وناطق، صمت صاعق كهذا الذي ألقى بالمسكين رودي، زوج فانتا المهزوم بعجزه الخاصّ وثقل ماضيه العائليّ، ألقى به في متاهة الطرق، وخصوصاً في متاهة وعيه الأليم.

محرّر السلسة

كاظم جهاد

مكتبة

إلى لورين، وسيلفير، وروماريك

À Laurène, Silvère, Romaric

1

وذاك الّذي استقبلها أو ظهرَ وكأنّما صدفة عند عتبة منزله الاسمنتيّ الكبير مغموراً فجأةً بنورٍ مبهرٍ بدا معه جسده بثيابه الفاتحة اللون وكأنّه هوَ الّذي فجّر هذا النّور أو أشاعه، ذاك الرّجل الّذي كان يقف هناك، صغيراً، متثاقلاً، ناشراً وهجاً أبيض مثل مصباحٍ من النيون، ذاك الرّجل الذي لاح عند عتبة منزله اللامتناسق لم يعد يملك، فكّرتْ نورا للحال، شيئاً من اختياله، ومن قامته، وشبابه الّذي احتفظ خفيةً فيما مضى برونقه الدائم بحيث كان يبدو خالداً.

كان يحتفظ بيديه مشبوكتين على بطنه، وبرأسه مائلاً إلى جهة واحدة، وكان هذا الرأس أشيب وهذا البطن نافراً مترهّلاً تحت القميص الأبيض، فوق حزام السروال السكّريّ اللون.

كان واقفاً هناك محاطاً بهالة من اللّمعان البارد. لا شكّ أنّه، قالت نورا في نفسها، هوى عند عتبة بيته ذي الهيئة المتبجّحة من غصن شجرة من أشجار البونسيانة[1] المزروعة في الحديقة، لأنّها حين اقتربت من المنزل

(1) البونسيانة: أو العندم الهنديّ، شجرة استوائيّة جميلة كثيفة الظلّ. (جميع الحواشي وضعتها المترجمة، إلاّ إذا وردت بذلك إشارة مخالفة).

مكتبة

شاخصة إلى باب المدخل عبر السياج لم تره ينفتح ليطلّ منه والدها. ومع ذلك ها قد ظهر لها في النّهار الغارب ذاك الرّجل المشعّ والذاوي في آن -والّذي بدا وكأنّه تلقّى ضربة مطرقةٍ هائلةً على الجمجمة انتقصت من المقاسات المتناسقة التي كانت نورا تذكرها وأحالته رجلاً بديناً دون عنقٍ، ثخين الفخذين قصيرهما.

جامداً، نظر إليها تتقدّم نحوه ولا شيء في نظرته الحائرة، الساهمة قليلاً، كان يوحي بأنّه ينتظر مجيئها، أو أنّه طلب منها ذلك، أو توسّل إليها بلهفة (هذا فيما لو كان رجل مثله، فكّرَتْ، قادراً على مناشدة أيّ نجدة كانت) لكي تزوره.

كان هناك بكلّ بساطة، وقد غادر ربّما على جناح السّرعة الغصن الضخم للبونسيانة التي كانت تظلّل بأزهارها الصّفراء البيت، لِيَحطّ بثقلٍ على عتبة الإسمنت المتشقّق، لكأنّ الصدفة وحدها كانت دفعت بخطى نورا إلى بوّابة السياج في تلك اللحظة.

وذاك الرّجل الّذي كان يستطيع أن يحوّل كلّ مناشدة من ناحيته إلى تملّق له، رآها تدفع البوّابة وتدخل إلى الحديقة وعلى وجهها سيماء الضيف المنزعج قليلاً والذي يحاول أن يُخفيَ انزعاجه، واضعة يدها فوق عينيها كواقيةٍ مع أنّ المساء غمر بالعتمة العتبةَ التي أضاءها في اللحظة نفسها شخصه الغريب، المشعّ، الكهربائيّ.

- ها قد أتيتِ! قالها بصوته الرتيب، الخفيض الذي تعوزه الثّقة رغم إتقانه الرّفيع للغة. لكأنّ خشيته المترفّعة من ارتكاب بعض الأخطاء التي يصعب تجنّبها جعلت صوته يرتجف في آخر المطاف.

لم تجب نورا.

عانقته عناقاً خاطفاً غير ملتصقة به إذ تذكّرت أنّه كان يكره الاحتكاك الجسديّ وهذا من الطريقة الخفيّة التي بها كان لحم ذراع أبيها المترهّل ينكمش تحت أصابعها.

بدا لها وكأنّها تشتمّ رائحة نتنة متعفّنة.

رائحة منبعثة من الإزهار الكثيف والمنهك لشجرة البونسيانة الضخمة الصفراء التي كانت تبسط أغصانها فوق سطح البيت المستوي وبين الأوراق التي اتخذ فيها هذا الرجل الغامض المزهوّ عشّاً ليترصّد، فكّرت نورا منزعجة، أدنى ضجّة تحدثها خطوات مقتربة من البوّابة، وعندئذٍ ينطلق طائراً ليحطّ بثقلٍ على عتبة منزله الفسيح بجدرانه الإسمنتيّة الخام. أو أنّ هذه الرّائحة منبعثة من والدها نفسه أو ملابسه، من جلده العتيق، المتغضّن، الرماديّ. لم تكن تعرف مصدر الرائحة ولم تكن قادرة على تحديدها.

على أكثر تقدير، كانت تستطيع التأكيد أنّه كان يرتدي، في ذاك النّهار، لا شكّ أنّه بات يرتدي دوماً منذ ذلك الحين، هكذا كانت تفكّر، قميصاً مدعوكاً وملطّخاً ببقع من العرَق، وأنّ سرواله كان مخضرّاً وملمّعاً ومنتفخاً ببشاعة عند الركبتين، إمّا لأنّه طائر ضخم وازن يسقط في كلّ مرّة يلامس فيها الأرض، وإمّا، كانت نورا تفكّر بإشفاق يشوبه بعض التّعب، لأنّه أضحى، في آخر الأمر، رجلاً عجوزاً مهملاً، لا مبالياً أو غير مكترث بالقذارة رغم احتفاظه بأناقةٍ معهودة درج عليها، مرتدياً كما فعل دوماً الأبيض والزبديّ المشرق، ولم يكن يظهر، حتّى لو عند عتبة بيته غير المستكمل من دون ربطة عنقٍ معقودة، حتّى لو كان خارجاً من صالون أغبر، حتّى لو كان طائراً من بونسيانة تنوء تحت ثقل أزهارها.

مكتبة

بعد وصول نورا إلى المطار، استقلّت سيّارة أجرة ثمّ مشت طويلاً تحت الشّمس اللّاهبة لأنّها نسيت عنوان سكن والدها، ولم تستطع الاهتداء إليه إلّا حين تعرّفت إلى البيت، وكانت تشعر أنّها دبقة، قذرة، واهية القوى.

كانت ترتدي ثوباً أخضر بلون الزّيزفون، دون كمّين، مزداناً بأزهار صغيرة صفراء تشبه قليلاً تلك التي سقطت من البونسيانة مفترشةً العتبة، وتنتعل صندلاً مسطّحاً من الأخضر الغضّ نفسه.

ولاحظت وقد عراها الاضطراب، أنّ والدها كان ينتعل شبشبَين بلاستيكيَّين، وهو الذي كان قد أخذ على نفسه عهداً بألّا يظهر للعلن أبداً إلّا بحذاءين ملمّعين كما يجب بلون رمليّ أو أبيض باهت.

هل لأنّ ذاك الرّجل المختلّ الهندام كان قد فقدَ كلّ حقّ في رمقها بنظرة ناقدة أو خائبة أو صارمة، أم لأنّها، مستقويةً بسنواتها الثماني والثلاثين، لم تعد تهتمّ إطلاقاً بالحكم الذي قد يثيره مظهرها فقالت في نفسها إنّها كانت، في جميع الأحوال، ستشعر بالإحراج والخزي لو أنّها قبل خمسة عشر عاماً ظهرت متعرّقة تعبة أمام والدها الذي لم يكن جسده ولا مشيته يعروهما آنذاك أيّ علامة وهنٍ أو تأثّر بالقيظ. أمّا اليوم فكان كلّ ذلك يبدو لها غير ذي بالٍ، حتّى أنّها أبانت لوالدها، جهاراً، وجهاً عارياً، متعرّقاً، ولم تكلّف نفسها عناء مسحه بالبودرة في سيّارة الأجرة وهي تفكّر مندهشة: كيف أمكنني أن أعير أهميّة لكلّ هذا! ثمّ أضافت أيضاً بغبطة لاذعة يشوبها الحقد: ليظنّ بي ما يشاء، وتذكّرَتْ الملاحظات القاسية والجارحة التي كان هذا الرّجل المتكبّر يوجّهها بوقاحة إليها وإلى شقيقتها حين كانتا تأتيان لزيارته، وكلّها تتعلّق بافتقارهما إلى الأناقة أو عدم استخدامهما أحمر الشّفاه.

كانت ستودّ أن تقول له الآن: أرأيت، كنت تتحدّث إلينا كما لو أنّنا كنّا امرأتين من واجبهما الإغواء فيما كنّا مجرّد مراهقتين وكنّا ابنتيك.

كانت بودّها أن تقول له ذلك بلهجة مرحة مؤنّبة بعض الشيء، وكأنّها مجرّد دعابة قاسية من دعابات والدها حتّى يضحكا معاً، ويعلو ملامحه شيء من الندم لا يُذكر.

ولكنّها إذ رأته هناك واقفاً ينتعل شبشبَيه البلاستيكيّين على عتبة الاسمنت المنثورة بالأزهار المتعفّنة التي كان ربّما يسقطها لدى مغادرته البونسيانة بأجنحته الثقيلة المنهكة، أيقنت أنّه لم يكن يولي اهتماماً بالتمعّن في مظهرها وانتقاد هندامها، ولا أيضاً بسماع أو فهم أكثر التلميحات حذاقة للملاحظات الفظّة التي كان يوجّهها فيما مضى.

كانت عيناه غائرتين ونظراته ساهمة شاخصة قليلاً.

تساءلت لحظتها إن كان يذكر فعلاً أنّه بعث لها برسالة يطلب منها فيها المجيء لزيارته.

قالت وهي تنقل حقيبة سفرِها إلى كتفها الأخرى:

- هل ندخل؟

هتف مصفّقاً بيديه:

- ماسيك!

بدا البريق الجليديّ المشوب بالزرقة الذي كان يشيعه جسده المتغيّر وكأنّه يزداد حدّة.

خرج من المنزل رجل عجوز حافي القدمين يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً ممزّقاً، وتقدّم بخطى سريعة.

فأمرَه والد نورا بالقول:

مكتبة

- خذ الحقيبة.

ثمّ توجّه إليها بالقول:

إنّه ماسيك، هل عرفته؟

- أستطيع أن أحمل حقيبتي وحدي.

ثمّ ندمت للحال على هذه الكلمات التي لم تكن إلّا لتهين الخادم الذي كان معتاداً، على رغم كبر سنّه، على حمل الأمتعة الأكثر ثقلاً وإرهاقاً ونقلها. ثمّ عاجلته بإعطائه الحقيبة ما جعله يترنّح ثمّ ما لبث أن تماسك من جديد حاملاً إيّاها على ظهره، ودخل إلى المنزل منحنياً.

قالت:

- المرّة الفائتة التي زرتك فيها كان لديك منصور. ماسيك لا أعرفه.

قال والدها فجأةً وقد بدا تائهاً مرتبكاً كما لم تعهده من قبل: «عن أيّ منصور تتحدّثين؟»

أجابت نورا التي بدأت تشعر بانزعاج دبق، خانق:

- لا أعرف اسم عائلته، ولكنّ منصور ذاك أمضى هنا أعواماً طويلة.

- لا بدّ أنّه كان والد ماسيك.

همست قائلة:

- لا، لا. ماسيك أكبر سنّاً من أن يكون ابن منصور.

وبما أنّ والدها بدا أكثر فأكثر تبلبلاً، وكأنّه يوشك أن يتساءل ما إذا كانت تهزأ به، أضافت على وجه السّرعة:

- لا تشغل بالك، ليس الأمر مهمّاً.

- لم يسبق لي قطّ أن كان لديّ خادم اسمه منصور. أنتِ مخطئة.

قالها بابتسامة ماكرة متبجّحة بان معها أوّل ملمحٍ من شخصيّة أبيها

القديمة. ومهما تكن هذه الابتسامة الهازئة مزعجة فإنّها أدفأت قلب نورا، وكأنّ المهمّ ليس أن يكون هذا الرّجل المدّعي مصيباً بل أن يواصل إصراره وتكون له الكلمة الفصل.

لأنّها كانت واثقة من حضور منصور المبادر، الصبور، النشيط، إلى جانب أبيها لسنواتٍ طوال، وإذا كانت هي وشقيقتها قد أتيتا منذ طفولتهما ثلاث مرّات أو أربعاً فقط إلى هذا المنزل ليس أكثر، فإنّ منصور هو من رأتاه هنا وليس البتّة ماسيك ذاك، ذا الوجه المجهول.

ما كادت نورا تدخل إلى المنزل حتّى شعرت بمدى وحشته.

كان اللّيل قد هبط في تلك اللحظة.

كان الصّالون الكبير قاتماً ساكناً.

أشعل والدها ضوءاً هزيلاً، من تلك الأضواء التي تشيعها مصابيح الأربعين واطاً، فأنار وسط الغرفة بطاولتها المديدة المغطّاة بلوح زجاج.

على الجدران المطليّة بالدّهان الخشن، تعرّفت نورا إلى الصوَر المؤطّرة للمنتجع السياحيّ الذي كان والدها قد امتلكه وأداره، والذي صنع ثروته.

أقام عددٌ وفير من الأشخاص عند هذا الرّجل المغترّ بنجاحه، والذي لم يكن كريماً، كما تهيّأ لنورا على الدوام، بقدر ما كان فخوراً بإظهار قدرته على إيواء الإخوة والأخوات وتعهّدهم، وأبناء إخوته وبناتهم، ومختلف الأقارب بحيث إنّ نورا لم ترَ قطّ الصالون الكبير، في أيّ وقتٍ من النهار، خالياً من النّاس.

كان هناك دوماً أطفال يتمرّغون على الكنبات وبطونهم منتفخة أشبه بالهرر المتخمة، ورجال يحتسون الشاي وهم يشاهدون التلفزيون، ونساء

مكتبة

كنّ يَرُحْنَ ويجِئنَ آتياتٍ من المطبخ أو الغرف.

مقفرةً كانت الغرفة هذا المساء وتبين جهاراً عن قسوة محتوياتها: البلاط اللامع، جدران الاسمنت، إطارات النوافذ الضيّقة.

سألت نورا:

- زوجتك أليست هنا؟

أزاح كرسيّيْن عن الطاولة الكبيرة وقرّبهما أحدهما من الآخر، ثمّ تنبّه إلى ما فعله وأعادهما إلى مكانيْهما.

شغّل جهاز التلفزيون وأطفأه قبل أن يتسنّى لأيّ صورة أن تظهر عليه.

كان يتنقّل في أرجاء الغرفة وهو يجرّ شبشبَيه على البلاط دون أن يرفع قدميه.

كانت شفتاه ترتجفان قليلاً.

ثمّ قال أخيراً:

- ذهبَتْ في رحلة.

فكّرت نورا قلقة: آه! لعلّه لا يجرؤ على القول إنّها هجرته.

- وسوني؟ أين سوني؟

قال متنهّداً:

- هو أيضاً.

- سوني ذهب أيضاً في رحلة؟

والدها الذي كان لديه نساء كثيرات وأولاد كثيرون، هذا الرجل الذي لم يكن لديه جمال مميّز ولكنّه كان متّقد الذكاء، واسع الحيلة، شديد المعاملة، سريع البديهة، والدها الذي تخلّص من البؤس، وعاش دوماً، ما إن أثرى، محاطاً بمجتمعٍ صغير يظهر له امتناناً وطاعة... أن يجد هذا

الرجلُ المدلّلُ نفسه وحيداً وربّما متروكاً، كان هذا يهدهد لديها، ورغماً عنها، حقداً قديماً مبهماً.

كان يبدو لها أنّ والدها تلقّى العِبرة التي كان يفترض بالحياة أن تدخلها إلى قلبه في وقتٍ أبكر بكثير.

ولكن من أيّ نوع كانت هذه العِبرة؟

كانت تشعر أنّها بتفكيرها هذا تغدو تافهة حقيرة.

لأنّه إذا كان والدها قد أوى أناساً منتفعين، ولم يحظ قطّ بأصدقاء حقيقيّين أو بنساء صادقات (ما عدا أمّها هي، فكّرت نورا) ولا حتّى بأولادٍ محبّين، وإذا كان قد تقدّم في السنّ وأصبح خائر القوى وأقلّ ثراءً على الأرجح، يجرجر خطاه وحيداً في منزله الموحش، فَفيمَ تفيده إذن عِبرة عظيمة موقّرة، ولِمَ قد يحمل ذلك الغبطة لنورا المتربعّة في شاهقِ فضيلتها كفتاةٍ غيورٍ انتقمت أخيراً لعدم انتمائها أبداً لحلقة المقرّبين من أبيها؟

وإذ شعرَت أنّها حقيرة وسافلة خجلَت لحظتها من جلدها اللاهب، الرّطب، ومن ثوبها المدعوك.

وكما لكي تتلقّف ظنونها السيّئة أو لتتأكّد من أنّه لن يبقى لوقت طويل وحيداً سألته:

– هل سيعود سوني عمّا قريب؟

همس أبوها:

– سيقول لكِ ذلك بنفسه.

– وكيف له أن يفعل ذلك ما دام غائباً؟

ثمّ صرخ وهو يصفّق بيديه:

– ماسيك!

مكتبة

تطايرت أزهار صغيرة صفراء من البونسيانة من كتفيه ورقبته على البلاط وعلى طرف أحد شبشبَيه البلاستيكيّين فسحقها بحركة رشيقة من قدمه.

وللحال أحسّت نورا أنّه يسحق ثوبها المنثور بأزهار مماثلة.

وصل ماسيك وهو يدفع عربة صغيرة محمّلة بالأطباق والصّحون ولوازم الطاولة وشرع في وضعها على طاولة الزّجاج.

قال الأب:

- اجلسي، لنأكل.

- أريد أن أغسل يديّ أوّلاً.

وألفت في نبرة صوتها تلك الحميّا القاطعة التي لم تكن تستعملها قطّ مع أيّ كان سوى والدها، والعامدة إلى استباق كلّ محاولة من قبله لكي يأمر ماسيك، أو منصور سابقاً، بتنفيذ ما كانت تتهيّأ للقيام به، لعلمها كم كان يأنف من رؤية ضيوفه يقومون بأدنى عمل مبدين بذلك ارتياباً بكفاءة خدّامه إلى حدّ أنّه كان قادراً على أن يقول لها: ماسيك سيغسل يديكِ بدلاً عنك، أو لعجزه عن أن يتصوّر أنّها لن تطيعه كما كان قد أطاعه دوماً الشبّان والعجائز حوله.

لكنّ والدها لم يكد يسمعها.

كان قد جلس متابعاً بعين ساهمة حركات ماسيك.

وجدت بشرته أكثر قتامة ودكنة من قبل، فاقدةً رونقها. تثاءب ملء شدقيه صامتاً مثل كلب.

أيقنت عندئذٍ أنّ الرّائحة النتنة الخفيفة التي لاحظتها عند العتبة صادرة في الوقت نفسه من البونسيانة، ومن جسد والدها، لأنّ الرّجل بأكمله كان

يسبح في التعفّن البطيء للأزهار الصفراء الضاربة إلى البرتقالي. فكّرت: هذا الرّجل الذي كان قد اعتنى بأناقة مظهره أيّما اعتناء، والّذي لم يتعطّر إلّا بأطيب العطور، هذا الرّجل الأنوف القلق الذي لم يشأ قطّ أن تشيع منه رائحته الحقيقيّة!

أيّ مسكين هوَ، من كان سيفكّر أنّه سيصبح طائراً عجوزاً ضخماً، أخرق، تنبعث منه روائح نفّاذة؟

اتّجهت صوب المطبخ سالكة رواقاً إسمنتيّاً طويلاً يضيئه بوهنٍ مصباح كسته ذروق الذباب.

كان المطبخ هو الحُجرة الأكثر ضيقاً وعسراً في هذا المنزل غير المتناسق. وهذا ما تذكّرته نورا وأدرجته في لائحة الشكاوى التي لا تنتهي بحقّ والدها عارفةً تمام المعرفة أنّها لن تفصح له لا عن الكبيرة منها ولا عن التافهة، وعارفةً أيضاً أنّه لن يمكنها أبداً أن تستحضر، في واقع المواجهة مع هذا الرّجل الذي لا يُكْنَهُ سرّه، الجرأةَ التي لم تكن تعوزها حين تكون بعيدة عنه لتثقل كاهله بالملامات، الأمر الذي أثار استياءها وجعلها خائبة من نفسها، وزاد في حنقها عليه إذعانها وتقاعسها عن قول أيّ شيء له.

لم يكن والدها يأبه بتشغيل خدّامه في مكان ضيّق عسير ما دام لن يطأ أرضه لا هو ولا ضيوفه.

ربّما لن يستطيع والدها فهم مثل هذه الفكرة، قالت في نفسها بحقدٍ مستفيض، وسيعزوها إلى حساسيّة زائفة بامتياز، وإلى أنوثتها، والعالم الذي كانت تعيش فيه وكانت ثقافته مختلفة عن تلك التي تلقّاها.

لكأنّه سيقول لها بنبرة مدّعية ومترفّعة: «نحن من بلدين مختلفين ومجتمعين مختلفين، »مستدعياً ربّما «ماسيك »ليسأله أمامها عمّا إذا كان

مكتبة

المطبخ يناسبه أم لا وعليه سيردّ «ماسيك» إيجاباً، ولن يتكرّم عليها والدها بنظرة ظافرة حتّى لئلا يعطي أهميّة لموضوع تافه، لا بل سيعتبر الموضوع ببساطة أمراً منتهياً.

أيّ معنى أو فائدة أن يكون الأب رجلاً يتعذّر التفاهم معه وأن تكون عاطفته أمراً مشكوكاً به، كانت تفكّر بذلك مرّة أخرى لكن بهدوء دون أن ترتجف من جرّاء ذاك الشّعور بالعجز والغضب والإحباط الذي كان يهدّها فيما مضى حين كانت الظّروف تجعلها تصطدم مواجهةً بالفروق المحتّمة المتعلّقة بالتربية، والمفاهيم، والنظرة إلى الوجود، بين ذاك الرّجل ذي الأهواء الباردة، الذي لم يعش في فرنسا إلّا بضع سنوات، وبينها هي التي عاشت فيها على الدّوام والتي كان قلبها متأجّج العاطفة، فائق الحساسيّة.

ومع ذلك كانت هنا، في منزل والدها، وقد استجابت لندائه ما إن استدعاها.

ولو أنّها كانت تتّصف بقدرٍ أقلّ بقليل من هذه الانفعاليّة التي كان والدها يكرهها كرهاً صريحاً ويكره معها ابنته بالذات وكلّ الغرب المترهّل والمخنّث، لكانت وجدت ذريعة ما للامتناع عن القيام بهذا السّفر. «... وسيكون شرفاً لي ومن دواعي سروري حقّاً إن استطعْتِ، بقدر طاقتك، أن تنفصلي لوقتٍ طويل نسبيّاً عن عائلتك وتأتي إليّ أنا والدك، لأنّ لديّ أشياء هامّة وخطيرة أريد أن أحدّثك عنها...».

آه كم تشعر بالندم منذ تلك الآونة على امتثالها لإرادته، وكم كانت تتوق للعودة إلى ديارها والاهتمام بحياتها هيَ!

كان هناك صبيّة نحيلة ترتدي قميصاً قطنيّاً ومئزراً رثّاً تنظّف القدور

في مجلى المطبخ الصّغير.

لاحظت نورا أنّ الطّاولة كانت مليئة بالأطباق التي تنتظر أن تُقدَّم لها ولوالدها.

تعجّبت لرؤيتها دجاجاً محمّراً، وكسكسيّاً، وأرزّاً بالزّعفران، ولحماً قاتماً بصلصة الفستق، وأطباقاً أخرى قدّرت وجودها تحت الأغطية الشفّافة التي يكسوها البخار، وهذا الفيض من الطعام أنهك قواها وبدأ يثقل على معدتها.

انسلّت بين الطاولة والمجلى منتظرةً أن تنتهي الصبيّة التي كانت تنظّف بعناء مسخّن ماء كبير.

كان المجلى من الضيق بحيث كانت حوافّ القدور ترتطم بحوانبه على الدوام أو بالصنبور. وبما أنّه لم يكن مزوّداً بفسحة لتجفيف الأواني، توجّب على الصبيّة أن تنحني لتضعها على خرقة مبسوطة أرضاً.

ومرّة أخرى، غضبت نورا لرؤيتها البرهان على قلّة اهتمام والدها براحة خدّامه.

غسلت يديها سريعاً وهي تتوجّه إلى الصبيّة بابتسامات وإيماءات من رأسها.

سألتها عن اسمها، وحين بعدَ صمتٍ وجيز (فكّرت نورا أنّها ربّما كانت تتعمّد هذا الصّمت لتضفي على جوابها أهميّة ما) هتفت الفتاة: خادي دمبا، شعرت نورا بأنّ الفخر المستكين في صوتها الحازم وفي نظرتها الصّريحة هدّأ من روعها وبدّد قليلاً الغضب من قلبها ومعه التّعب الممزوج بالقلق والضغينة.

كان صوت والدها يتردّد صداه في الرّواق.

مكتبة

كان يناديها بنفاد صبر.

أسرعت لموافاته فوجدته منزعجاً، مستعجلاً للانقضاض على التبّولة بالقريدس والفواكه التي وضعها ماسيك في الصحنَين المتقابلَين.

ما إن جلست حتّى بدأ يأكل بنَهم، ووجهه تقريباً بمحاذاة صحن الطعام، وهذه الشّراهة المفرطة التي لا يقطعها أيّ كلام أو أيّ لياقة كانت تتنافر تماماً مع العادات القديمة لهذا الرّجل الذي كان يتصنّع في تصرفاته بيسرٍ تامّ، وأوشكت نورا أن تسأله، إذا كانت مصاعبه الماليّة بالحجم الذي تفترضه، فهل صام الأيّام الثلاثة الماضية لتوفير مؤونة هذا العشاء، وفي اعتقادها أنّه كان قادراً على القيام بذلك بهدف إذهالها.

كان ماسيك يجلب الطبق تلو الآخر بإيقاعٍ كانت نورا تعجز عن اللّحاق به.

ارتاحت لرؤية والدها لا يعير أيّ اهتمام لما كانت تأكله.

لم يكن يرفع رأسه إلّا ليتفحّص بعين مرتابة ونهمة ما وضعه ماسيك على الطّاولة، وحين اختلس النظر لمرّة واحدة إلى صحن نورا، فعل ذلك بشيء من الخشية الطفوليّة وكأنّه يتأكّد فقط ممّا إذا كان ماسيك قد خصّها بكميّة من الطّعام أكبر منه.

أحسّت باضطرابٍ عميق حيال ما يجري.

كان والدها، ذاك الرّجل المهذار، والمتشدّق بالكلام، ملتزماً الصمت.

وحدها كانت تُسمع في المنزل الموحش قرقعة أواني المائدة ووقع قدمي ماسيك على البلاط، وربّما أيضاً حفيف أغصان البونسيانة العالية على سقف الصّفيح، فهل كانت تنادي والدها، تساءلت نورا بشكلٍ مبهم، هل كانت تناديه للّيل تلك الشّجرة المتوحّدة؟

كان لا يزال منكبّاً على الأكل، منتقلاً من الحمَل المشويّ إلى الدّجاج بالصلصة، يكاد لا يلتقط أنفاسه بين لقمتين ومالئاً جوفه دون لذّة.

وفي الختام، قدّم له ماسيك ثمرة مانغا مقطّعة إلى قطع صغيرة.

أدخل قطعة في فمه ثمّ أخرى، ورأته نورا يمضغ بصعوبة محاولاً البلع دون جدوى.

ثمّ لفظ المانغا الممضوغة في صحنه.

كانت الدّموع تنساب على وجنتيه.

وشعرت نورا بوجنتيْها ملتهبتين.

نهضت، وقد سمعت فمها يتمتم بشيء ما، وجاءت لتقف خلفه حائرةً ماذا تفعل بيديها، هي التي لم يسبق أن تُلفي نفسها قطّ في موقف مماثل، ولم يسبق لها أن طمأنت والدها أو أظهرت له إلّا مراعاة شكليّة، مكرهة ومشوبة بالحقد.

فتّشت عن ماسيك بعينيها لكنّه كان قد ترك الغرفة مع آخر الأطباق.

كان والدها لا يزال يبكي بصمت ووجهه فارغ من أيّ تعبير.

جلست بالقرب منه مدنيةً جبينها بأقرب ما يمكن من وجهه المجعّد المبلّل بالدّموع.

كانت تستطيع أن تشمّ، خلف رائحة الطّعام والعصائر المطيّبة بالأفاويه، الرائحة اللّزجة لأزهار الشجرة المتعفّنة، وكانت تستطيع أن ترى الياقة الوسخة لقميص والدها بما أنّه كان يحتفظ برأسه منحنياً قليلاً.

وخطر لها حينئذٍ ما رواه لها شقيقها سوني قبل سنتين أو ثلاث، ولم يشأ والدها إفشاؤه لها ولشقيقتها وأشعرها تكتّمه بالضغينة حياله ثمّ نسيت الخبر ومعه المرارة التي أثارها ذاك الصّمت، لكنّها استذكرتهما من جديد

مكتبة

في آنٍ واحد وجعلا صوتها قاسياً في حين كانت تريده مواسياً.

سألته:

- أين هما ولداك، قل لي؟

تذكّرت أنّ لديه توأمين لكنّها نسيت جنسيهما.

نظر إليها مذهولاً:

- ولداي؟

قالت له:

- آخر ولديْن أنجبتهما على ما أظنّ، هل اصطحبتهما زوجتك معها؟

قال هامساً:

- تقصدين الصّغيرتيْن؟ آه، لا، بقيتا هنا.

واستدار مشيحاً وجهه عنها وكأنّه، لفرط خيبته، كان يأمل لو أنّها حدّثته عن شيء يجهله أو لم يكن قد ألمّ بكلّ جوانبه، وكان هذا سيريحه بطريقة عجيبة غريبة.

لم تستطع أن تتمالك ارتجافة صغيرة من الظفَر الحاقد المنتقم.

كان سوني الابن الوحيد لذاك الرّجل الذي لا يحبّ البنات ولا يقدّرهنّ.

كانت نورا ترى أنّه كان مطوّقاً من كلّ جانب بابنتين، لا جدوى منهما، هي وشقيقتها، ما كانتا جميلتين، وكان والدهما يأخذ عليهما دوماً عيباً لا يُغتفر، ألا وهو تأصُّل سِماتهما، أي أنّهما كانتا تشبهانه أكثر ممّا تشبهان أمّهما وتشكّلان بذلك شاهدين مزعجين على بطلان زواجه بفرنسيّة. فأيّ خير يُرجى من هذه الزيجة إن لم يكن أطفالاً بيضاً، أو يكادون، وأبناءَ حِسان الخِلقَة؟

ولكنّ هذا كلهّ لم يفضِ إلى نتيجة.

وضعت يدها برفْق على كتفه.

كانت مضطربة على أيّة حال وقد أحسّت بنفسها ممتلئة بتعاطف مرير. قالت:

- أودّ أن ألتقيهما. ثمّ أضافت على الفور تفادياً لسماعه يسألها عن مقصدها: ابنتاك، الصّغيرتان!

تملّصت كتف أبيها السّمينة من يدها في حركة لا إراديّة كيما يشعرها أنّه لا يمكن أيّ ظرف أن يجيز ألفة مماثلة بينهما.

ونهض متثاقلاً ماسحاً وجهه بكمّ قميصه.

وفتح في آخر الغرفة باباً مهلهلاً مزجّجاً، ثمّ أضاء المصباح الوحيد الذي كان ينير رواقاً جديداً ضيّقاً وطويلاً من الإسمنت الرماديّ، راحت نورا تتذكّر أنّه كان يطلّ على غرف صغيرة مربّعة كان يقيم فيها سابقاً أقارب أبيها الكثيرون.

كانت تستمع إلى الطريقة التي يتردّد فيها صدى الخطوات ونفس أبيها الصاخب غير المنتظم وسط الصّمت، فتوقن أنّ هذه الغرف باتت فارغة.

بدا لها أنّهما يسيران منذ دقائق طويلة حتّى أوّل انعطاف للرواق ثمّ مرّة أخرى في الاتّجاه المعاكس حيث أصبح شبه معتم ومن الضيق بحيث أوشكت نورا أن تعود أدراجها.

توقّف والدها أمام باب مغلق.

أمسك المقبض ومكث للحظة جامداً. وضع أذنه على الباب ولم تعرف نورا ما إذا كان يحاول أن يسترق السّمع أو يجمع كلّ قواه الذهنيّة قبل أن يعقد العزم على فتح الباب. ولكنّ تصرّف هذا الرّجل الغامض والمُوهِم

مكتبة

أبداً في آن واحد (آهِ كم كانت مخطئة حين ظنّت أنّ الوقت، بما أنّها لم تكن قد رأته منذ عدّة سنوات، كفيل بتحسين صورته ومصالحتها معه) كان ينفّرها ويقلقها أكثر من ذي قبل لا سيّما وأنّها لم تكن أكيدة قطعاً من أنّه قد يرتدع، نظراً لوقاحته الجامحة وغبطته المتبجّحة التي لا دعابة فيها، عن إبداء ملاحظة لا يمكن نسيان قساوتها.

وبغتة، وكأنّه يريد أن يفاجئها ويحرجها في الوت نفسه، فتح الباب.

واختفى على الفور، بجزع واشمئزاز، لكي يفسح لنورا المجال للدخول.

كانت الغرفة مضاءة بمصباح كُمّه ورديّ اللّون وُضع على الطاولة بين سريرين تتربّع على الأضيق حجماً بينهما الصبيّة التي رأتها نورا في المطبخ، وقالت لها إنّها تُدعى خادي دمبا، وقد لاحظت نورا شرماً في فلقة أذنها اليمنى.

كانت جالسةً القرفصاء على السّرير وتخيط فستاناً قصيراً أخضر.

حدجت نورا بنظرة وابتسمت لها ابتسامة خاطفة.

وفي السّرير المقابل، كانت فتاتان صغيرتان ترقدان متقابلتَين، متدثّرتَين بغطاء أبيض.

وبانقباض خفيفٍ في القلب، فكّرت نورا أنّ وجهَي هاتين الطفلتين كانا أجمل وجهين رأتهما على الاطلاق.

ربّما استيقظتا من جرّاء نفحات الهواء الحارّة التي كانت تأتي من الرواق إلى الغرفة المكيّفة أو بسبب تغيّر خفيّ في السكون الذي يرين عليها. فتحت الفتاتان أعينهما في الوقت نفسه.

رمقتا والدهما بنظرات واجمة، شرسة، لا يلوح فيها أيّ دفء ولا

ابتهاج برؤيته، ولا أيّ خشية منه أيضاً، ولاحظت نورا أنّه كان يبدو وكأنّه يذوب من جفاء هذه النظرات. وفجأةً أخذ العرق يتصبّب من شعر رأسه المقصوص، ووجهه، وعنقه البارز من فتحة قميصه، وكان عرقه ذا رائحةٍ لاذعة قويّة أشبه برائحة الأزهار المسحوقة.

مذعوراً بدا هذا الرجل الذي عرف فيما مضى كيف يشيع حوله جوّاً من الخوف المبهم، والذي لم يثر فيه أحدٌ رهبة على الإطلاق.

ما الذي كان يخشاه من فتاتين صغيرتين، تساءلت نورا، وهما أشبه بمعجزتين نسبة إلى سنّه الكبيرة، وكانتا من الجمال والحسن بحيث تقدران، لا بدّ، على جعله ينسى انحطاط جنسهما، والجمال القليل الذي يسِم ابنتيه الكبيرتين نورا وشقيقتها؟ كيف بإمكان طفلتين ساحرتين أن تروّعاه؟

اقتربت من السّرير وجثت على ركبتيها مبتسمة للوجهين الصغيرين المتماثلين المستديرين، الأسمرين، الأملسيْن اللذين بدوا مثل رأسيْ فقمتين تستريحان على الرّمال.

وعندئذٍ دوّت أولى نغمات «مسز روبنسون»[1] في الغرفة.

انتفض الجميع، بما فيهم نورا التي عرفت مع ذلك رنين هاتفها الخلويّ. وضعت يدها في جيب فستانها متهيّئة لقطع المكالمة ولكنّها إذ رأت أنّ الاتّصال آتٍ من عائلتها، وضعت الهاتف على أذنها بانزعاج في سكون الغرفة الذي بدا وكأنّه استحال حذِراً وعدائيّاً بشكلٍ مبهم بعدما كان هادئاً، ثقيلاً، بليداً.

وكأنّهم -فكّرتْ- في انتظار الكلمات الحاسمة والواضحة التي ستجعلهم يختارون إمّا إقصائي أو قبولي بينهم.

(1) مسز روبنسون أغنية كتبها المغنّي الأميركيّ بول سايمون وسجّلها للمرّة الأولى عام 1968.

مكتبة

هتف صوت لوسي:

- ماما هذه أنا!

- صباح الخير يا عزيزتي. هل بإمكانك أن تتكلّمي بصوتٍ أخفض، أسمعكِ جيّداً، قالت لها وجبينها يشتعل توتّراً. هل ثمّة خطب ما؟

- لا. الآن نحضّر الكريب[1] مع غريتا. وسنذهب فيما بعد إلى السينما. نمضي وقتاً ممتعاً.

ردّت قائلة:

- رائع. أقبّلك. أكلّمكِ لاحقاً.

أغلقت الهاتف بعصبيّة ودسّته في جيبها.

تظاهرت الفتاتان بالنوم وأجفانهما ترتعش وشفاههما مغلقة.

خائبة الظنّ، داعبت نورا وجناتهما، ثمّ نهضت، حيّت خادي وخرجت من الغرفة برفقة والدها الذي أغلق الباب خلفه برويّة.

فكّرت بحزنٍ أنّه أخفق مرّة أخرى، على ما يبدو، في إقامة علاقةٍ حنونٍ بسيطةٍ مع أولاده، وأنّ رجلاً يُستقبل بنظرات بهذه القسوة لم يكن يستحقّ هاتين الفتاتين الجميلتين الصّغيرتين ثمرتي شيخوخته. وفكّرت أيضاً أنّ لا شيء ولا أحد كان يستطيع أن يصلح سلوك هذا الرجل إلّا إذا استبدل قلبه بآخر.

ولكن، وفيما كانت تلحق به في الرّواق الموحش، وتشعر بالوزن الخفيف لهاتفها يرتّج على فخذها، أقرّت في سرّها، كئيبة وممتعضة، بأنّ هذا الغضب حيال والدها كان يستزيد من الحماسة الفائضة التي لمستها في صوت لوسي، وأنّ الملاحظات اللاذعة التي لم تكن لديها القدرة أو

---

(1) فطيرة بالبيض والحليب والسكّر.

الجرأة على توجيهها إلى جاكوب، الرجل الذي تعيش معه منذ عام، كانت ترتدّ توّاً على والدها الذي كان يتقدّمها في الرّواق الكئيب، بريئاً، محدودب الظهر، مترهّلاً.

ذلك أنّها كانت تتذكّر شقّتها العزيزة في باريس، وهي الرمز الحميم المتواضع لدأبها ونجاحها الخفيّ. بعد أن عاشت فيها وحيدة لبضع سنوات مع لوسي، أدخلت إليها جاكوب وابنته غريتا، ومعهما الفوضى والضياع. كان شراء هذه الشقّة المؤلّفة من ثلاث غرف في «لا غوت دور»[1] (من خلال قرض يمتدّ على ثلاثين سنة)، مدفوعاً بالرغبة الروحيّة في الانعتاق تحديداً من الحيرة التي كان والدها تجسيداً مقلقاً لها طيلة حياتها، والدها بجناحيه المطويّين تحت قميصه، المسنّ اليوم، المهلهل، البدين، الغريب في الرواق الكئيب.

آه، استشعرت الخطر عبر صوت لوسي العالي النبرة، العجول، اللاهث. لا بدّ أنّ الشقّة لحظتذاك أضحت مسرحاً لعروض الاندفاع الأبويّ الذي كانت تمقته، ويتميّز بامتناع جاكوب المكابر عن فرض أيّ قيد أو ممارسةِ أدنى سلطة على الفتاتين اللتين كانتا في السابعة من عمرهما، وكذلك بإطلاقه المبادرة لإعداد طبقٍ، مع ما يرافق ذلك من هرج وفوضى وابتهاج لا منفعة ترجى منه، لأنّه لن تكون لديه غالباً لا القدرة ولا الرغبة ولا الصّبر لإنهائه، وستبقى رقائق الكريب أو الحلوى دون طهي، وسيقترح في هذه الأثناء نشاطاً آخر أو نزهة بصوته الذي يعلو فجأةً عجولاً لاهثاً والذي كانت الفتاتان تقلّدانه، ثمّ يرهقهما ويغيظهما

---

(1) حيّ لاغوت دور La goutte d'Or (النقطة الذهبيّة) الواقع في الدائرة الثامنة عشرة من باريس، شرقيّ مونمارتر. وهو عامر بالأسَر المهاجرة.

مكتبة

بهجماته المتتالية، وغالباً ما تنهار الفتاتان في آخر المطاف باكيتين ثائرتيْ الأعصاب، ويبدو لنورا أنّ إحساساً غامضاً كان يخالجهما بأنّ النهار، بالرغم من الضحك والصياح، كان مخيّباً لآمالهما، زائفاً، وغريباً.

آه أجل استشعرت ذلك من صوت لوسي؛ وبدأ القلق ينتاب نورا لأنّها لم تكن هناك، أو لعلّها راحت تُطْلِق من عقاله ذاك القلق الذي كان يسعى إلى الظهور كلّما اقترب موعد رحيلها والذي وأدته في صدرها، ليس لأنّ هناك أدنى خطورة، موضوعيّاً، في ترك الفتاتين برعاية جاكوب، ولكنّها كانت تشعر بضيق شديد بمجرّد التفكير أنّ قيم الانضباط والاعتدال والترفّع الأخلاقيّ التي بدت لها أنّها اجتمعت في شقّتها الصّغيرة والتي يفترض بها أن تمثّل حياتها نفسها وتزيّنها وأن ترتكز إليها طفولة لوسي، قد انتهكت في غيابها بزهوٍ بارد، منهجيّ، على يد رجلٍ لا شيء كان يرغمها على إدخاله إلى منزلها، ما خلا الحبّ والأمل.

باتت عاجزةً عن معرفة الحبّ وراء الخيبة، وفقدت الأمل بحياة عائليّة منتظمة، متوازنة، متناغمة.

فتحت الباب فدخل الشرّ إلى منزلها مبتسماً، عذباً، مستحكماً.

بعد سنواتٍ من الارتياب، بعدما هجرت والد لوسي واشترت هذه الشقّة، بعد سنواتٍ من البناء الدؤوب لحياة كريمة، فتحت بابها لتقضي على هذه الحياة.

يا لخزيها.

لم يكن بوسعها أن تقول ذلك لأحد.

لم يكن هناك ما يمكن البوح به أو كنهُهُ في الخطأ الذي ارتكبته -ذاك الخطأ وتلك الجريمة بحقّ جهودها بالذات.

لم يكن بوسع أمّها أو شقيقتها أو أصدقائها القلائل أن يفهموا كيف أنّ جاكوب وابنته غريتا، وكلاهما لطيفان وساحران، كانا يعملان بدأب على تدمير التوازن الجميل الذي ارتقت إليه حياة نورا ولوسي معاً، قبل أن تفتح نورا طوعاً بابها للشرّ المُغويّ، كما لو أنّ الكثير من الحذر أعمى بصيرتها في النهاية.

كم كانت تشعر بنفسها وحيدة!

كم كانت تشعر أنّها غبيّة ومرتهنة!

يا لخزيها!

ولكن، أين بإمكانها أن تجد بالضبط الكلمات التي تجعلهم يدركون الحزن والغضب اللّذين أحسّت بهما منذ يومين أو ثلاثة خلال شجار عائليّ كان يكشف لعينيها بوضوح غدر جاكوب المشين، والتفاهة الفكريّة التي وجدت نفسها منساقة إليها هي التي كانت تصبو إلى الرهافة والبساطة وترتاع من العقول المشوّشة وتهرب منها عند أدنى إشارة يوم كانت تعيش وحيدة مع لوسي عاقدةً العزم على عدم تعريض ابنتها للجنوح والضلال؟

ولكن غاب عن بالها أنّ بإمكان الشرّ أن يستتر بنظرة لطيفة، وأن يكون بصحبة فتاة دمثة، وأن يُغدِقَ الحبّ -آه، ها هي تدرك الآن أنّ حبّ جاكوب لا شخصيّ، مستفيض وغامض، ولم يكن يكلّفه شيئاً.

كانت نورا قد استيقظت قبل الجميع كما في كلّ صباح، وقدّمت الطعام لغريتا ولوسي، وهيّأتهما للذهاب إلى المدرسة، وعندئذٍ خرج جاكوب من الغرفة فيما كانت نورا تنهي تسريح شعرها في غرفة الحمّام، هو الذي لم يكن يستيقظ عادةً إلّا بعد وقت طويل من رحيلهنّ ثلاثتهنّ.

كانت الفتاتان تعقدان شرائط حذاءيهما، وعندئذٍ بدأ بمضايقتهما، جاذباً

مكتبة

شريطاً من عروته، منتشلاً أحد الحذاءين ومهرولاً لإخفائه تحت الكنبة وهو يطلق ضحكات طفل ساخر غير مبالٍ بالوقت، أو بِحيرة الطفلتين اللّتين استمتعا في بادئ الأمر ثمّ هرولتا خلفه في الشقّة وهما تتوسّلان إليه لكي يوقف دعاباته. كانتا على حافة البكاء وتحاولان مع ذلك الابتسام لأنّ الموقف كان، في الظاهر، مسلّياً مضحكاً، واقتضى الأمر أن تتدخّل نورا وتأمره، كمن يأمر كلباً، بتلك النبرة التي تصطنع اللطف، المختلجة بغضب ملجوم، التي لا تلجأ إليها إلّا مع جاكوب، بإرجاع الحذاءين على الفور، فامتثل إليه جاكوب بتهذيبٍ فائقٍ جعل نورا والفتاتَين يشعرْن بحزن مفاجئ ويظهرْن بمظهر السيّدات العجوزات المسكينات اللواتي يحاول عفريت لطيف إسعادهنّ بلا جدوى.

كانت نورا تعرف أنّه يتوجّب عليها آنذاك أن تسرع لئلا تتأخّر على أوّل موعد لها في المكتب. لذا اعترضت غاضبة حين أظهر جاكوب فجأةً رغبته بمرافقتهنّ، لكنّ الفتاتين ساندتاه وشجّعتاه، وعندئذٍ أذعنت نورا ممتثلة، محبطة، وكان عليهنّ الوقوف بمعاطفهنّ وأحذيتهنّ وشالاتهنّ منتظراتٍ بصمتٍ في المدخل أن ينهي ارتداء ثيابه ويوافيهن بمرحٍ كان يبدو لنورا مصطنعاً لا بل مريباً، وفي اللحظة التي كانت تعاين فيها ساعتها بقلق التقت نظراتها بنظرات جاكوب ولم ترَ فيها، خلف بريقها المتوقّد بإصرار، إلّا مكراً أليماً وشيئاً من القسوة.

تساءلَتْ وقد أخذها دوار: أيّ نوعٍ من الرجال أدخلْت إلى بيتي؟

عندئذٍ أحاطها بذراعه وشدّها إليه بحنان لم يسبق لأحدٍ أن أظهره لها، فقالت في نفسها مرّة أخرى بائسةً: من ذا الذي يستطيع، وقد عرف الحنان مرّةً، أن يتخلّى عنه ببساطة؟

وبعدها راحوا يتخبّطون في بقايا الثلج الموحل على الرّصيف، ثمّ اندفعوا إلى سيّارة نورا الصّغيرة المتجمّدة غير المريحة.

جلس جاكوب في المؤخّرة مع الفتاتين درجاً على تلك العادة المزعجة، فكّرت نورا (ألم يكن مكانه بصفته بالغاً في المقدّمة بالقرب منها؟) وفيما كانت تحمّي المحرّك سمعته يهمس للطفلتين بأنْ لا ضرورة تدعوهما إلى وضع حزام الأمان.

سألت لوسي مندهشة وقد توقّفت عن تشغيل المحرّك:

- ولكن لماذا؟

فأجابها بصوته المستثار الغريب:

- لأنّنا لا نذهب إلى مسافة بعيدة.

بدأت يدا نورا ترتجفان على المقود.

فأمرَت الفتاتين بوضع حزامهما في الحال والغضب المسعور الذي كانت تشعر به حيال جاكوب قسّى نبرتها وبدا وكأنّها تتوجّه إليهما مؤنّبة، ما جعل لوسي وغريتا تشعران بالظلم لأنّهما رمقتا جاكوب بنظراتٍ شاكية.

قال:

- المسافة قريبة حقّاً، على أيّة حال، أنا لن أضع حزامي.

وانطلقت نورا في السيّارة.

كانت بلا شكّ متأخّرة على موعدها هي التي دأبت دوماً على عدم التأخّر.

كانت على حافة البكاء.

كانت امرأة ضائعة، تثير الإشفاق.

مكتبة

بعد تردّدٍ، تخلّت غريتا ولوسي عن وضع الحزام، ولم تقل نورا شيئاً، وكانت مستاءة من جاكوب لأنّه يسعى دوماً إلى إظهارها بمظهر المضجرة أو اللئيمة، وتشعر بالاشمئزاز من نفسها لأنّها جبانة ودون كرامة.

رغبت في أن تصدم باصاً بسيّارتها لتثبت له ضرورة وضع الحزام. لكنّه كان يعرف ذلك، أحقّاً؟ أكان يعرفه حقّاً؟

لم تكن المسألة هنا؛ أين كانت إذن؟ ماذا كان يريد منها هذا الرّجل ذو النظرة المشرقة العذبة، المتشبّث بظهرها زيادةً عن الوزن الزائد لطفلته الرائعة، ماذا كان يريد منها هذا الرّجل الذي نشب مخالبه الصّغيرة الليّنة في خاصرتها دون أن تقدر، رغم هجماتها المرتدّة، على انتزاعها؟

هذا ما لم تكن تملك لا القدرة ولا الجرأة على شرحه لأمّها وأختها وأصدقائها القلائل المتبقّين لها: تلك المواقف التافهة، ومحدوديّة أفكارها وعطب حياتها خلف المظاهر الجميلة التي كانت تفتن بسهولةٍ الأمّ أو الأخت أو الأصدقاء، لأنّ قدرة جاكوب وابنته على التغرير كانت رهيبة.

توقّف والد نورا أمام إحدى الغرف الضيّقة التي كانت تتوالى على طول الرواق.

فتح الباب بحذر ثمّ تراجع في الحال إلى الخلف.

قال:

- ستنامين هنا.

وبإشارة منه إلى أعماق الرواق، وكما لو أنّ نورا عبّرت عن تحفّظ ما حيال هذه الغرفة، قال:

- في الغرف الأخرى، لم يعد هناك أسرّة.

أشعلت نورا المصباح السقفيّ.

كانت ملصقات للاعبي كرة السلّة معلّقة بمسامير صغيرة على كلّ جدار.

همست:

غرفة سوني.

هزّ والدها رأسه ولم يحر جواباً.

كان يتنفّس بصخبٍ أكبر، فاغراً فمه، ملصقاً ظهره بحائط الرواق.

سألت نورا:

- ما اسم الصغيرتيْن؟

نظر مواربةً متظاهراً بأنّه يفكّر.

ثمّ رفع كتفيه استهزاءً.

وأطلقت نورا ضحكة صغيرة معبّرة عن صدمتها.

- ألا تذكر اسميهما؟

- والدتهما هي التي اختارتهما، وهما اسمان غريبان، لم أستطع قطّ حفظهما.

وضحك بدوره، دون بهجة.

وفجأةً تولّتها دهشة كبيرة إذ رأت أمارات اليأس على وجهه.

- وماذا تفعلان في النهار عندما تكون والدتهما غائبة؟

قال بلهجة جافّة:

- تبقيان في غرفتهما.

- طيلة النهار؟

مكتبة

- لديهما كلّ ما يلزم. لا يعوزهما شيء. الصبيّة التي هنا تهتمّ بهما كما يجب.

أرادت نورا عندئذٍ أن تسأله عن السبب الذي استدعاها من أجله. ولكنّها كانت تعرف والدها بما يكفي لتدرك أنّ السبب لا يتعلّق بمجرّد الرغبة في رؤيتها بعد كلّ تلك السنوات، وأنّه يريد منها شيئاً محدّداً، إلّا أنّه بدا لها في منتهى العجز والهشاشة فآثرت الامتناع عن سؤاله لاعتقادها أنّه سوف سيتحدّث معها عن الموضوع ما إن يصبح جاهزاً لذلك.

ومع ذلك لم تستطع أن تتمالك نفسها من القول:

- لن يسعني البقاء هنا إلّا بضعة أيام.

وكانت تفكّر بجاكوب والابنتين الجامحتين فتشعر بألم في أحشائها.

بدا مضطرباً ثمّ قال بانفعالٍ:

- لا يمكنك ذلك. يتوجّب عليك البقاء لوقت أطول بكثير. هذا أمر مفروغ منه! حسناً، إلى الغد.

وتوارى في الرواق مهرولاً وشبشباه يصطفقان على الإسمنت، ووركاه الثقيلان يهتزّان تحت قماش بنطاله الرقيق.

ومع تواريه اختفت رائحة الأزهار المتعفّنة، العذبة والخبيثة في آنٍ واحد، الأزهار المتفتّحة التي سحقها نعلٌ غافل أو داسها بقسوة. وحين خلعت نورا ثوبها في ذلك المساء، حرصت بعنايةٍ فائقةٍ على بسطه فوق سرير سوني حتّى تظلّ الأزهار الصفراء الصّغيرة التي تزيّن بخفرٍ القطن الأخضر نضرة حسنة المنظر، وبعيدة كلّ البعد عن الأزهار الفاسدة للبونسيانة التي كان والدها ينشر رائحتها الفاسدة المشؤومة.

وجدت حقيبة سفرها عند أسفل السّرير.

جالسةً في قميص النوم على سرير أخيها المغطّى بشرشف يحمل رموز نوادي كرة السلّة الأميركيّة، أجالت نظرها بحزنٍ على الصوان الصغير المزدحم بدمىً مغبرّة، ومكتبه الصغير حين كان طفلاً، وكرات السلّة المكوّمة في إحدى الزّوايا وأكثرها مفرغة من الهواء أو مثقوبة.

كانت تتعرّف من جديد على كلّ قطعة أثاث وكلّ غرض وكلّ ملصق.

كان شقيقها في الخامسة والثلاثين ويدعى سوني، ونورا لم تره من سنوات عديدة، لكنه بقي عزيزاً على قلبها.

لم يتغيّر أيّ شيء في غرفة سوني مذ كان مراهقاً.

كيف كان بإمكانه العيش على هذا النحو؟

عرتها قشعريرة بالرغم من الحرّ.

كان الليل مدلهمّاً ساكناً تماماً خلف زجاج شبّاكها الصغير المربّع.

لم يكن يصدر من داخل البيت ولا من خارجه أيّ ضجّة، عدا حفيف أغصان البونسيانة على سطح الصّفيح، ولكنّها لم تكن واثقة من ذلك.

أمسكت هاتفها المحمول وطلبت رقم هاتف شقّتها.

لا أحد.

عندئذٍ تذكّرت أنّ لوسي كانت قد حدّثتها عن الذّهاب إلى السينما، وهذا الأمر كان يزعجها لأنّه يصادف يوم الإثنين، وكان يتوجّب على الفتاتيْن الاستيقاظ باكراً للذهاب إلى المدرسة. ورأت أنّ عليها أن تقاوم هذا الشعور بأنّ كارثة ستحدث أو أنّ فوضى رهيبة ستعمّ في غيابها فتصبح بالتالي عاجزة عن الرؤية، فقط عن رؤية كيف تسير الأمور، لأنّها لم تكن تستطيع التدخّل دوماً.

كانت تنسب هذه المخاوف إلى عيوبها لا إلى تخاذلها.

مكتبة

تلك مغالاة في الكبرياء أنّ تدّعي أنّها وحدها كانت تعرف تنظيم حياة لوسي وغريتا بشكل صحيح، وأنّها وحدها تقدر، بفضل رجاحة عقلها، ودوام قلقها، أن تمنع المصيبة من اجتياز عتبة منزلها.

ألم تكن قد فتحت الباب للشرّ المبتسم الطيّب؟

والوسيلة الوحيدة للتعويض عن تبعات هذا الخطأ الجسيم كانت تكمن في حضورها الدّائم المتيقّظ القلق.

بيْدَ أنّها اضطّرت للتغيّب مستجيبة لنداء والدها.

جالسةً على سرير سوني، كانت تلوم نفسها على غيابها.

فماذا يعني لها والدها، هذا العجوز الأنانيّ، بالمقارنة مع ابنتها؟

ولَمَ قد تهتمّ بحياة أبيها حين يكون توازن حياتها هشّاً إلى هذا الحدّ؟

ومع أنّها أدركت أنّ اتصالها بجاكوب كان غير مجدٍ لأنّه موجود في هذه اللحظة في صالة السينما، طلبت رقم هاتفه.

وتركت رسالة تنطوي على مرحٍ زائف.

كانت ترى وجهه الأليف وعينيه الفاتحتين بتعبيرهما المحايد الحذر، وخطوط شفتيه اللدنة قليلاً، وملامحه اللطيفة المتناسقة، وكانت تدرك تماماً أنّ هذا الكمّ من الدماثة أوحى لها بالثقة فلم تستوقفها الجوانب المزعجة في حياة هذا الرجل الآتي من هامبورغ مع ابنته، ولا الروايات المتباينة بعض الشيء التي ذكرها عن أسباب رحيله إلى فرنسا، ولا أيضاً الغموض الذي كان يحيط بافتقاره إلى الجديّة في دراسته في كليّة الحقوق، أو واقعة أنّ غريتا لم تكن ترى والدتها، التي بقيت في ألمانيا حسب زعمه، ولم تكن تتحدّث عنها أبداً.

باتت عارفة أنّ جاكوب لن يصير أبداً محامياً أو أيّ شيء آخر، وأنّه لن

يُساهم أبداً في نفقات المنزل حتّى لو كان يتلقّى من والديه، على حدّ قوله، من وقتٍ لآخر، بضع مئات من قطَع اليورو التي كان يتباهى بإنفاقها توّاً على الطعام الباهظ الثمن وشراء ملابس غير ضروريّة للطفلتين. وكانت تعرف أيضاً، وتعترف أخيراً بأنّها بكلّ بساطة آوت في بيتها رجلاً وابنته، وكان عليها أن ترعاهما، وأنّها لم تكن تستطيع طردهما، وأنّهما كانا يُضيّقان الخناق عليها.

هذا ما كانت عليه الحال.

أحياناً كانت تحلم في أن تعود ذات مساء إلى بيتها وألا يعود هناك إلّا لوسي، فرحة وداعة كما كانت فيما مضى، بعيداً عن هذه الفوضى الجوفاء التي كان جاكوب يشيعها، وأن تعلن لها لوسي بهدوء أنّ جاكوب وابنته رحلا إلى الأبد.

لأنّ هذا ما كانت عليه الحال، وكانت نورا تعرف أنّها لن تقدر أبداً على التخلّص منهما.

أين بإمكانهما الذهاب وكيف سيتدبّران أمرهما؟ ليس بوسعها القيام بأمرٍ مماثل.

كانت تفكّر أحياناً أنّه وحدها معجزةً بإمكانها تخليصها منهما وتحريرهما، هي ولوسي، من مساكنة هذا الثنائيّ اللطيف والشرّير في لطفه.

لأنّ هذا ما كانت عليه الحال، كانت مكبّلة اليدين.

نهضت وانتشلت من حقيبتها علبة زينتها وخرجت إلى الرواق.

عميقاً كان السكون الذي بدا لها أنّها تسمع اهتزازه.

فتحت باباً تذكرت أنّ بإمكانه أن يكون باب غرفة الحمام.

ولكنّها كانت غرفة والدها، وكانت فارغة. كان السرير مرتّباً، وأوحى

مكتبة

لها سكون الهواء وجمود الأشياء بأنّ الغرفة لم تعد مستعملة.

وسلكت الرواق حتّى الصالون ثمّ اجتازته متلمّسة طريقها.

لم يكن باب المدخل موصداً بالمزلاج.

شدّت علبتها إلى صدرها وأحسّت بحفيف قميصها في جوف ركبتيها.

وقفت عند عتبة البيت وقدماها الحافيتان على الاسمنت الفاتر داهسة الأزهار الصغيرة التي سقطت من البونسيانة الكبيرة، ثمّ تجرّأت أخيراً على رفع رأسها صوب الشجرة آملة بلهفةٍ ألّا ترى شيئاً أو تكتشف عبر الأغصان السوداء المتشابكة، البقعة المنيرة، والتوهّج البارد لجسد والدها المتقوقع الذي خيّل إليها أنّها تسمع تنفّسه الأليم الحادّ، ولهاثه الحزين، لا بل حتّى بكاءه المخنوق، ونحيب تفجّعه الخافت.

وإذ هدّها الانفعال، أرادت مناداته.

ولكن بأيّ اسم؟

لم يسهل عليها قطّ مناداته «بابا»، ولم تكن تستطيع أن تتخيّل نفسها تهتف باسمه الذي تكاد ألّا تعرفه.

وبقيت رغبة مناداته مكتومة في حلقها.

نظرت إليه طويلاً يتأرجح فوقها بوهنٍ كبير، غير قادرة على تمييز وجهه، ولكنّها لمحت الشبشبَين البلاستيكيّين القديمَين المتشبّثَين بأثخن غصنٍ في الشجرة.

يا للفأل السيّئ!

كانت تريد أن تهرب بأسرع وقت ممكن من هذا البيت المشؤوم.

كانت تشعر مع ذلك أنّها، بموافقتها على العودة إليه، وقدرتها على معاينة الشجرة حيث كان والدها جاثماً، قد قطعت شوطاً بعيداً في

اضطلاعها بمسؤوليّاتها، ولا تستطيع بالتالي أن تغضّ الطرف أو أن تعود إلى ديارها.

ذهبت إلى غرفة سوني رافضةً البحث عن غرفة الاستحمام لفرط ما كانت تخشى أن تفتح باباً على مشهد أو موقفٍ يعرّضها للندم.

وجلست من جديدٍ على سرير شقيقها وأخذت ترجّح في يدها هاتفها الخلويّ، سارحةً في أفكارها.

هل كان عليها أن تعاود الاتّصال بمنزلها وتجازف بإيقاظ الطفلتين في حال عودتها إلى المنزل؟

أم تخلد إلى النوم والإحساس بالذنب يخالجها لأنّها لم تأتِ بأيّ جهدٍ لكي تتدارك مشكلة محتملة عتيدة؟

كانت توَدّ لو تسمع مرّة أخرى صوت لوسي.

وخطرتْ لها فجأةً فكرة راعبة أعجزتها عن إيجاد الكلمات اللازمة للتعبير عنها لكنّها استشعرت مع ذلك مدى فظاعتها: هل ستسمع صوت ابنتها ثانية؟

وماذا لو كانت، حين بادرت لزيارة أبيها، قد اختارت، دون أن تدري، بين فريقيْن، وبين نمطيْ حياة ممكنين بالنسبة لها ولكنّ الأوّل فيهما ينافي الثاني حتماً، وبين عاطفتيْن تغار إحداهما من الأخرى غيرة عمياء؟

ومن دون تردّد طلبت رقم الشقّة، ثمّ بما أنّ أحداً لم يُجبْ، طلبت رقم هاتف جاكوب المحمول، ولكن أيضاً دون جدوى.

غفت قليلاً وبشكل سيّء، واستيقظت ما إن لاح الفجر؛ لبست ثوبها الأخضر وخفّيها وانطلقت بحثاً عن غرفة الحمام التي وجدتها في الواقع بالقرب من غرفة سوني.

مكتبة

وعادت إلى غرفة الطفلتين.

دفعت الباب بتؤدة.

كانت الصبيّة لا تزال نائمة.

وكانت الطّفلتان مستيقظتين وقد جلستا مستقيمتين تحت الغطاء وراحتا تحدجان نورا بنظرات قاسية من أعينهما المتشابهة تماماً.

ابتسمت نورا لهما وهمست من بعيد بكلمات رقيقة كانت تقولها عادةً للوسي.

قطّبت الصّغيرتان حواجبهما.

وألقت إحداهما باتّجاه نورا بصقة هزيلة ما لبثت أن سقطت على الغطاء.

ونفخت الأخرى وجنتيها مستعدّة لتقليد أختها.

أغلقت نورا الباب وهي تشعر بالاستياء لا بالإهانة.

تساءلت هل كان يتوجّب عليها أن تفعل شيئاً لهاتين الصغيرتين المتوحّدتين وبأيّ صفة، أبصفتها أختهما غير الشقيقة أم بصفتها أمّاً بشكل عامّ، أم باعتبارها إنسانة بالغة مسؤولة أخلاقيّاً عن كلّ طفل تصادفه؟

وعاودها الشعور بغيظٍ عارم عقيم من والدها، ذاك الرّجل النزق الذي لم يكن يرتدع، بعد إخفاقات كثيرة، عن الزواج من جديد وإنجاب أطفالٍ لا يدري ماذا يفعل بهم، والذي يبدو وكأنّ كلّ قدراته المحدودة على الحبّ ومراعاة الآخرين استُنفدت في شبابه لصالح والدته المتوفّاة منذ زمن طويل، والتي لم يتسنّ لنورا التعرّف إليها.

لا شكّ أنّه قد أظهر شيئاً من العاطفة لسوني، ابنه الوحيد.

ولكن ما حاجة ذاك الرجل القاسي، المشوّه، البارد، إلى عائلة جديدة؟

كان منكبّاً على الأكل عندما وافته إلى القاعة الكبيرة، جالساً إلى الطاولة كما في الأمس وفي الثياب الفاتحة اللون المتّسخة نفسها، وكان جبينه منحنياً إلى الصحن يعبّ حساء الشعير عبّاً، ما أوجبها الانتظار حتّى انتهائه من تناول طعامه وإرجاع ظهره إلى الخلف زافراً بقوّة منقطع الأنفاس وكأنّه بذل جهداً جسديّاً فائقاً، لتسأله وهي تنظر إلى عينيه مواجهة:

- والآن، ما الذي يجري؟

كان لأبيها ذاك الصّباح نظرة أكثر تهرّباً من العادة.

هل لأنّه كان يعرف أنّها رأته في البونسيانة الكبيرة؟

ولكن لمَ قد يُحرج ذلك هذا الرّجل المتخابث الذي لم يرفّ له جفن في أوضاع معيبة على نحوٍ خاصّ؟

صرخ بصوت مبحوح:

- ماسيك!

ثمّ سأل نورا:

- ماذا تشربين، شاياً أم قهوة؟

قرعت بقبضتها قرعة خفيفة على الطاولة وهي تفكّر شاردة منشغلة البال أنّه قد حان وقت نهوض لوسي وغريتا للذهاب إلى المدرسة، وأنّ جاكوب ربّما نسيَ أن يستيقظ، ممّا يجعل النهار كلّه بياناً عن الفشل والإهمال، ولكن ألم تكن تبالغ هي نفسها في الفضيلة، والنظام، والتوجّس، ألم تكن حقّاً المرأة التي تنكّد عيش الآخرين في حين كانت تلوم جاكوب على رغبته في إلصاق هذا الدور بها؟

سألها ماسيك وهو يقدّم لها فنجاناً مترعاً:

- أتريدين قهوة؟

مكتبة

قالت بهدوء دون أن تشيح نظرها عن والدها:

- ألن تقول لي ما سبب مجيئي إلى هنا.

فانطلق ماسيك مغادراً الغرفة على وجه السّرعة.

وعندئذٍ بدأ تنفّس والدها يعلو صاخباً متقطّعاً بشدّة ما دفع نورا للقفز عن كرسيّها والاقتراب منه.

وقفت هناك حائرة، راغبة طوعاً في معاودة سؤالها إن كان ذلك ممكناً.

تمتم بمشقّة:

- عليكِ أن تزوري سوني.

- أين سوني؟

- في روبوس.

- وماذا يكون روبوس هذا؟

لم يُجب.

كان يتنفّس بجهدٍ أقلّ، مرتخياً على كرسيّه وبطنه إلى الأمام، مغموراً تماماً برائحة الأزهار المتفتّحة المنفّرة.

وعندئذٍ تأثّرت لرؤيتها دموعاً تنهمر على وجنتيه الرماديّتين.

قال:

- إنّه السّجن.

وتراجعت خطوة إلى الخلف، أشبه بقفزة.

وهتفت:

- ماذا فعلتَ بسوني؟ كان يجدر بك الاهتمام به!

همس بشكلٍ يكاد لا يُسمع:

- هوَ الذي قامَ بالفَعْلَة؟، لا أنا...

- أيّ فعلة؟ عمّ تتحدّث آه! يا إلهي! كان يجدر بك الاهتمام به وتربيته بشكلٍ لائق!

وعادت إلى كرسيّها متهالكة فوقه.

جرعت دفعةً واحدةً القهوة التي كانت غثّة فاترة دون طعم.

كانت يداها ترتجفان فأسقطت الفنجان على طاولة الزّجاج.

قال والدها:

- ذاك فنجان آخر مكسور، كلّ ما أفعله هو انّني أشتري الآنية لهذا المنزل.

- ماذا فعل؟

نهض محرّكاً رأسه ووجهه العجوز الذابل يزيده عجزه عن الكلام تغضّناً.

ثمّ هتف بالقول:

- سيصطحبكِ ماسيك إلى روبوس.

راح يبتعد القهقرى نحو باب الرواق، بطيئاً وكأنّه كان يحاول الهرب دون أن تلاحظ بذلك.

كانت أظافر قدميه طويلة يعلوها الاصفرار.

سألته بهدوء:

- هذا هو السبب إذن في أنّه لا أحد هنا وأنّ الجميع غادر المنزل.

اصطدم ظهر والدها بالباب ففتحه خلفه متلمّساً طريقه، ثمّ توارى في الرواق.

كانت قد رأت فيما مضى في أحد مروج النورمندي حماراً عجوزاً متروكاً وكان مخلب حوافره قد نما إلى حدّ مرعب معيقاً إيّاه عن السير.

مكتبة

أمّا والدها فلا يزال قادراً على القفز حين يشاء!

كان حقدها الهائل ينير عقلها ويشحذه.

لا شيء ولا أحد كان بإمكانه أن يغفر لوالدها تقاعسه عن هداية سوني إلى جادة السلوك السويّ.

والحال أنّه منذ ثلاثين عاماً، حين رغِبَ والدها في هجر والدتها وفرنسا حيث كان يراوح في مكانه في وظيفة مكتبيّة تافهة، رحل فجأةً مصطحباً معه سوني الذي كان في الخامسة من عمره، أو بالأحرى مختطفاً سوني لأنّه كان يعلم أنّه لن ينال أبداً موافقة الأمّ على حيازة الصبيّ الصّغير، وبذا أغرق نورا وأختها ووالدتها في اليأس الذي لم تشفَ منه هذه الأخيرة قطّ. حينئذٍ تكفّل، في رسالة تركها على طاولة المطبخ، بالاهتمام بالطفل أكثر من حياته بالذات، ومن أعماله، وطموحه، وتشبّثت والدتها المنهارة حزناً بهذا الوعد، واقتنعت بأنّ سوني سيحظى بمستقبلٍ باهرٍ، وبفرصٍ لن تستطيع هي مصفّفة الشّعر البسيطة أن تمنحه إيّاها.

لكنّ نورا لم تكن تستطيع في أيّة حال أن تتذكّر اليوم الذي عادت فيه من المدرسة ووجدت رسالة أبيها، دون أن يعاودها الشعور بالاختناق.

كانت في الثامنة من العمر، وشقيقتها في التّاسعة، وفي الغرفة التي كان يتقاسمها الأطفال الثلاثة اختفت أغراض سوني وملابسه من درج الصوان ومعهاعلبة الليغو[1] ودبّه.

أوّل ما فكّرت به نورا هو إخفاء الرسالة بوسيلة ما خارقة، وحقيقة رحيل سوني ووالدها، لكي لا تلاحظ والدتها شيئاً.

---

(1) اسم لعبة تركيب وهي عبارة عن لبنات ملوّنة مصنوعة من البلاستيك ومواد أخرى يتمّ تجميعها وتوصيلها بطرق عديدة لبناء أجسام كسيّارات أو بنايات، وغيرها...

ثمّ، وإذ أدركت عجزها عن ذلك، دارت في الشقّة القاتمة الصّغيرة حائرة ينهشها الألم والحيرة، وصعقها شعورها بأنّ ما تمّ وأنّ ما جرى مكابدته قد تمّ وسيُكابَدُ إلى الأبد، وأنّه ما من قوّة تستطيع أن تحول دون قدوم هذه السّاعة الرهيبة.

ثمّ استقلّت المترو لكي تذهب إلى صالون الحلاقة حيث كانت والدتها تعمل.

لن تقوى أبداً، حتّى بعد مرور ثلاثين عاماً، على أن تتذكّر تحديداً اللحظة التي كانت تقول فيها لأمّها ما تمّ وما سوف ينبغي مكابدته إلى الأبد.

على أكثر تقدير كان بإمكانها الاقتراب بحذر من أمّها الجالسة على سرير سوني بوجهها المذعور وهي تملّس بباطن يدها، وبإصرارٍ لا يكلّ، غطاء السّرير المخمليّ الأزرق الشاحب، وتردّد بصوت واهنٍ متهدّج: إنّه أصغر سنّاً من أن يعيش من دوني، لا يزال في الخامسة من عمره، إنّه صغير جدّاً.

اتّصل والدها منذ اليوم التالي لوصوله، ظافراً، مليئاً حماساً وبذلت والدتها أقصى جهدها لتردّ على مكالمته بلطفٍ وبشيء من الدعة لأنّها كانت تخشى قبل كلّ شيء أن يقطع ذاك الرجل، الذي كان يكره الصراع المفتوح، كلّ علاقة لها بابنها لو ألفاها تلحّ في مطالبتها باسترجاعه.

سمح لسوني أن يتحدّث إليها في الهاتف لكنّه عاود إمساك السّماعة حين أجهش الطّفل بالبكاء لدى سماعه صوت أمّه.

مرّ الزّمن، والوضع الرهيب، المفعم مرارةً وألماً انفصم من لُحمة الأيّام وذاب في رتابة الحياة التي كان يعكّرها بانتظامٍ وصولُ رسالة ركيكة

مكتبة

متكلّفة من سوني، وكان يتوجّب على نورا وشقيقتها الردّ عليها بطريقة شكليّة متّبعتيْن إرشادات والدتهما حتّى يطمئنّ والدهما ويسمح بتوطيد أكبر للعلاقات بين الإخوة.

في غمرة يأسها، كم بدت تلك المرأة اللطيفة التائهة متسامحة ومتحايلة على حزنها!

واصلت شراء ملابس لسوني وكانت تطويها بعناية في الصوان في الدرج الذي يخصّه.

كانت تقول:

حتّى اليوم الذي يعود فيه.

ولكنّ سوني لن يعود أبداً وهذا أدركته نورا وشقيقتها منذ البداية لأنّهما كانتا تعرفان قلب والدهما اللامبالي، الغافل، وميله لإخضاع محيطه لرغباته الجائرة.

وإذا كان اتّخذ قراره بأنّ حقّ رعاية سوني يعود إليه، فإنّه سيتجاهل كلّ ما يمكن أن يعيق رغبته في بقاء ابنه الوحيد قربه.

ولن يعير اهتماماً لقسوة ذاك المنفى على سوني، وسيعتبر شقاء والدته أمراً محتّماً لكنّه لن يلبث أن يزول.

لأنّ والد نورا كان هكذا، رجلاً قاسي القلب، رهيباً.

كانت نورا وأختها تعرفان حينذاك أنّ أمّهما بإصرارها على انتظار عودة سوني لم تكن تقدّر تصلّب زوجها حقّ قدره.

وأنّه سيرفض دوماً إرسال الصبيّ إلى فرنسا لقضاء العطلة.

لأنّ والدها كان هكذا رجلاً قاسي القلب، رهيباً.

كانت السنوات تمضي واللطف المتألّم لوالدتهم لم يلقَ جزاءه إلّا بدعوة

نورا وشقيقتها لزيارة أخيهما.

وصرخت والدتها عبر الهاتف باكية ممتقعة الوجه:

لماذا لا تريد أن يأتي لزيارتنا؟

- لأنّني أعرف أنّكِ لن تدعيه يرحل من جديد، أجاب الوالد على الأرجح هادئاً، واثقاً من نفسه، على شيءٍ من الانزعاج لأنّه لم يكن يحبّ الدموع ولا الصّراخ.

- ولكنّي أعدك بأن أسمح له بالرّحيل مجدّداً، أقسم لك!

لكنّه كان يعرف أنّها تكذب، وكانت تعرف ذلك هي أيضاً وغصّت بدمعها دون أن تضيف شيئاً.

لم يبدِ الوالد قطّ أيّ رغبة في الاهتمام بالفتاتين، ولم يبذل أيّ جهدٍ لإبقائهما قربه، وتصرّفه هذا كان أمراً بديهيّاً وقد شجّع الأمّ على إرسال نورا وشقيقتها لزيارته بصفتهما موفدتيْن لحزنها الفاجعيّ، وحبّها شبه المجرّد لصبيٍّ كان والده يرسل لها من وقت لآخر صورة له سيّئة الالتقاط، مبهمة دوماً، وفيها لم يكن سوني ينسى أبداً الابتسام، صورة تشهد أيضاً على صحّته الجيدة، وجماله المدهش، وفخامة ملابسه.

ذلك أنّ المنتجع السياحيّ الذي اشتراه والدهما وهو قيد الإنشاء، وجهّزه بشكلٍ باذخ، قد بدأ يدرّ عليه أرباحاً طائلة.

وتزامناً مع ذلك في باريس، وفي اتّجاه معاكس، وكأنّ عليها أن تكفّر عن شقائها بانهيارها، غرقت والدتها في المشاكل الماديّة والدّيون والمساومات التي لا تنتهي مع مؤسّسات الائتمان.

كان والدهما يرسل مالاً قليلاً، بشكلٍ متقطّع، ومبالغ متباينة في كلّ مرّة من شأنها الإيحاء بأنّه يقوم بواجبه بقدر المستطاع.

مكتبة

لأنّ والدهما كان هكذا، قاسي القلب، رهيباً.

كان يجهل معنى التعاطف والندم، وبما أنّه عانى من الجوع الأمرّيْن على مدى طفولته، صمّم على أن يملأ معدته حتّى التخمة، وأن يسخّر ذكاءه الحادّ فقط في خدمة راحته وجبروته، ولم يكن يشعر بالحاجة لقول ذلك: لقد استحققت ذلك عن جدارة، لأنّه لم يكن يخامره قطّ أيّ شكّ فيما يتعلّق بشرعيّة امتيازاته وثروته التي جناها على وجه السرعة.

أمّا والدتهما، المتوجّسة، المتردّدة، اليائسة، فكانت تقع في أحابيل الحسابات التي لم تكن قادرة على جعلها دقيقة وإيجابيّة كما تريد، نظراً إلى هزالة مداخيلها.

توجّب عليها تغيير مسكنها، وانتقلت مع ابنتيها إلى شقّة من غرفتين مطلّة على باحة في شارع البيرينيس، ولم يعد درج سوني يُرفَد بملابس جديدة.

حطّت الفتاتان اللتان كانتا في الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمرهما رحالهما للمرّة الأولى في منزل أبيهما الهائل، رازحتين تحت وطأة الحرّ، والانفعال يشلّهما، وكانتا محمّلتين أيضاً بذاك الحزن الواجم، اللائق، الملجوم، الذي كانتا تعيشان فيه، ويبين في شعرهما القصير الخالي من أيّ زينة، وفستانيْهما الجينز اللذين كانا أكبر من قياسيْهما ليتسنّى لهما ارتداءهما مدّة أطول... كلّ ذلك أثار لدى والدهما نفوراً لا يوصف لا سيّما وأنّهما لم تكونا على ذلك الجمال وقد ابتُليتا كلتاهما بالبثور والكيلوغرامات الزائدة التي ستختفي مع السنوات ولكنّ ذلك لم يمنع والدهما من أن يراهما، بشكل ما، على هذه الحال دوماً.

لأنّ أباهما كان هكذا، رجلاً تروّعه البشاعة وتثير اشمئزازه العميق.

فكّرت نورا: من أجل ذلك أحبَّ سوني قدر ما يستطيع.

ظهر أخوهما اليافع عند عتبة المنزل، نازلاً ليس من البونسيانة التي كانت لا تزال هزيلة قليلة الارتفاع، ولكن من على ظهر مهر صغير كان يمتطيه ويدور به حول البيت ببطء.

كان يقف هناك واضعاً قدماً أمام الأخرى مرتدياً لباس الفروسيّة من الكتّان الزبديّ اللّون ومنتعلاً جزمة مخصّصة للفروسيّة، ومتأبّطاً كسكيّته.

لم تكن أيّ رائحة أزهار متعفّنة تحيط بقامته النحيلة الليّنة الجميلة، ولم يكن أيّ نور غريب يضيء من الداخل الصدرَ الصغيرَ لطفلٍ في التاسعة من عمره.

كان ببساطة هناك، باسطاً ذراعيه نحو شقيقتيه اللتين كانتا كامدتين حزينتين بقدر ما كان هو مبتسماً، سعيداً، رائعاً، مشرقاً، خفيفاً.

وطيلة مدّة إقامتهما كانتا تُظهران نفوراً حرداً، ومع ذلك كانتا تستعذبان ترفاً لم يتسنّ لهما تصوّره، وكان سوني ذا لطف وبساطة فائقين.

وعند كلّ ملاحظة، لدى كلّ سؤال، كان يبادرهما بابتسامة رقيقة وببعض الكلمات المهذّبة ثمّ كان يمازحهما بطريقة كانت تنسيهما أنّ الملاحظة أو السؤال لم يلقيا جواباً محدّداً.

كان يبقى صامتاً لدى ذكرهما والدتهما.

وكان نظره يهيم في الفراغ فيما ترتجف شفته السفلى قليلاً.

ولكنّ ذلك لم يكن يدوم طويلاً إذ سرعان ما يعود سوني الصبيَّ الفرح، الوادع، المتواضع، الصبيّ اللامع، الفائق اللطافة الذي كان والده يغمره بنظرة ملؤها الفخر، مقارناً، على وجه أكيد، بينه وبين الفتاتين بنظراتهما القلقة، قائلاً في نفسه، كما كانت نورا تفترض، إنّه حسناً فعل بعدم تركه

مكتبة

سوني خلفه، وبتجنيبه التأثير النكد لوالدته التي حوّلت فتاتين لطيفتين إلى راهبتين سمينتين، لا سيّما وأنّه لم يكن لديه بعدُ أطفالٌ، ولن يكون لديه أبداً من المرأة الجميلة ذات الشفتين الموسومتين بالازدراء والعينين الجاحظتين قليلاً التي تزوّجها منذ سنتين أو ثلاث والتي كانت تجيل في المكان نظراتها الضجرة أو تستعرض ملامحها الواجمة المتّشحة بكآبة رهيبة، خرساء.

وعندما عادت نورا وشقيقتها إلى باريس بعد أسابيع ثلاثة، كانتا تشعران بالارتياح لهربهما من نمط حياةٍ يملي عليهما ولاؤهما لوالدتهما الاعتراض عليه (حين علمتا أنّ سوني قد أُدخِل في مدرسة خاصّة مرموقة وجدتا الشجاعة لتقولا لوالدهما: »ماما في ضائقة ماليّة»، وعلى هذا أجاب متنهّداً: «كلّنا في ضائقة ماليّة يا ابنتيّ المسكينتين")، وكانتا متأثّرتين كثيراً لفراق سوني.

واقفاً عند عتبة البيت، واضعاً قدماً أمام الأخرى، مرتدياً هذه المرّة الزيّ الكامل للاعب كرة السلّة وهو يتأبّط الكرة، أتى سوني لوداعهما وهو يبتسم بجهدٍ، محافظاً على لطفه الدائم، حريريّاً، غامضاً، مذعناً للأمر الواقع مع أنّ ارتعاشة كانت تهزّ شفته السفلى.

حضر والدهما أيضاً أنيقاً مستقيم القامة، يفتل قليلاً بوركيه النحيلين تحت الخيمة الهزيلة للبونسيانة اليافعة.

كان قد وضع يده على كتف سوني الذي بدا حينئذٍ وكأنّه تقوقع محاولاً الانكفاء إلى ذاته. فوجئت نورا من ردّة فعله وفكّرت قبل الصعود إلى السيّارة التي كان يقودها منصور: يبدو أنّه يخاف من والدنا، ثمّ تراجعت عن هذه الفكرة التي لم تكن تتلاءم مع ما رأته خلال إقامتها.

ذلك أنّ والدهما، ذاك الرّجل الرّهيب، المتحجّر القلب بدا دوماً ذا

لطفٍ كبير مع سوني.

لا بل كان لديه بعض لفتات الحنان حياله.

إلّا أن نورا حاولت أن تتخيّل حيرة أخيها واضطرابه حين وجد نفسه، وهو في الخامسة من عمره، على تلك الأرض المجهولة وحيداً في الفندق مع والده، ومن ثمّ في ذاك المنزل المستأجر على عجل، والذي سرعان ما استولى عليه أقارب كثيرون. لا بدّ أنّه اقتنع تدريجاً بأنّ حياته الجديدة كانت تبدأ هناك، وأنّ مسألة عيشه مع أمّه وأختيه في تلك الشقّة الواقعة في الدائرة الثانية عشرة التي شكّلت حتّى ذاك الحين عالمه لم تعد مطروحة.

لم تكن تملك إلّا الإشفاق على سوني، ولم تعد تحسده على محبّة والده له واقتنائه مهراً في الحديقة.

وحياتهنّ هنّ الثلاث، المريرة والقاتمة، المتواضعة والفاضلة، بدت لها فجأةً حرّة وجميلة بالمقارنة مع حياة سوني الأسير الصغير المدلّل.

التزمت الأمّ، المتلهّفة لسماع لأخبار، بصمت ثقيل لدى سماعها الأختين ترويان ملاحظاتهما المتحفّظة.

ثمّ انهارت باكية وهي تردّد: «خسرتُه إذن، خسرته!». فكأنّ التربية التي كان يتلقّاها سوني ورفاه العيش الذي ينعم فيه سيقيم بينها وبين الصبيّ حاجزاً لا يمكن تجاوزه، حتّى لو استطاعت رؤيته.

وفي تلك الفترة بالذات تغيّر سلوك والدتها.

تركت صالون الحلاقة حيث كانت تشقى منذ عشرين سنة، وراحت تخرج مساء من المنزل، ومع أنّ نورا ووشقيقتها لم تشكّا أبداً في الأمر إلّا أنّهما أدركتا لاحقاً بعد مرور سنوات أنّ والدتهما كانت تمارس الدعارة، وكان هذا التهتّك، بالرغم من المرح الذي كانت تصطنعه، المظهر الخاصّ

مكتبة

الذي اتّخذته خيبتها.

عادت نورا وشقيقتها مرّة أو مرّتين إلى عند والدهما لتمضية العطلة، ولم تعد الأمّ تريد أن تعرف منهما أيّ شيء عمّا يجري هناك.

اتّخذت هيئة قاسية حازمة، ملّست وجهها بموحّد لون البشرة، مطّت شفتيها ازدراءً، ثمّ راحت تقول في كلّ مناسبة وهي تصفع الهواء بيدها: «ذلك آخِر همومي"!

هذا الوجه الجديد الذي اتّخذته، وهذا التصميم المفعم بالمرارة، سمحا لها بأن تلتقي بالرجل الذي كانت تبحث عنه، وهكذا اقترنت بمدير فرع مصرفيّ، مطلّق هو أيضاً، ولا يزال زوجها لغاية اليوم، رجل لطيف سهل المعاشرة وذو مداخيل شريفة، وقد أظهر بعض اللطف لنورا وأختها، حتّى أنّه رافقهنّ ثلاثتهنّ لزيارة سوني للمرّة الأولى معاً بدعوة من والدها.

إنّها المرّة الاولى التي كانت الأمّ ترى فيها سوني مجدّداً منذ رحيله.

كان سوني آنذاك في السادسة عشرة من عمره.

ما إن عَلِمَ الأب بالزّواج الثاني لوالدتها، حتّى دعاها على الفور هي وزوجها الجديد وحجز لهما على نفقته، عدّة ليالٍ في أفضل فندق في المدينة. لكأنّه، فكّرت نورا، انتظر حتّى تعيد والدتها صنع حياتها ليعود عن خشيته من استردادها سوني.

وهكذا وجدوا أنفسهم جميعاً في قاعة الطّعام في الفندق، أشبه بعائلة كبيرة أعيد لمّ شملها بطريقة متناغمة، نورا وشقيقتها، ووالدتهم وزوجها، وسوني ووالدهم. اجتمعوا حول طاولة مليئة بالأطباق الشهيّة، وكان الأب والزوج يتحدّثان بشيء من الكلفة، ولكن بتهذيب، عن الوضع العالميّ فيما جلس الصبيّ والأمّ الواحد قرب الآخر وراحا يتبادلان

نظرات خاطفة مرتبكة.

كان سوني، على درج عادته، حسن الهندام يرتدي بذلة من الكتّان القاتم، ناعم البشرة أملسها، وكان شعره قصيراً مقصوصاً على الطريقة الأفريقيّة.

أظهرت والدتهم وجهها الجديد الجامد، وكان فمها ملتوياً قليلاً، وشعرها مصبوغاً بالأشقر الأشيب، وكانت نورا تلاحظ أنّها تتعمّد، فيما كانت تسأل سوني عن مدرسته وموادّه المفضّلة، عدم ارتكاب أخطاء نحويّة أو لغويّة، لأنّها كانت تعتقد أنّ سوني أكثر تعلّماً منها، وأكثر رهافة، وكان هذا يشعرها بالإهانة والبؤس. كان والدهم ينظر إليهما نظرة رضى وارتياح وكأنّه استطاع أخيراً إقناع عدوّيْن بالتّصالح بعد خصام طويل.

وكانت نورا تتساءل مندهشة غاضبة: هل كان هذا حقّاً ما يفكّر به الآن؟

أيعقل أن يفكّر بأنّ سوني وأمّنا هما اللذان رفضا أن يلتقيا طيلة هذه السّنوات؟

قبل ذلك بوقتٍ طويل، حين اتّصلت والدتهم ذات يوم بوالدها، وقد هدّها الحزن، قائلة له إنّها ستستدين ثمن بطاقة السفر وتذهب لرؤية ابنها، لأنّه كان يرفض إرسال سوني لقضاء العطلة عندها، أجابها: إذا رأيتك تنزلين من الطّائرة فسأقطع عنقه وعنقي أمام عينيكِ.

ولكن هل كان والدها رجلاً قادراً على قطع عنقه؟

كان يجلس آنذاك، مترئّساً الطاولة، ساحراً، رائعاً، متصرّفاً بتهذيب فائق، وكانت عيناه القاتمتان الباردتان تلتمعان عاطفةً وفخراً حين ترنوان إلى وجه سوني المعبود.

مكتبة

لاحظت نورا أنّ شقيقها لم يكن ينظر أبداً إلى عينَي أحدٍ مباشرة.

كانت نظرته المهذّبة، الخاوية تنتقل من وجهٍ لآخر دون أن تتوقّف على أيّ منها. وحين يُوَجَّهُ الحديث إليه، كان يحدّق بانتباه إلى نقطة غير مرئيّة في الفضاء، دون أن يكفّ مع ذلك عن الابتسام، ولا عن التظاهر باهتمام شكليّ لكلّ ما يمكن أن يُقال له.

كانت نورا تفكّر أنّه يتفادى بشكلٍ خاصّ أن تباغته نظرة والده أو تغافله.

حتّى على هذه الحال، حتّى حين كان والده يتأمّله وكان سوني ينظر إلى جهة مجهولة، كان يبدو وكأنّه ينسحب أو يركن إلى أعماق كيانه، هناك حيث كان في منأى عن كلّ حكم أو شعورٍ متعلّق به.

تبادل بضع كلمات مع زوج أمّه، ثمّ مع أمّه، بمشقّة، لأنّها تجرّأت على سؤاله عمّا كانت ترغب فيه.

بعد انتهاء الغداء، تفرّق الجميع، ومع أنّه بقيت لهم بضعة أيّام قبل عودتهم إلى فرنسا، لم يَتلاقَ سوني وأمّه ثانيةً، ولم تعد الأمّ قطّ إلى ذكر سوني.

كان والدهما قد نظّم لوالدتها وزوجها جولة سياحيّة باذخة، واستأجر لهما دليلاً وسائقاً، لا بل قدّم لهما ليالي إضافيّة في واحد من بيوت البنغالو[1] في منتجعه السياحيّ بدار السّلام.

لكنّ والدتها رفضت كلّ ذلك، وأعادت الدّليل والسيّارة، وقرّبت موعد عودتهم.

ولم تعد تترك الفندق بل بقيت تتنقّل من غرفتها إلى بركة السباحة وهي

(1) البنغالو: بيت من طابقٍ واحد يكون في الريف أو على شاطئ البحر. من المفردة Bungalow وهي هندية الأصل شاعت في ضواحي أمريكا الشماليّة بخاصّة.

تبتسم على طريقة سوني ابتسامة آليّة، بعيدة، في غاية الهدوء. وتكفّلت نورا وشقيقتها بتنزيه الزوج الذي كان كلّ شيء يسعده، ولم يكن يشتكي من شيء. وفي المساء الأخير، وإذ احتارتا أين تصطحبانه، أخذتاه لتناول العشاء مع والدهما، وراح الرجلان يتحدّثان حتّى السّاعة الثانية صباحاً وافترقا بحسرة متواعدَين على اللقاء من جديد.

وهذا أثار لدى نورا غضباً شديداً. قالت للزوج في طريقها إلى الفندق وهي تطلق ضحكة خافتة هازئة:

- لقد جعل منك هزأة.

- ولِمَ تقولين ذلك؟ لا لم يهزأ بي، والدكِ ودود جدّاً.

وفي الحال لامَت نورا نفسها على نيّتها السيّئة، وفكّرت أنّ من الجائز فعلاً أن يكون والدها صادقاً في استحسانه رفقة الزوج، وأنّها كانت مغتاظة منهما ببساطة لأنّهما لم يكونا يأبهان للألم الذي يفطر قلب أمّها. ثمّ إنّها كانت فكرة سخيفة أن تصطحب الزوج إلى والدها معلّلةً النفس بالأمل الغامض بمواجهة عظيمة تكفل الثأر لسوني وأمّه وتتسبّب في إحراج الأب فتنكشف وحشيّته ويساق إلى الاعتراف بها، ولكن ألم يكن حريّاً بها أن تدرك أنّ هذا الزّوج المثاليّ لم يكن الرّجل الجدير بموقف مماثل؟

ولغاية اليوم، لم تعد الأمّ قطّ لرؤية سوني، ولم تكتب له ولا اتّصلت به، ولم تعد قطّ تذكر اسمه.

سكنت في في منزلٍ في أطراف المدينة مع زوجها، وكان يبدو لنورا التي كانت تصطحب لوسي إلى هناك من وقتٍ لآخر أنّ والدتها لم تكفّ عن الابتسام منذ تلك الرّحلة، تلك الابتسامة العاجزة، كأنّها نائية عن

وجهها، مرتسمة بخفّة أمامها، ابتسامة اختطفتها من سوني وكانت تحجب بها ألمها.

كانت نورا تواصل نقل الأخبار القليلة إلى أمّها، تلك التي كانت تتلقّاها من سوني أو من والدهما -دراسة سوني في لندن، عودته إلى بيت والده بعد سنواتٍ قليلة -لكنّها كانت تشعر غالباً أنّ والدتها المبتسمة دوماً وهي تهزّ برأسها، كانت تجهد لعدم الإصغاء إليها.

حينذاك بدأت نورا تحدّثها أقلّ فأقلّ عن سوني إلى أن توقّفت تماماً حين تبيّنَ أنّ أخاها، بعد دراسات لامعة في الخارج، أقفل عائداً إلى منزل والده، حيث كان يعيش حياة غامضة، متعطّلة، سلبيّة، متوحّدة.

آه! انقبض قلبها مرّات عدّة لدى تفكيرها في سوني.

ألم يكن يجدر بها أن تكثر من زياراتها له أو ترغمه على المجيء إلى فرنسا؟

ألم يكن، برغم المال والإمكانات المتاحة، صبيّاً تعيساً؟

تدبّرت نورا أمرها وحدها لتصبح محامية بعدما بذلت جهوداً كثيرة وعانت شظف العيش.

لم يساعدها أحد، ولم يعرب أمّها أو أبوها عن فخرهما بها.

ومع ذلك لم يعد لديها ضغينة، وأخذت تلوم نفسها على عدم ذهابها لنجدة سوني في جميع الأحوال.

ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟

كان شيطانٌ قد جثم على صدر صبيّ الخمس سنوات ولم يفارقه منذ ذلك الحين.

ماذا كان بإمكانها أن تفعل؟

هذا ما كانت تتساءل عنه مجدّداً وهي جالسة في المقعد الخلفيّ في سيّارة المرسيدس السّوداء التي كان ماسيك يقودها. كانت السيّارة تبتعد ببطء في الشّارع المقفر فيما نورا تراقب عبر المرآة الداخليّة والدها الجامد بالقرب من البوابة، ينتظر ربّما أن ينفرد بنفسه لكي يلوذ بطيرانه الثقيل إلى ظلّ البونسيانة، ويجثم على الغصن الثخين الذي أصبح مقشوراً مبريّاً لفرط ما احتكّ بشبشبَيه، وعندئذٍ تساءلت مجدّداً، مملّسةً بحركة عصبيّة من يدها الأوراق التي كان والدها قد سلّمها إيّاها، صفحات مزدوجة رسميّة ممهورة بالأختام: ألم يكن تقصيرها سهواً تجاه سوني أمراً في منتهى الخطورة؟

كانت سيّارة المرسيدس قذرة، مغبرّة، والمقاعد مليئة بفتات الخبز.

لم يكن والدها فيما مضى ليسمح البتّة بهذا الإهمال.

انحنت نورا نحو ماسيك وسألته عن سبب وجود سوني في السّجن.

فجعل لسانه يصطفق ثمّ انطلق بضحكة خافتة، وأدركت نورا أنّ سؤالها كان يسبّب له حرجاً كبيراً وأنّه لن يجيب على سؤالها.

وأُكرِهَتْ هي أيضاً على الضّحك وهي تشعر بانزعاج شديد.

كيف خطر لها أن تسأله؟

فبطبيعة الحال لم يكن هو من يجدر بي أن أتحدّث معه عن الموضوع.

وأحسّت بعقلها مشوّشاً تائهاً.

وقبل صعودها إلى السيّارة بالضبط، حاولت الاتّصال بجاكوب دون جدوى، وكان رنين الهاتف يتواصل أيضاً في الشقّة ولا من يجيب.

كانت تستبعد أن تكون الطفلتان قد انطلقتا إلى المدرسة، أو أن يكونوا ثلاثتهم مستسلمين لنومٍ عميق يحول دون سماعهم الرّنين المتكرّر.

مكتبة

فما الذي كان يجري إذَن؟

أخذت ساقها ترتجف بسبب توتّرها.

ليتها تستطيع في هذه اللحظة أن تلوذ بالضوء الخافت الذهبيّ العطر للبونسيانة الضخمة!

أرجعت شعرها إلى الخلف، وسوّت من جديدٍ جديلتها الرقيقة فوق رقبتها، ثمّ مدّت عنقها لترى انعكاس صورتها في المرآة. فكّرت أنّ سوني لن يتعرّف عليها بسهولة لأنّه لم يكن لديها، حين تقابلا منذ ثماني سنوات أو أكثر، هذان الأخدودان في جهتي الفم ولا هذا الذّقن الممتلئ قليلاً الذي تذكّرت أنّها حاربته بشراسة حين كانت أكثر فتوّة وكان يخالجها آنذاك الشعور الغامض بالذنب لأنّ السمنة كانت تغيظ والدها، ثمّ تركت الأمور على حالها دون أيّ شعورٍ بالندم لا بل برضى مستفزّ لدى التفكير تحديداً أنّ مثل هذا الذّقن لن يروق لذاك الرجل الأعجف المحبّ للنحافة، وذلك منذ قرّرت أن تكون حرّة وتتخلّص من كلّ رغبة في إرضاء والدها الذي لم يكن يحبّها.

انظروا إلى حاله الآن كيف أصبح غارقاً في شحومه.

كانت تهزّ رأسها ضائعة مرتاعة.

كانت السيّارة تجتاز وسط المدينة وماسيك يبطئ سرعته أمام الفنادق الكبيرة ذاكراً لنورا أسماءها بنبرة متعاظمة.

تذكّرت الفندق الذي أمضت فيه أمّها وزوجها بضعة أيّام، حينذاك كان سوني تلميذاً ممتازاً ويبشّر بمستقبلٍ باهر.

لم تسعَ قطّ لتحليل الأسباب التي دفعت سوني للعودة إلى منزل والده والعيش قربه بعد أن تابع دراسة العلوم السياسيّة في لندن، أو تلك التي

حالت تحديداً دون قيامه بشيء في حياته، أو استثمار مواهبه.

والحقيقة أنّها كانت تعتبره آنذاك محظوظاً أكثر منها، هي التي توجّب عليها العمل كخادمة في مطعم للطعام السريع والرخيص بالتزامن مع دراستها، وعلاوة على ذلك لم تكن ترى أنّ ثمّة واجباً يدعوها للاهتمام بتوازن أخيها النفسيّ، وهو المتنعّم بدلال أبيه.

كان شيطانٌ قد جثم على صدره ولم يفارقه أبداً.

راحت تفكّر: لا بدّ أنّه عانى، في الواقع، من إحباط فظيع! يا للصبيّ التعس، يا لتعاسته حقّاً!

وعندئذٍ لمحتهم جالسين، جاكوب ولوسي وغريتا،على شرفة الفندق نفسه حيث كان والدهم قد دعاهم جميعاً إلى الغداء فيما مضى.

أغمضت نورا عينيها وقد تجمّدت أوصالها.

وحين فتحتهما من جديد، كان ماسيك قد توغّل في شارع آخر سائراً بمحاذاة الكورنيش ورائحة البحر تتسلّل إلى داخل السيّارة.

لم يعد ماسيك يقول شيئاً واتّخذ وجهه الذي كانت تراه نورا جانبيّاً، هيئة صلبة، متجهّمة، لا بل أليمة، كما لو أنّ إرغامه على القيادة إلى روبوس هو بمثابة إهانة شخصيّة له.

ركنَ سيّارته قبالة جدران السجن الرماديّة.

وقفت في الصفّ برفقة عدد كبير من النّساء في الحرارة الجافّة والريح، وإذ رأت أنّ جميعهنّ وضعنَ على الرّصيف الرّزَم والقفَف التي كنّ يحملنَها، حذت حذوهنّ وألقت أرضاً الكيس البلاستيكيّ الذي كان أعطاها إيّاه ماسيك وهو يقول لها، بتحفّظ مفعمٍ بالاحتقار، إنّه يحتوي طعاماً وقهوة لسوني.

مكتبة

ثمّ وإذ توجّب عليه انتظارها واضطرّ إلى ترك باب سيّارته مفتوحاً تفادياً للشعور بالاختناق، جلس على مقعده بطريقة يخفي معها وجهه.

أوشكت أن تقول له: لا يجدر بك أن تشعر بالعار إلى هذا الحدّ.

ثمّ امتنعت عن ذلك قائلة في نفسها: وماذا لو كان على حقّ؟

شعرت بالغثيان وبتقلّص في معدتها.

من كان أولئك الأشخاص الثلاثة الذين رأتهم على شرفة الفندق الكبير؟

هل كانوا هي نورا وشقيقتها في صغرهما برفقة غريب ما؟

آه! هذا غير معقول! كانت واثقة من أنّها رأت ابنتها وغريتا برفقة جاكوب، وكانت الطفلتان ترتديان على أيّة حال ثوبين قصيرين مخطّطين كانت اشترتهما لهما الصّيف الماضي مع قلنسوتيْن متناسقتين. كانت تتذكّر كيف خرجت من المخزن يساورها شعور بالنّدم لأنّ الثوبيْن كانا مسرفين في أناقتهما بالنسبة لفتاتين صغيرتين، ولم يسبق لها هي وشقيقتها أن ارتدتا مثلهما أبداً.

ولكن أيّ شيطان جثم على صدر شقيقتها هي الأخرى؟

بعد انتظار طويل في الخارج، أودعت في أحد المكاتب جواز سفرها والأوراق التي سلّمها إيّاها والدها والتي كانت تؤكّد حقّها في زيارة سوني.

وكذلك عهدت إليه بكيس الطّعام.

سألها حارس رثّ البزّة:

- هل أنتِ المحامية؟

كانت عيناه حمراوين، برّاقتين، وأجفانه ترتعش باستمرار.

قالت:

- لا، لا أنا شقيقته.

- ولكنّ هنالك تنويهاً يقول بأنّكِ أنتِ المحامية.

فأجابت بحذر:

- أنا محامية ولكنّي اليوم أتيت فقط لأرى أخي.

تردّد وهو ينظر بانتباه إلى الأزهار الصّغيرة الصّفراء التي تزيّن ثوب نورا الأخضر.

ثمّ أُدخلت إلى غرفةٍ كبيرةٍ جدرانها زرقاء، يقسمها حاجز مشبّك إلى قسمين، وفيها النّساء اللواتي انتظرْنَ معها على الرّصيف.

تقدّمت باتّجاه الحاجز المشبّك ورأت عندئذٍ أخاها سوني يدخل من الجهة الأخرى للغرفة.

هرع الرجال الذين دخلوا معه باتّجاه الحاجز، وفي الحال سادت جلبة الأحاديث لدرجة أنّها لم تسمع تحيّة سوني.

صرخت:

- سوني! سوني!

ثمّ شعرت بالدوار وتشبّثت من جديد بالحاجز المشبّك.

واقتربت بأكبر قدر ممكن من حلقات الشباك المغبرة، الصدئة لكي ترى بوضوح هذا الشّابّ البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، الذي كان أخاها الصّغير، والذي تذكّرت خلف جلده المتعب، المصاب بالأكزيما، الوجه الجميل البيضاويّ، والنّظرة الرقيقة، المبهمة قليلاً. وحين ابتسم لها استعادت تلك الابتسامة الباهرة البعيدة التي كانت له فيما مضى، والتي

مكتبة

أشعرتها، كما حينذاك، بغصّة في حلقها، لأنّ قلبها سبق أن حدّثها بما كانت تدركه في تلك اللحظة، أنّ هذه الابتسامة كانت ستحجب تعاسة تفوق الوصف وتبقيها خفيّة دفينة.

كانت لحيته تغطّي وجنتيه وكان شعره مشعّثاً منتصباً فوق رأسه وخصلاته متفاوتة الطّول، مسحوقة في الجانب الذي ينام عليه سوني على الأرجح.

كان يتحدّث إليها مبتسماً، دون أن يتوقّف عن الابتسام، لكنّ الضجّة حالت دون سماعها ما يقوله.

صرخت:

- سوني، ماذا تقول؟ تكلّم بصوتٍ أعلى.

كان يحكّ بشكلٍ مسعورٍ صدغيه اللذين ابيضّا من جرّاء الأكزيما[1] وجبينه.

- هل أنتَ بحاجةٍ لمرهمٍ تُداوي به هذا المرض؟ هل هذا ما تقوله لي؟

بدا حائراً ثمّ هزّ رأسه وكأنّه قلّما كان يهمّه أن يختلط عليها الأمر وأن يكون المرهم جواباً على سؤلها.

هتف يقول شيئاً ما، كلمة واحدة.

وهذه المرّة سمعت نورا بوضوحٍ اسم شقيقتها.

وجعل هلعٌ عابرٌ روحها خاويةً.

لأنّ شيطاناً جثم على صدرها هي أيضاً.

بدا لها مستحيلاً في هذه اللحظة أن تخبر سوني وهي تصرخ عن أختها، وكيف عانت، كما كانت تقول هي نفسها، من مشكلة الإدمان على الكحول، وكيف أنّ إدمانها كان من الخطورة بحيث لم تجد مخرجاً في الواقع

(1) الطفح الجلديّ على الوجه، يظهر في سنّ المراهقة.

سوى الالتجاء إلى جمعيّة دينيّة، وكانت ترسل أحياناً لنورا من مكانها هناك رسائل هاذية وتافهة تظهر خبلها، وأحياناً صوراً تبدو فيها هزيلة بشكلٍ مرعب، منصرفة إلى التأمّل على مربّع قذر من الطحالب وشعرها الرماديّ يغطّي كتفيها، وشفتها السّفلى غائرة في فمها.

هل كانت تقدر على الصراخ باتّجاه سوني قائلة: كلّ هذا لأنّ والدنا خطفك منّا حين كنت في الخامسة من عمرك!

لا، لم تكن تستطيع، لم تكن تستطيع أن تقول شيئاً لهذا الوجه المذعور، لهاتين العينين الغائرتين الخامدتين والشّفتين الجافّتين اللّتين كانتا وكأنّهما تنآيان عن ابتسامتهما بالذّات.

انتهت الزّيارة.

أخذ الحرّاس يعيدون المساجين من جديد إلى زنازينهم.

نظرت نورا إلى ساعتها. لم ينقضِ على دخولها إلى غرفة الاستقبال إلّا دقائق قليلة.

لوّحت لسوني بيدها هاتفة: «سأعود! »فيما كان يبتعد مجرجراً قدميه، بقامته الطويلة الناحلة، وبنطاله العتيق المقصوص عند ركبتيه وقميصه القذر.

التفت ناحيتها وتظاهر بأنّه يحمل ملعقة إلى فمه.

فهتفت أيضاً بالقول:

– نعم، نعم هناك طعام لك، وقهوة أيضاً.

باتت الحرارة لا تطاق!

كانت نورا تتشبّث بالحاجز المشبّك، وهي تخشى أن تفقد وعيها إنْ هيَ أفلتته.

مكتبة

وعندئذٍ راعها إحساسها بأنّها تتبوّل في ثيابها على غفلةٍ منها، أي أنّها كانت تحسّ بأنّ سائلاً دافئاً كان يجري على طول فخذيها نزولاً إلى ربلتَي ساقيها فإلى صندلها، ولكنّها شعرت بعجزها إزاء ما يحصل وبفقدانها السّيطرة تماماً على بولها.

ابتعدت بهلع عن البركة الصّغيرة.

لا يبدو أنّ أحداً، في غمرة الفوضى التي أحدثتها حركة الخروج من الغرفة، قد انتبه لما جرى لها.

واجتاحتها موجة غضبٍ عارمة تجاه والدها حتّى أنّ اسنانها بدأت تصطكّ.

ما الّذي فعله بسوني؟

ما الّذي فعله بهم جميعاً؟

كان في دياره أينما حلّ، مستوطناً في كلّ منهم بلا عقاب، وكان سيواصل إيذاءهم وتعذيبهم ولو ميّتاً.

سألت ماسيك أن ينزلها أمام الفندق الكبير.

قالت:

- بإمكانكَ العودة إلى البيت، سأتدبّر أمري وحدي وأستقلّ سيّارة تاكسي.

شعرَت بإحراج كبير لأنّ رائحة البول النتنة سرعان ما انتشرت في سيّارة المرسيدس.

أخفض ماسيك الزّجاج الأماميّ دون أن يقول شيئاً.

شعرت بالارتياح لدى رؤيتها شرفة الفندق فارغة.

ومع ذلك كان ظلّ الفتاتين وجاكوب يلاحقها. كانت تشتمّ في الجوّ

رائحة تآمر خفيّة لا بل محسوسة، وتشعر بحضورهم المنكِّد كنفحة لامستها فرفعت نظرها ورأت بعكس الضوء فوقها طائراً ضخماً ريشه فاتح اللّون يحلّق ثقيلاً متلكّئاً ثمّ انقضّ فجأةً على الشّرفة ملقياً ظلاً مسعوراً، فائق البرودة.

وفي الحال تولّتها نوبة غضب ما لبثت أن تلاشت مع عبور الطائر.

دخلت إلى قاعة الفندق وفتّشت عن البار.

قالت لموظّف الاستقبال:

– لديّ موعد مع السيّد جاكوب غانزر.

فهزّ رأسه واتّجهت نورا إلى البار واطئة بخفّيها المبلّلين الموكيت الأخضر المزدان بأغصان ذهبيّة لم تتغيّر منذ عشرين عاماً.

طلبت فنجان شاي ثمّ ذهبت إلى الحمّام لتنظّف ساقيها وقدميها.

خلعت سروالها الدّاخليّ وغسلته في المغسلة وعصرته وجفّفته طويلاً تحت النّشافة الكهربائيّة.

كانت تخشى ما ينتظرها في البار ثمّ لاحظت أنّ في الإمكان استخدام حاسوب موصول بشبكة الأنترنت.

احتسَت شايَها ببطء لكي تؤجّل اللحظة التي يجب أن تجري فيها بحثها عبر الأنترنت منقّلةً نظرها تلقائيّاً من الطاولة إلى النّادل الذي كان يتابع مباراة في كرة القدم على الشّاشة الكبيرة المعلّقة فوق طاولة الشّرب، وكانت تفكّر أنّ أسوأ مصير يواجه أبناء أبيها، ذاك الرّجل الخطير، هو أن يكونوا محبوبين من لدنْه.

لأنّ سوني كان أكثر من دفع باهظاً ثمن كونه ابن ذاك الرّجل.

أمّا في ما يخصّها فإنّ شيئاً لم يحسم بعد. ربّما لم تدرك بعد ما كان مقدّراً

مكتبة

لها، هي، أو لابنتها لوسّي. أو أنّها ربّما لم تتحقّق بعد من أنّ الشيطان المتربّص بصدرها هي بالذّات، كان جاثماً هناك متحيّناً ساعته.

اشترت بطاقة لثلاثين دقيقة اتّصال بالإنترنيت، ووجدت بعد قليل، في أرشيفات جريدة «لو سولاي»، مقالاً طويلاً عن سوني.

قرأته وأعادت قراءته وكان شعورها بالرّعب يتزايد كلّما كانت تعيد قراءة الكلمات ذاتها.

أطرقت رأسها وهي تتمتم قائلة: يا إلهي، لا يعقل أن يكون سوني... سوني! لم تكن بادىء الأمر قادرة على التصديق بأنّ أخاها يمكن أن يقترف مثل هذه الفظاعة، ثمّ استوقفت انتباهها، رغماً عنها، إيضاحات عن تاريخ ميلاده، وأوصافه الجسديّة ممّا كان يبدّد كلّ شكّ بأنّ يكون الأمر متعلّقاً بشخصٍ آخر له الاسم نفسه.

ومَن غيره يمكن أن يكون ابناً للوالد المذكور في المقالة؟

ومن ذا الذي يملك سواه، إزاء جرمٍ مماثل، هذا اللّطف اللامتناهي الّذي كان المقال يذكره بوصفه أشدّ سماته حقارةً؟

وأخذت تنتحب قائلة: سوني أخي المسكين، سوني المسكين! وما لبثت أن علق نحيبها في حلقها، لأنّ امرأة قُتلت وكانت نورا معتادة على الدّفاع عن قضايا النّساء اللواتي قُتلن بهذه الطّريقة ولم تكن تشفق على جلّاديهنّ وإن كانوا مبتسمين ولطفاء، وإن كانوا صبياناً تعساء يجثم على صدرهم شيطان مذ كانوا في الخامسة من عمرهم.

أغلقت بعنايةٍ موقع الجريدة وابتعدت عن الحاسوب، راغبةً في العودة في أسرع وقت ممكن إلى منزل والدها لكي تستجوب هذا الأخير، وكأنّها كانت تخشى أن يختفي إلى الأبد إن هيَ تأخّرت.

كانت تجتاز الشّرفة حين رأتهم جالسين أمام الطّاولة في المكان نفسه منذ بعض الوقت. كان أحد الخدّام يقدّم لجاكوب وغريتا ولوسي شراب الكركديه.

لم يلحظوا وجودها بعد.

كانت الفتاتان ترتديان الثوبين المخطّطين بالأحمر والأبيض، بأكمامهما القصيرة المنتفخة والتّطريز على الصّدر، واللذين ندمت لشرائهما (ألم تفكّر بأنّ والدها كان سيوافق على هذا الاختيار، هذه الرّغبة الغامضة بتحويل الفتاتين إلى دميتين باهظتين؟) وكانتا تعتمران طاقيّتين متناسقتين مع الثوب، وتثرثران بفرحٍ موجّهتين أحياناً ملاحظةً إلى جاكوب كان يجيب عليها بالنبرة الهادئة البهجة نفسها.

لكنّ مرحهم الهادئ استرعى انتباه نورا قبل أيّ شيء آخر فغمرها شعور مبهم بالحزن.

هل يُعقل أن تكون الفوضى المؤذية التي كانت هي ترتاب في أنّ جاكوب يثيرها ويرعاها، يحرّكها فقط حضورها، هي نورا، وأنّ كلّ شيء في نهاية المطاف يسير على نحوٍ أفضل في غيابها؟

كان يبدو لها أنّها لم تعرف قطّ كيف تحيط الطفلتين بالهدوء الذي كانت تراه أمامها، والذي كان يرين على الجماعة الصّغيرة.

كان الظلّ الورديّ للمظلّة الكبيرة يضفي على بشراتهم اللّون النضر الطفوليّ نفسه.

قالت في نفسها: آه! ترى ألم تكن هي من اختلقت ربّما هذا الاضطراب المحموم؟

اقتربت من الطّاولة وسحبت كرسيّاً ثمّ جلست بين غريتا ولوسي.

مكتبة

قالت لوسي وهي تنهض عن الكرسي لتقبّلها على خدّها:

- آه هذه أمّي! صباح الخير.

وقالت غريتا:

- صباح الخير نورا.

واستأنفتا حديثهما وكان يدور حول شخصيّة في الرّسوم المتحرّكة التي شاهدتاها اليوم في غرفتهما.

قال جاكوب وهو يدفع لها بكوب شراب الكركديّة:

- تذوّقي قليلاً منه، إنّه لذيذ.

رأت أنّ الشمس لوّحت بشرته وزادت من لمعان شعره الأشقر الذي كان طويلاً عند الرّقبة وعلى الجبين.

مكتبة الرمحي أحمد

قال للفتاتين:

- اصعدا وحضّرا أغراضكما.

غادرتا الطّاولة ودخلتا إلى الفندق وكلّ واحدةٍ تحضن بذراعها كتف الأخرى، الأولى شقراء والثانية سمراء وبدتا على انسجام لم تتوقّع نورا أنّهما قادرتان على تحقيقه، لأنّهما وإن كانتا متفاهمتين جيّداً، إلّا أنّهما كانتا تتنافسان خفْيةً على أن تكون لكلّ منهما الأفضليّة في قلب نورا وجاكوب.

وسارعت نورا إلى القول:

- هل تعرف، أخي سوني...

- ما به؟

تنفّست عميقاً لكنّها لم تستطع الامتناع عن تمالك دموعها التي انهمرت من عينيها غزيرة وعجزت يداها عن مسحها.

جفّف جاكوب خدّيها بمنديل ورقيّ. ثمّ ضمّها إليه مربّتاً على ظهرها.

وتساءلت فجأةً عن سبب الانطباع الغامض الذي كان يتولّد لديها دوماً عند ممارستهما الحبّ بأنّه كان يبالغ قليلاً، وكأنّه كان يسدّد بذلك مقابلَ ما تؤمّنه من طعام ومسكن، له ولابنته.

ولكنّها في هذه اللحظة، كانت تشعر في داخله بحنانٍ غامر.

فشدّته إلى صدرها بقوّة.

قالت له بصوتٍ عجولٍ لاهث:

- سوني في السّجن.

وإذ تحقّقت بنظرة واحدة من أنّ الطفلتين لم ترجعا بعد، أخبرته أنّ سوني قتل منذ أربعة أشهر زوجة أبيه خنقاً، تلك المرأة التي تزوّجها والدها لبضع سنوات خلت، والتي لم تلتقِ نورا بها قطّ.

تذكّرت أنّ سوني قد أخبرها، آنذاك، عن زواج أبيه مجدّداً، وعن ولادة الطّفلتين التوأمين، لأنّ والدهما لم يستحسن إطلاعها على الأمر.

ولكنّ سوني لم يقل لها إنّه أقام علاقة مع زوجة أبيه، ولا إنّهما خطّطا، بحسب المقال في جريدة «لو سولاي»، للرحيل معاً. لم يقل لها قطّ إنّه أحبّ بجنون تلك المرأة التي كانت من نفس عمره تقريباً، ولا إنّها أنكرت حبّه وقطعت علاقتها به متمنّيةً رؤيته يرحل من البيت.

انتظرها في غرفتها حيث كانت تنام وحيدة.

قالت نورا:

- أعرف لماذا لم يكن أبي هناك، أعرف أين يذهب ليلاً.

انتظرها في العتمة في غرفتها، واقفاً بالقرب من الباب، فيما كانت تُرقِدُ طفلتيها في غرفة أخرى.

ولدى دخولها انقضّ عليها من الخلف ولفّ عنقها بحبل غسيل مغلّف

بالبلاستيك وشدّه حتّى خنقها.

ثمّ حمل جسد المرأة بحذر ومدّده على السرير، ثمّ ذهب إلى غرفته حيث نام حتّى الصّباح.

وقد وصف كلّما فعله طوعاً بذلك التهذيب الفائق الذي أدانه المقال بشدّة.

كان جاكوب يستمع إليها بانتباه وهو يحرّك برفقٍ مكعّبات الثّلج التي بقيت في قعر الكوب.

كان يرتدي بنطال جينز وقميصاً قصير الكمّين أزرق شاحباً تنبعث منه رائحة غسيل منعشة.

صمتت نورا، وقد تولّاها الخوف لدى التفكير في أنّها قد تتبوّل في ثيابها من جديد على غفلة منها.

وعاودها الشّعور بالعار وعدم الفهم والسخط الذي تولّاها لدى قراءة المقال، وكان حارقاً، خانقاً، يجعلها تتفادى وجه سوني بإصرار... ولكن ألم يكن أبوها مذنباً هو أيضاً وقد اعتاد على استبدال امرأة بأخرى وإبقاء زوجة في ريعان الشباب بجوار جسده العجوز وروحه المشوّهة، زوجة مشتراة إن جاز القول؟

بأيّ حقّ كان يسلبُ فتى الثلاثين الحبَّ الذي هو من حقّه؟ بأيّ حقّ كان يغرف من منهل الحبّ المتأجّج، هو الرّجل الذي قشّر شبشباه أثخن غصن في البونسيانة لفرط ما جثم عليه؟

كانت غريتا ولوسي تخرجان من الفندق وكلّ منهما تحمل حقيبة ظهر.

راحت نورا تتأمّل وجه لوسي بحدّة، بألم، وكان يبدو لها فجأةً أنّ ذلك الوجه الحبيب لم يعد يعني لها شيئاً.

كان هذا وجه ابنتها، ملامحه الرّهيفة، بشرته الكامدة، أنفه الصغير، الخصلات فوق الجبين، ولكنّه كان ينأى عن عاطفتها.

كانت تشعر بنفسها منفعلة وفي الوقت نفسه شاردة بعيدة كأمّ.

ومع ذلك فإنّ حبّها لابنتها كان عظيماً، فما الذي جرى إذن؟

هل كان الأمر ببساطة لشعورها بالخزي إزاء التفاهم الذي توطّد بين جاكوب والطّفلتين في غفلةٍ منها وخلال مصادفة غيابها؟

قال جاكوب:

- حسناً يمكننا الذّهاب، لقد سدّدت الفاتورة.

سألت نورا:

- الذّهاب إلى أين؟

- لا يمكننا البقاء في الفندق، إنّه باهظ الكلفة.

- طبعاً.

- يمكننا النزول عند والدك، أليس كذلك؟

- بلى، قالت نورا بنبرة مجافية.

سأل الفتاتين الصّغيرتين ما إذا كانتا أحسنتا ترتيب أغراضه أيضاً في حقيبتيهما دون نسيان شيء. وشقّ على نورا الاستنتاج أنّه بات يتقن التحدّث إليهما بهذا الحزم الهادئ الذي لطالما تمنّت أن يتّصف به.

وسألت متظاهرة بعدم الإصرار:

- والمدرسة؟

قال جاكوب بشيءٍ من الدّهشة:

- إنّها عطلة الفصح.

- غاب الأمر عن بالي.

مكتبة

أخذت ترتجف لشدّة اضطرابها.

لم تكن هذه الأمور في العادة تخرج عن سيطرتها.

هل كان جاكوب يكذب عليها؟

قالت:

- أبي لم تستهوِه الفتيات قطّ. وها قد أتته فتاتان أخريان دفعة واحدة!

وأطلقت ضحكة خافتة كتمتها بخجل لدى رؤيتها وجهيهما المستائين من أن يكون لديها أب على هذه الشاكلة، وأن تمزح بشأنه.

لأنّ كلّ ما كان يأتي من ذاك المنزل كان دماراً وخراباً.

وصعب عليها قليلاً أن تدلّ سائق سيّارة الأجرة إلى منزل والدها تحديداً.

لم تكن تعرف إلّا العنوان التقريبيّ، اسم الحيّ، النقطة ج، لكنّ الكثير من المساكن بنيت خلال العشرين عاماً الفائتة، ممّا صعّب عليها الاهتداء إلى المنزل، ثمّ فكّرت للحظة، لدى إخفاقها مرّة أخرى في العثور عليه، أنّ جاكوب والطّفلتين سيعتقدون أنّها اخترعت وجود البيت ومالكه أيضاً.

أمسكت بيد لوسي وراحت تشدّ عليها وتداعبها مداورة.

كانت تشعر، في خضمّ اضطرابها، أنّ الحبّ الأموميّ الحقيقيّ محتجب عنها، وأنّها لم تعد تدركه، وأنّها كانت باردة، متوتّرة، متضعضعة.

وعندما توقّفوا أخيراً أمام المنزل، ارتمت خارج التاكسي وهرعت حتّى العتبة حيث كان والدها يطلّ لتوّه مرتدياً نفس الملابس المدعوكة، وأظافر قدميه الطويلة المصفرّة تبرز من الشبشبين البنيّين نفسهما.

كان يتفحّص بنظرة مرتابة، من خلف نورا، جاكوب والفتاتين المنصرفتين إلى إخراج حقيبتيهما من صندوق السيّارة.

سألته بتوتّر عمّا إذا كانوا يستطيعون الإقامة عنده في البيت.

ثمّ قالت:

- السمراء ابنتي.

- ماذا قلت! لديك ابنة؟

- نعم. أخبرتك بذلك في رسالة منذ ولادتها.

- أهو زوجك؟

- نعم.

- أنتما حقّاً متزوّجان؟

- نعم.

كانت تكذب بغضبٍ عارفة إلى أيّ حدّ كانت هذه الأسئلة التقليديّة تشغل بالَ والدها.

عندئذٍ ابتسم مطمئنّاً وصافح جاكوب بودٍّ ثمّ غريتا ولوسي مثنياً على جمال ثوبيهما، ومتحدّثاً بتلك النبرة المهذّبة الغنجة التي كان يستخدمها حين كان يريد أن يصطحب أرقى السيّاح في جولة إلى المنتجع السياحيّ الذي كان يملكه.

بعد الغداء الذي استسلم خلاله من جديد لعقوبة الشراهة، أرجع بانتظامٍ جذعه إلى الخلف على كرسيّه ليستعيد أنفاسه، فاغر الفم، مغمض العينينِ، وعندئذٍ جذبته نورا إلى غرفة سوني.

كان يأبى الدّخول إليها صراحة، ولكنّه بعد أن أُتخم طعاماً، لم يستطع أن يقوم بشيء آخر سوى الارتماء على السّرير.

كان يتنفّس مثل حيوان يُحتضر.

كانت نورا، واقفة، تتّكئ إلى الباب.

مكتبة

أشار إلى درج في الصوان ففتحته نورا ووجدت فوق قمصان سوني صورة مؤطّرة تظهر فيها امرأة في ريعان الشباب، مستديرة الخدّين، مشعّة النظرات. كانت تدور في ثوبٍ رقيقٍ أبيض تبين من خلاله ساقاها الرشيقتان الجميلتان.

هتفت بنبرة مريرة وهي تختنق إشفاقاً على هذه المرأة:

- لَمِ تزوّجت من جديد؟ ما الذي كان ينقصك بعد؟

رفع يده تعباً متباطئاً، ثمّ تمتم بأنّ دروس الأخلاق لم تكن تهمّه.

ثمّ، شيئاً فشيئاً، بعد أن استعاد أنفاسه، قال:

- طلبت منكِ المجيء لأنّ عليكِ الدّفاع عن سوني. ليسَ لديه محامٍ لأنّني لا أستطيع تحمّل تكاليفه.

- ألم توكّل له محامياً بعد؟

- لا، قلت لكِ. لا أملك المال لأدفعَ لمحامٍ جيّد.

- ليس معكَ مال! ودار السّلام؟

لم يكن صوتها الذي بدا شرساً، حاقداً، يروق لها؛ ولا الشّعور بأنّها تتشاجر مع والدها، ذاك الرّجل المؤذي الذي جهدت ألّا تُقيم معه إلّا علاقة سطحيّة.

قالت بلهجة اكثر هدوءاً:

- أعرف أين تقضي لياليك!

حدّق إليها، بنظرة مواربة من عينيه وكان فيها قسوة وغضب، عداء وتهديد.

قال:

- دار السّلام أفلست. خسرت كلّ شيء هناك. عليكِ أن تهتمّي بسوني.

- ولكنّ ذلك لا يصحّ، فأنا شقيقته. كيف تريدني أن أدافع عنه؟
- ليس هذا محظوراً، أليس كذلك؟
- لا، لكن هذا لا يجوز.
- وما العمل؟ سوني يحتاج إلى محامٍ، هذا هو المهمّ.
قالت دون أن تقدر على فهم ما يرمي إليه:
- أما زلت تحبّ سوني؟
تقلّب على السرير ثمّ احتضن وجهه بين يديه.
وهمس قائلاً:
- هذا الصبيّ هو كلّ حياتي.
كان هناك على السرير، هائلاً، هرماً، وقد شدّ ركبتيه إلى بطنه. أيقنت نورا فجأةً أنّه سيموت يوماً ما، هو الذي فكّرت غالباً أنْ لا شيء إنسانيّاً يمكن أن يؤثّر به.
جلس عند حافّة السّرير ثمّ نهض بصعوبة.
نقّل نظره من كومة الكرات في إحدى زاويا الغرفة إلى الصّورة التي كانت نورا لا تزال تمسك بها.
- تلك المرأة كانت شرّيرة، هي التي أوقعت به. هو لم يكن ليجرؤ على النّظر إلى زوجة أبيه.
هتفت نورا قائلة:
- ولكن هيَ من لقيَت مصرَعها...
سأل بنبرةٍ مفعمة جزعاً واضطراباً:
- برأيك لكَم من الوقت سيعتقلون سوني؟ لن يبقى عشر سنواتٍ في السّجن، أليس كذلك؟

مكتبة

همست نورا:

- لقد ماتت، وهو خنقها. لا بدّ أنّها تعذّبت كثيراً. ماذا قلت للفتاتين التوأمين الصّغيرتين؟

- لم أقل شيئاً، لا أتكلّم معهما أبداً. ثمّ إنّهما رحلتا.

فاتّخذت هيئةً متجهّمةً، مستاءة.

- رحلتا، ماذا تقصد؟

قال وهو يشير بذقنه إلى صورة زوجته:

- هذا الصّباح أرسلتهما شمالاً عند عائلتها...

وفجأةً لم يعد بإمكان نورا تحمّل النّظر إليه.

كان يبدو لها أنّها لا تملك أيّ منفذٍ وأنّه يمسك بها، ويمسك بهم كلّهم في الواقع منذ اختطف سوني واسماً حياتهم بختم توحّشه.

بقوّةِ قرارها وحده ارتقت ووجدت مكاناً لها في مكتب محاماة، وأنجبت لوسي واشترت شقّة، لكنّها كانت ستقبل بأن تضحّي بكلّ شيءٍ لكي لا يحصل ما حصل، لكي لا يختطف سوني من حضن أمّه وهو في الخامسة من عمره.

قال والدها:

- أذكر أنّك قلت مرّة إنكِ لن تدعي سوني ينحدر إلى الهاوية أبداً.

كانت بعض الأزهار الصّفراء تلطّخ الشرشف بعد أن سقطت من كتفيه وسحقها تحت ثقله.

وفكّرت نورا: ما أثقل هذا الشيّطان الذي يجثم اليوم على صدر سوني.

في ذاك المساء، خلال العشاء، فيما كان جاكوب ووالدها يتحدّثان بودٍّ كبير سمعت نورا تلك الكلمات تخرج من فم أبيها:

- عندما كانت ابنتي نورا تسكن هنا...

فهتفت متعجّبة:

- ماذا تقول! لم أسكن قطّ هذا المنزل.

فنهش قطعة هائلةً من فخذِ الفرّوج المشويّ الذي كان يمسك به بين أصابعه متمهّلاً في مضغه وابتلاعه ثمّ قال بصوتٍ مهذّب:

- صحيح، لكنّي كنت أقصد القول عندما كنت تقيمين في تلك المدينة، في غران يوف[1].

بدا لها حينئذٍ وكأنّ حشوة قطن تسدّ حلقها، وأنّ أذنيها بدأتا بالهدير قليلاً.

كانت أصوات والدها والفتاتين اللتين تتحدّثان باتّزان مصطنع تبدو لها وكأنّها تنأى عنها، شديدة الخفوت، مكتومة.

تنحنحت ثمّ قالت بصوتٍ أعلى:

- ماذا تقول! لم يسبق لي أن عشت قطّ في غران يوف.

لكنّها لم تكن أكيدة من أنّها تكلّمت أو أنّ أحداً يُصغي إلى كلامها.

تنحنحت وردّدت بصوتٍ أعلى:

- لم يسبق لي أن عشت في غران يوف.

رفع والدها حاجبيه بدهشةٍ مرحة.

كان جاكوب يجيل نظره حائراً متنقلاً من نورا إلى أبيها، والفتاتان هما أيضاً توقّفتا عن الأكل بحيث إنّ نورا شعرت أنّها مجبرة مرّة اخرى على تكرار ما قالته، ومستاءة لأنّها بدت وكأنّها يجب أن تتوسّل إليهم لكي تُحمَل على محمل الجدّ:

(1) حي شعبيّ في قلب داكار عاصمة السنغال.

مكتبة

- لم يسبق لي أن عشت إلّا في فرنسا، يجدر بك أن تعرف هذا.

هتف والدها:

- ماسيك!

بادره ببضع عبارات موجزة فذهب ماسيك وأتى بعلبة أحذية وضعها على الطّاولة، وراح والد نورا يفتّش فيها بنفاد صبر.

ثمّ أخرج منها صورة صغيرة مربّعة أدارها باتّجاه نورا.

وككلّ الصور التي كان والدها يلتقطها، كانت الصّورة، سواء عن قصدٍ أو لا، مبهمة قليلاً.

لقد تدبّر أمره لكي يكون كلّ شيءٍ مبهماً فيستطيع بذلك أن يؤكّد أيّ شيءٍ يريده.

كانت المرأة الشابّة الممتلئة تقف مستقيمة أمام منزل صغير ورديّ الجدران وسقفه من الصّفيح المطليّ بالأزرق.

كانت ترتدي فستاناً أخضر بلون الزيزفون مزداناً برسومٍ صفراء مطرّزة.

قالت نورا متنهّدة بارتياح:

- هذه ليست أنا. إنّها شقيقتي. لطالما خلطتَ بيننا مع أنّها أكبر سنّاً منّي.

ودون أن يُجيب، عرضَ الصورة على جاكوب ثمّ على غريتا ولوسي. لم ترمقها الفتاتان المنزعجتان إلّا بنظرة سريعة مبهمة.

قال جاكوب وهو يطلق ضحكة خافتة مرتبكة:

- أنا أيضاً كنت سأظنّ أنّها أنتِ. أنتما متشابهتان كثيراً.

همست نورا:

- ليس إلى هذا الحدّ. هذه الصّورة ليست واضحة. هذا كلّ ما في الأمر.

وضع والدها الصّورة أمام لوسي التي أحنت رأسها وعلت وجهها حمرة خفيفة.

- ماذا تقولين أيّتها الصّغيرة! هل هذه أمّكِ أم لا؟

هزّت لوسي رأسها بقوّة من الأعلى إلى الأسفل.

قال لنورا:

- أرأيتِ، ابنتكِ عرفتْكِ.

واستَرَقَ النظر إليها بطريقةٍ جانبيّة من عينيه الصّغيرتين المعاندتين.

سألها جاكوب ولديه نيّة واضحة للمساعدة:

- أما كنت تعرفين أنّ أختكِ عاشت في غران يوف؟

فكّرت نورا أنّها لم تكن بحاجة لأيّ مساعدة من هذا القبيل.

كم ذلك كان بلا جدوى.

وكانت تشعر بالتعب في هذه اللحظة.

- لا، لم أكن أعرف. كانت أختي نادراً ما تحدّثني عمّا تفعله أو عن الأمكنة التي تذهب إليها في سبيل الترويج للجمعيّة التي التحقت بها. ماذا جاءت تفعل هناك؟ سألت نورا والدها دون أن تنظر إليه مواجهة.

- أنتِ مَن كنتِ هناك وليسَ أختكِ. يجدر بك أن تتذكّري سبب زيارتك. على أيّة حال أستطيع أن أميّز بين أولادي.

في الليل، تركت جاكوب نائماً، وخرجت من المنزل الخانق على رغم معرفتها أنّها لن تجد السّلام، ولا حتّى في الخارج، لأنّ والدها كان يجثم هناك مترقّباً في أعلى شجرة البونسيانة.

مكتبة

وكانت تسمعه في الليل العميق دون أن تراه. خافتة كانت الأصوات المتردّدة في حنجرته أو تلك التي يثيرها احتكاك شبشبَيه وهو يتنقّل بتؤدة على الغصن، لكنّها كانت مع ذلك تسمعها متضخّمة في رأسها إلى حدّ لا يطاق.

كانت واقفة هناك عند العتبة، جامدة، حافية القدمين على الإسمنت الدافئ الخشن، مدركة أنّ ذراعيها وساقيها ووجهها أقلّ قتامة من الليل، مشعّة ببريق شبه حليبيّ ربّما، وأنّه كان يراها كما تراه، مقرفصاً في ثيابه الفاتحة ووجهه تمحوه ظلمته الخاصّة.

في داخلها كان الشعور بالرضى لأنّها اكتشفت مكانه يتنازع والإحساس بالرّعب لمشاركتها هذا الرّجل سرّاً.

كانت تشعر في هذه اللّحظة بأنّه سيحقد عليها أبداً لأنّها شاطرته هذا السرّ، هي التي لم يخترها قطّ ليُطلعها عليه.

هل كان ذلك السّبب في أنّه سعى إلى تشويش ذهنها بقصّة تلك الصّورة المأخوذة في غران يوف؟

لم تكن تذكر قطّ أنّها ذهبت إلى ذلك الحيّ.

التفصيل الوحيد المربك، وكانت تعترف بذلك طوعاً، هو أن تكون شقيقتها قد ارتدت ثوباً مشابهاً لثوبها، لأنّ ذاك الثّوب الأخضر الزيزفونيّ ذا الأزهار الصغيرة الصّفراء كانت أمّ نورا قد خاطته من قطعة قماش ابتاعتها نورا من دكّان بشارة.

لم يكن ممكناً أن تخيط والدتها ثوبين من قطعة القماش القطنيّ تلك.

عادت نورا إلى المنزل، وسلكت الرواق حتّى غرفة التوأمين، حيث اقتاد ماسيك غريتا ولوسي.

دفعت الباب برفق، وللتوّ أعادت الرائحة الدافئة المنبعثة من شعر الطّفلة الحبّ الذي كان هجَرها.

ثمّ انحسر ذلك الشعور وتوارى وألفت نفسها مجدّداً شاردة، قاسية، بعيدة المنال، وكأنّها منشغلة بشيءٍ ما استحوذ على كيانها بهدوء، دون مبرّر، رافضاً إخلاء المكان لأيّ شعور آخر.

همست:

- لوسي يا حبيبتي، يا دجاجتي الصهباء الصّغيرة... لكنّ صوتها الغريب ذكّرها بابتسامة سوني، أو بابتسامة والدتها لفرط ما كانت تبدو غير خارجة من شفاههما بل سابحة أمامهما، وكأنّها طيف أثيريّ، وما من رقّة كانت تسكن هذه الكلمات التي غالباً ما قالتها لابنتها.

كانت تلفي نفسها من جديد قبالة سوني، يفصلها عنه الحاجز المشبّك الذي كان يوجب عليهما أن يلصق كلّ من ناحيته فمه ليقدر على سماع الآخر.

قالت له إنّها أحضرت له مرهماً للأكزيما وإنّ الدّواء سوف يُسلَّم إليه في حجرة التمريض بعد معاينته. فضحك سوني قائلاً، بهذا الصّوت المهذّب الذي يلازمه أيّاً يكن الحديث، إنّه لن يرى الدواء ثانية.

كانت تتعرّف أخيراً إلى وجه أخيها، رغم نحوله، والتقرّحات المتخثّرة، واللحية المرسلة، وكانت تحاول أن تتبيّن على هذا الوجه الذي كان الطيبة نفسها، والذي يشبه وجه قدّيس، أمارات الاضطراب والندم والألم.

لم يكن هناك أيّ أثر لها.

مكتبة

قالت له:

- سوني لا يمكنني أن أصدّق أنّك فعلت هذا.

وكانت تتذكّر بمرارة مؤلمة أنّها لطالما سمعت أهالي المجرمين يتفوّهون عبثاً بمثل هذا الكلام، وبطريقة تدعو للرثاء.

أمّا سوني فكان يبدو من جهته خاشعاً مطمئنّاً حقّاً.

أخذ يهزّ رأسه وهو يحكّ وجهه.

- أريد أن أدافع عنك. أريد أن أكون محاميتك. سيكون لديّ الحقّ بالمجيء لرؤيتكَ أغلبَ الأحيان.

كان يهزّ دوماً رأسه برفق مواصلاً مع ذلك حكّ خدّيه وجبينه بشكلٍ مسعور.

قال لها بهدوء:

- لست أنا الفاعل، تعرفين، لم يكن بمقدوري أن أتسبّب لها بالأذى.

- ماذا تقول؟

- لست أنا...

- لست أنتَ من قتلَها، يا إلهي! سوني!

كانت أسنانها تصطدم بالحاجز المشبّك، وطعم الصّدأ على شفتيها.

- من قتلها يا سوني؟

هزّ كتفيه الهزيلتين.

قال لها إنّه يتضوّر جوعاً طيلة الوقت لأنّ بعض المساجين من بين المائة الذين يعيشون معه في الزّنزانة الكبيرة نفسها كانوا يسرقون كلّ يومٍ جزءاً من حصّته.

قال لها مبتسماً إنّه لم يعد يحلم إلّا بالطعام.

ثمّ أضاف:

- إنّه هو.

- والدنا؟

هزّ رأسه موافقاً مرطّباً باستمرار شفتيه الجافّتين بلسانه.

ثمّ إذ أدركَ أنّ الدّقائق المتبقّية لهما في غرفة الاستقبال تُشارف على النهاية، راح يتكلّم بمنتهى السرعة:

- هل تذكرين نورا عندما كنت صغيراً وكنّا نسكن تحت سقفٍ واحد، كّنا نحن الاثنين نمارس تلك اللعبة، كنت ترفعينني بين ذراعيكِ وتؤرجحينني قائلة: «واحد، اثنان، ثلاثة »ثمّ ترمينني على السّرير وأنت تقولين إنّه المحيط وإنّ عليّ السّباحة لأصل إلى الضفّة، هل تذكرين؟

أخذ يضحك ابتهاجاً، أرجع رأسه إلى الخلف وتذكّرت نورا في الحال، وكأنّه اليوم، الصبيّ الصّغير فاغراً فمه وهي ترميه على السّرير بغطائه المخمليّ الأزرق.

سألها أيضاً:

- كيف حال التوأمين؟

- لقد أرسلهما إلى عائلةِ أمّهما على ما أعتقد.

كانت تتكلّم بصعوبة، حنكها متصلّب ولسانها ثقيل.

كان يسير خلف المساجين الآخرين، ثمّ التفت بهيئة متجهّمة متفوّهاً بالكلمات التالية:

- الصّغيرتان التوأمان هما ابنتاي، وليستا ابنتيه. كان يعرف هذا، أتفهمينني؟

ذرعت رصيف السّجن لوقتٍ طويلٍ تحت شمس الظهيرة الحارقة،

مكتبة

غير قادرةٍ على موافاة ماسيك الذي كان ينتظرها في السيّارة.

كلّ شيءٍ كان مرتّباً بعناية في آخر الأمر، فكّرت ببرودة هاذية.

كان يبدو لها أنّها تنظر مواجهة إلى الشّيطان الجاثم على صدر أخيها. فكّرت: أريد أن يُعاد إليه ما أُخِذَ منه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، ومن ذا الذي يستطيع أن يستعيد ما سُلِبَ منه لسنواتٍ؟

ولكن كيف السبيل إلى ذلك حقّاً؟

سلك ماسيك طريقاً مختلفاً عن المسار المعتاد، وهذا ما لاحظته دون أن تعيره أدنى انتباه. ولكنّه عندما أوقف السيّارة أمام منزل صغير جدرانه ورديّة وسقفه من الصّفيح الأزرق، ووضع يديه على ركبتيه، صمّمت على ألّا تطرح عليه أيّ سؤال، وألا تخطو أيّ خطوة باتّجاه فخّ محتمل.

كان يتوجّب عليها في تلك اللّحظة أن تتحلّى بالقوّة من أجل سوني ومن أجلها هي، وأن تكون أيضاً مناورة بارعة.

وهكذا لن ينال منّي ذاك الذي بقي بمنأى عن أيّ تهمة بعد اليوم.

قال ماسيك:

- طلب منّي أن أريكِ هذا المنزل لأنّكِ كنتِ تسكنين هنا.

قالت نورا:

- إنّه مخطئ، أختي كانت تسكن هنا.

لماذا كانت تأبى أن تعير المنزل انتباهاً؟

شعرت بالارتباك حيال موقفها، ثمّ استرقت النظر إلى الجدران بلونها الورديّ الناصل وإلى الرّواق الضيّق على طول واجهته، فإلى المنازل المتواضعة المجاورة التي كان يلعب أمامها أطفال.

كانت تفكّر بعد رؤيتها الصورة أنّها لم يعد بإمكانها منع فكرها من

التعرّف إلى الأمكنة.

لكنّ الذّكرى ألم تكن ترقى إلى زمنٍ أبعد؟

ألم يكن هناك خلف هذه الجدران الورديّة غرفتان صغيرتان مفروشتان ببلاط أزرق داكن، وفي الخلفيّة مطبخ صغير تملؤه رائحة الكاري؟

لاحظت خلال العشاء أنّ والدها وجاكوب يجدان متعة في تبادل الكلام، وأنّ والدها وإن لم يكن يستطيع التّظاهر بالاهتمام بالأطفال، فإنّه كان يسعى مع ذلك لإضحاك لوسي وغريتا عبر إبداء تكشيرة مصحوبة بأصوات غريبة من فمه مضحكة.

كان مسترخياً ببهجة؛ لكأنّ نورا خفّفت عنه هذا العبء الرّهيب الذي كانه سجن سوني، ولم يتبقّ عليه إلّا أن ينتظر تسوية المسألة، أو كأنّها تحمّلت التبعات الأخلاقيّة المترتّبة على فعلته فتحرّر منها إلى الأبد.

شعرت أنّ في تصرّف أبيها حيال الفتاتين إطراءً لها.

سألها بغتة:

- هل اصطحبك ماسيك لرؤية البيت؟

قالت له:

- نعم أراني المكان الذي عاشت أختي فيه على الأرجح.

فأطلق ضحكة تشي بفهمه مقصد كلامها، وبانشراحه.

ثمّ أردف قائلاً:

- أعرف ماذا جئت تفعلين في غران يوف. فكّرتُ بالأمر وتذكّرت.

شعرت بالدّوار، رأت نفسها تنهض عن كرسيّها وتهرب إلى الحديقة.

ثمّ استعادت رباطة جأشها وفكّرت بسوني فكظمت الخوف والشّك،

مكتبة

الاستياء والخيبة.

لم يكن يهمّها ماذا يقول ما دامت سترغمه على إعادة ما استولى عليه.

- أتيت لتتقرّبي منّي أنا، نعم. كنت في الثامنة والعشرين أو التّاسعة والعشرين، لم أعد أذكر جيّداً.

كان يتحدّث بالنبرة الأكثر حياداً.

كان يبدو وكأنّه يريد أن يبدّد بينهما كلّ مظهر خلاف.

كان جاكوب والأطفال يصغون بانتباه إلى حديثه، وكانت نورا تشعر أنّ التصرّف المتودّد لأبيها، وأنّ الهيبة التي يمنحها إيّاه عمره، وما تبقّى من ثرائه الغابر، كان كلّ ذلك يضمن له من قِبل الثلاثة الآخرين اعتباراً لم تعد تملكه.

أضحوا ميّالين إلى تصديقه والارتياب بها.

ألم يكونوا على حقّ؟

أفلم تكن جميع مبادئها التربويّة تلقى الاعتراض، بصرامتها وتطلّبها وحدّتها؟

لا بدّ أنّهم يعتقدون أنّها كذبت أو أنكرت أو نسيت بطريقة غريبة، وهذا يجعلها تبدو أكثر ذنباً لا سيّما وأنّها كانت تفرض عليهم اتّباع سلوك قويم وتعمل على تعزيز حضوره في الحياة التي كانوا يعيشونها معاً.

ولكن ألم يكونوا على حقّ؟

كانت رطوبة دافئة تنزلق على فخذيها ثمّ تنسلّ بين ردفيها والكرسيّ.

تحسّست ثوبها بسرعة.

يائسة، مسحت أصابعها الرّطبة بفوطتها.

أردف والدها قائلاً بنبرة مهذّبة:

- كنتِ ترغبين في معرفة ما يعنيه العيش بالقرب منّي ومن سوني، لذا استأجرت ذلك المنزل في غران يوف، أفترض أنّكِ كنتِ تنشدين استقلاليّتكِ لأنّني، بالطّبع، ما كنت أبداً سأرفض استقبالكِ. لم تطيلي المكوث هناك أليسَ كذلك؟ ربّما تخيّلتِ، لا أعرف، علاقات كتلك التي نصادفها عندكم اليوم حيث لا تتوقّفون عن الثّرثرة والتّصارح والنّدم واختراع كلّ أنواع المشاكل والتصريح لدى كلّ مناسبة بأنّ الحبّ يجمعكم. ولكنّي كنت منشغلاً بعملي في دار السّلام ثمّ إن هذه المصارحات ليست من طبعي. لا، لم تبقي طويلاً، لا بدّ أنّكِ كنت خائبة. لم أعد أذكر كثيراً. وسوني لم يكن في أحسن حالاته في تلك الحقبة وربّما خيّب أملك هو أيضاً.

كانت تتجنّب الحراك لحرصها على ألّا يلاحظ أيّ شيءٍ من المصيبة التي حلّت بها، وأبقت قدميها مرفوعتين فوق البركة الصّغيرة تحت كرسيّها.

كانت تشعر بوجهها مشتعلاً وبرقبتها حارقة.

لم تقل شيئاً؛ أطرقت برأسها وظلّت جالسةً على كرسيّها حتّى غادر الجميع الطّاولة، وبعدئذٍ ذهبت لتبحث عن ممسحة في المطبخ.

في ذاك المساء، وقفت على عتبة المنزل قبل أن يحلّ الظّلام عارفةً أنّها ستجد والدها واقفاً هناك، جامداً، منتظراً بصبرٍ لا يكلّ لحظة انطلاقه.

كان مشعّاً كما لم يكن يوماً في قميصه الوسخ.

نظر إلى الفستان الرمليّ اللّون[1] الذي كانت قد لبسته وزمّ شفتيه قائلاً بشيءٍ من اللطف:

(1) يُسمّى بالعاميّة «بيج»، والكلمة آتية من الفرنسيّةbeige.

- تبوّلتِ فيه منذ قليل. ليس الأمر بذي بال، تعرفين.

قالت نورا غير آبهة بما أشار إليه:

- قال لي سوني إنّكَ خنقتَ زوجتكَ...

لم يرتعش ولم يرفّ له جفن؛ كان شبه غائب منذ تلك اللحظة، مستغرقاً تماماً في إحساسه باللّيل النازل وتلهّفه لموافاة مجثمه القاتم في شجرة البونسيانة.

قال أخيراً وكأنّه استدعي من جديد إلى حاضر مزعج:

- سوني يؤكّد أنّه هو من فعل. لم يقل قطّ أيّ شيءٍ ينافي ذلك، ولن يقول. أعرفه. أثق به.

هتفت بصوتٍ خافت:

- ولكن علامَ كلّ هذا؟

- أنا عجوز يا ابنتي. هل بإمكانكِ أن تتخيّليني في روبوس. بالله عليك رفقاً بي. على أيّة حال لم تكوني هناك يوماً على حدّ علمي. ماذا تعرفين عمّا حصل ومَن فعل ذلك؟ لا شيء. سوني أقرّ بذنبه وأُقفل التحقيق في القضيّة. هو ذا الأمر.

كان صوته يزداد خفوتاً وهشاشةً وبعداً.

همس قائلاً:

- ابني العزيز المسكين!

في الغرفة التي تحوّلت إلى مكتب مؤقّت، كانت تقرأ للمرّة الألف ملفّ الاستجواب المتعلّق بقضيّة سوني.

عاد جاكوب والفتاتان إلى باريس فيما كانت هي تقيم في المنزل الصّغير

ذي الجدران الورديّة والسقف المصنوع من الصّفيح الأزرق، بعد أن تفاهمت مع زملاء مكتبها لتأمين الدّفاع عن سوني.

أحياناً كانت تشيح ببصرها عن الملفّ مستمتعةً بالنظر إلى الغرفة الصّغيرة البيضاء العارية، متقبّلةً فكرة أنّها ربّما نامت منذ عشر سنوات في الغرفة نفسها، وهذا الاحتمال أخذت تتآلف معه بدلاً من أن ترفضه بجزع ونفور. وكانت تستسلم دون خشية لذاك الشعور بأنّ ما تراه وتعيشه ليس جديداً، وأنّه ربّما كان آتياً أيضاً من أنّها سبق لها أن عاشت في الحلم ما كانت تعيشه في تلك اللّحظة في الواقع.

كانت هناك، وحدها، في منزل غريب ينيرها ضوء حادّ، جالسةً على كرسيّ قاسٍ طُلي معدنه حديثاً، وجسدها بكليّته مستكين، وعقلها مستكين أيضاً.

كانت تفهم ما جرى في منزل أبيها. كانت تفهم الجميع وكأنّها كانت جاثمة بالتناوب على صدر كلّ واحدٍ فيهم.

لأنّ سوني قال للقاضي: «اختبأت في غرفة زوجة أبي، في الزّاوية بين الخزانة والحائط، وكنت أمسك في جيبي بحبلٍ رفيع أخذته من خزانة المجلى في المطبخ، فضلة من حبل الغسيل المنشور في الحديقة. كنت أعرف أنّ زوجة أبي ستدخل وحدها إلى الغرفة بعد أن تكون أنامت الصّغيرتين لأنّها هكذا كانت تفعل كلّ مساء، وكنت أعرف أنّ والدي لن يدخل إلى هذه الغرفة لأنّه امتنع عن النّوم فيها. لا أستطيع الإفصاح عن مكان نومه، أعرف أين ولكنّي لا أستطيع أن أقول. هذا يعني أنّني تعمّدت تماماً فعلتي؛ كنت أعرف أنّ زوجة أبي ستتقدّم باتّجاه الخزانة وأنّه سيسهل عليّ تمرير الحبل حول عنقها. كانت طويلة القامة على نحولٍ ولم تكن قويّة

مكتبة

البنية. كانت ذراعاها نحيلتين وضعيفتين فلم تقاوم إلّا قليلاً. كنت أعرف ذلك. كنت قد عانقتها غالباً في هذه الغرفة نفسها وأعرف تماماً أنّ قوّتها لا تُذكَر مقارنةً بقوّتي. عانقتها مراراً، وكانت من الرقّة بحيث يمكنني أن ألامس كتفيّ حين كنت أضمّها إلى صدري. وحينئذٍ حصل كلّ شيء كما توقّعت. دخلتْ وأغلقت الباب خلفها. مشت نحو الخزانة وذهبْتُ باتّجاهها وشدَدْتُ الحبل، تصاعدت من حلقها غرغرة، حاولتْ أن تمسك الحبل لكنّ كلّ قوّة فارقتها. سقطت أرضاً فحملتها ووضعتها على السّرير. وخرجت. أغلقت الباب وذهبت إلى غرفتي. نفخت من جديدٍ كرات السلّة كلّها لأنّني فكّرت أنْ لا أحد سينفخها إلّا بعد مرور زمنٍ طويلٍ، ولأنّني أشعر بأنّني أفضل حالاً حين تكون منفوخة كما يجب. اندسست في فراشي ونمت بعمقٍ حتّى السّاعة السّادسة. استيقظت على صراخ الصّغيرتين اللتين ذهبتا لرؤية والدتهما. وبعد وقتٍ قليلٍ أتت الشّرطة وأخبرتُهم بكلّ ذلك كما أخبركم إيّاه الآن. الأسباب التي دفعتني إلى ارتكاب الجريمة هي أنّنا كنّا نعيش أنا وزوجة أبي قصّة حبّ منذ ثلاثة أعوام. كانت في نفس عمري، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي أغرم فيها. كنت أحبّها أكثر من أيّ شيء آخر، أكثر من أيّ إنسان في العالم. ما إن تزوّج أبي بها واصطحبها إلى المنزل حتّى أحببتها. كان الأمر قاسياً جدّاً عليّ وكنت أشعر بي مذنباً وقذراً. لكنّها كانت مغرمة بي أيضاً وكنّا بدأنا نتَطارح الغرام. بالنسبة لي، كانت تلك هي المرّة الأولى، كنتُ انتظرت حتّى تلك اللحظة ولم أجرؤ على ممارسة الحبّ من قبل. كنت أُلفيها جميلة ومرحة، وكنت في غاية السعادة. حبلَتْ وكنت واثقاً من أنّها حبلت منّي وتعلّقتُ كثيراً بالبنتين. كنت سعيداً هكذا لأنّ والدي لم يكن يتألّم من شيء ولم أعد

خائفاً منه، وهو لم يكن يتدخّل في شؤوني. ولكنّها، هي، بدأت تتعب منّي. لم تكن قادرةً على أن تحبّني مدى العمر كما كنت أنا أحبّها. كانت مستاءة، وبدأت تصدّني. كانت تقول لي إنّ عليّ مغادرة المنزل وإنّه يتوجّب عليّ بدء حياة جديدة في مكانٍ آخر. ولكن أين كان بإمكاني الذّهاب وأيّ حياة سأبدأ ومن سأحبّ؟ كنت في منزلي، عند أبي، وكنت بطريقةٍ لا رجوع فيها متزوّجاً من زوجة أبي، وكانت طفلتا أبي طفلتيّ. وبالنتيجة كانت أسرار أبي أسراري أيضاً. لذا لا أستطيع أن أتحدّث عنه مع أنّني أعرف كلّ شيءٍ عنه».

وقالت الصبيّة خادي دمبا وهي في الثّامنة عشرة من عمرها: «كنت في المطبخ وسمعت الصّغيرتين تصرخان بقوّة. تركت المطبخ وذهبت إلى الغرفة حيث كانت الصّغيرتان تصرخان. كانتا بالقرب من السّرير واقفتين وكانت أمّهما ممدّدة ورأيت عينيها المفتوحتين ولون وجهها الذي لم يكن كعادته».

وقال والدهم: «أنا رجل عصاميّ، وأظنّ أنّ لديّ الحقّ بأن أفتخر بذلك. كان أهلي معدمين، وكلّ مَن حولي كان معدماً أيضاً، كنّا نعيش بشطارتنا وبراعتنا، ولم يكن ما نجنيه كلّ يوم على قدر الجهود الحاذقة المبذولة لجنْيه. درست في فرنسا لأنّني كنت صبيّاً حادّ الذكاء ثمّ عدْت إلى بلادي مع ابني سوني وهو في عمر الخامسة، واقتحمت ميدان الأعمال. أعدت شراء قرية العُطَل التي كانت قيد الإنشاء في دار السّلام واستطعت أن أجعل منها مكاناً يرتاده النّاس، ويدرّ الأرباح. لكن الحظّ عاكسني وتوجّب عليّ التخلّي عن دار السّلام. ونظراً لما أنا عليه اليوم عليّ الاكتفاء بالقليل القليل وهذا لا يهمّني إذ لم يعد لديّ الكثير من الكبرياء، لا بل

مكتبة

النزر اليسير. دخلت إلى منزلي فاستقبلتني كلّ هذه الصّرخات. إذا كان ابني سوني يؤكّد أنّه مرتكب هذه الجريمة فأنا أذعن وأغفر له لأنّني أحبّه منذ الأزل بصفته ابني وبما هو عليه، مع أنّه يقال لي أحياناً: ابنكَ لم يفعل بذكائه شيئاً، لكنّه يفعل به ما يستطيع أو ما يشاء وهذه ليست مشكلتي. أصدّق ما يقول وأذعن له. زوجتي خانتني لكنّه هو لم يخنّي. إنّه ابني وأنا أتقبل وأتفهّم ما فعَله لأنّني أرى نفسي فيه. ابني سوني أفضل منّي، وهو يفوق في كبر نفسه كلّ من عرفتهم. ومع ذلك أرى نفسي فيه وأسامحه. أذعن لما يؤكّده ولا أقول شيئاً آخر، أو شيئاً مختلفاً. وإذا كانت أقواله ستتغيّر فسأمتثل لما يقول لأنّه ابني. وقد ربّيته، وهذا كلّ شيء. زوجتي لم أربِّها. لا أعرفها ولا أستطيع أن أسامحها وحقدي عليها لن يتلاشى أبداً لأنّها خانتني في عقر داري ولم تبالِ».

عند نهاية بعد الظّهر، حين يصبح الحرّ أخفّ وطأة في الشّارع، تذهب نورا لرؤية سوني.

كانت تخرج كلّ يومٍ في السّاعة نفسها وتضبط سرعة خطواتها لتتجنّب أن تعرق بغزارة.

وكانت تحضّر في ذهنها الأسئلة التي ستطرحها على سوني، عارفة أنّه سيجيبها بابتسامته وحدها وأنّه لن يعود عن قراره بحماية والدهم، ولكنّها كانت تريد أن تُظهرَ له أنّها مصمّمة، من جهتها، على إنقاذه هو أيضاً، وعلى مجابهته بصدق.

كانت تمشي بفرحٍ في الشّارع الأليف وكان ذهنها في سلام وجسدها لم يعد يباغتها.

كانت تلقي التحيّة على جارة جالسة أمام بابها وتفكّر: ما أحسن جيراني

هنا، إذا كان هذا الجار أو ذاك، سواء الفرّان اللبنانيّ أم المرأة العجوز التي تبيع الصّودا في الشّارع يتحدّثان عنها قائلين، على حدّ زعمهما، إنّهما تعرّفا إليها منذ عشر سنوات، فإنّ ذلك القول لم يكن يزعجها.

كانت تتقبّل الأمر بتواضع، خلافاً للصواب، كمن يتقبّل سرّاً.

وبالمقابل، لم تعد تتساءل إن كان حبّها لطفلتها سيُبعث من جديد في قلبها بعد أن تبذل كلّ جهد دفاعاً عن سوني، وبعد أن تتحرّر هي وسوني من الشّياطين الرابضة على صدرَيهما مذ كانا هي في الثّامنة وهو في الخامسة.

لأنّ الأمر كان هكذا.

وكان باستطاعتها التفكير في جاكوب بهدوء وامتنان له وهو يعتني بالطّفلتين على طريقته التي تضاهي طريقتها ربّما. وكانت تستطيع التّفكير في ابنتها لوسي دون شعور بالقلق.

وكان باستطاعتها التفكير في وجه أخيها سوني المشرق عندما كانت تلاعبه فيما مضى برميه على السّرير. وكان باستطاعتها التفكير في كلّ ذلك دون أن تشعر بالألم المدمّر.

لأنّ الأمر كان هكذا.

سوف تسهر على سوني وتعيده إلى المنزل.

لأنّ الأمر كان هكذا.

طِباق

كان يشعر بالقرب منه بِنَفَسٍ غير نَفَسِه، بحضورٍ آخر بين الأغصان. منذ بضعة أسابيع وهو يدرك أنّه لم يعد وحيداً في عرينه، وكان ينتظر، دون عجلة أو غضب، أن يظهر الغريب رغم معرفته في الأصل من سيكون

مكتبة

لأنّه لا يمكن أن يكون أيّ شخصٍ آخر. ولم يغضبه ذلك لأنّه في السّكينة القاتمة للبونسيانة، كان قلبه يخفق سقيماً وكان ذهنه متوانياً. ولكنّ ذلك لم يغضبه. كانت ابنته نورا هناك قربه جاثمة وسط الأغصان التي تجرّدت من أزهارها، في الرّائحة القارصة للأوراق الصّغيرة، كانت هناك قاتمة في ثوبها الأخضر الزّيزفونيّ، على مسافة محاذرة من نور أبيها، تُرى لمَ جاءت تختبئ في البونسيانة إن لم يكن لإحلال سلام نهائيّ؟ كان قلبه سقيماً وذهنه متوانياً. كان يسمع نَفَس ابنته ولا يشعر بأيّ غضب.

2

طيلة الصّبيحة، وكمثل ذكرى حلم أليم ينطوي على شعورٍ غامض بالإهانة، لازمَته فكرة أنّه لم يكن يجدر به أن يكلّمها على هذا النّحو، لمصلحته هو بالذّات، ثمّ لفرط ما قلّبَ هذه الفكرة في ذهنه المشوّش، وأجالها في خاطره، تحوّلت إلى قناعة وإن لم يعد يتذكّر تماماً سبب الشّجار. ومن هذا الحلم الأليم والمهين الذي لم يتبقّ إلّا خُلْفَتُه المفعمة مرارة.

لم يكن يجدر به مطلقاً أن يكلّمها على هذا النّحو. هذا كلّ ما كان يعرفه عن ذلك الشّجار؛ على أيّة حال هذا ما كان يعيقه عن حصر ذهنه وتوخّي منفعة من ذلك حين سيعود لاحقاً إلى البيت ويجتمع بها.

لأنّه، كان يفكّر مشوّش الذهن، كيف سيريح ضميره بالذّات إذا كانت الذّكريات المبتورة لخلافاتهما تظهره وحده مذنباً، دائماً وأبداً، كما في تلك الأحلام الأليمة والمهينة حيث، مهما قيل وأيّاً يكن القرار الذي يُتّخَذُ، يبقى الحالم مخطئاً بشكلٍ لا رجوع فيه؟

ثمّ كيف سيكون بوسعه العثور على الهدوء والنجاح في أن يكون ربّ عائلة فاضلاً ما لم يكن قادراً على إراحة ضميره، وأيضاً كيف سيكون

مكتبة

بوسعه أن يكسب الحبّ من جديد؟

كان حريّاً به ألّا يتحدّث معها بهذه الطريقة، ما من رجلٍ يملك الحقّ في ذلك.

إلا أنّه كان يدرك بشكلٍ مبهمٍ السبب الذي دفعه إلى إفلات بعض الكلمات من شفتيه، تلك التي لا يفترض برجلٍ أن يقولها لا سيّما حين تكون أقصى رغباته هي أن يُحَبَّ كما في السابق. لكأنّ هذه الجمل الرهيبة (ولكن ما هي الجمل التي تفوّه بها على وجه الدقّة؟) انفجرت في رأسه مدمّرةً كلّ ما تبقّى.

وهل كان صحيحاً أن يلوم نفسه إلى هذا الحدّ؟

لو أنّه كان يستطيع فقط أن يثبت أمام محكمة وجدانه بالذات أنّه كان لديه بعض الأسباب الموجبة التي تدفعه للانزلاق إلى مثل هذا الغضب المسعور، عندئذٍ كان سيندم على تصرّفه باتّزان أكبر ولكان طبعه من جرّاء ذلك سيزداد دماثة.

في حين أنّ شعوره بهذا الذلّ الهاذي، المحتدم، المشوّش كان يزيد من غضبه.

آه ما أشدّ توقه إلى الطمأنينة وصفاء الذهن!

لماذا، مع مرور الوقت وخفوت ريعان شبابه، كان لديه الشعور بأنّه وحدها حياة الآخرين، حياة أغلب مَن كانوا حوله، تسير متطوّرة بصورةٍ طبيعيّةٍ على طريق أكثر فأكثر انجلاءً والنور الأبهى يضيئها بأشعّته الدافئة العذبة، الأمر الذي يتيح لكلّ هؤلاء الناس المحيطين به أن يتخلّوا عن حذرهم ويتّخذوا حيال الوجود موقفاً مهاوداً مصحوباً بسخرية مرهفة، ومتّسماً مع ذلك بإدراكهم الخفيّ بأنّهم اكتسبوا معرفة أساسيّة

في آخر المطاف تشهد عليها بطونهم اللّدنة المسطّحة، وشعورهم الملساء، وصحّتهم التامّة؟ وإنّ حزني لَعميقٌ كحزن مكلوم، **لأنّي غارق في لجّة لا قرار لها.**

هو، رودي، كان يدرك طبيعةَ تلك المعرفة، وبدا له مع ذلك أنّه يتقدّم بمشقّة في درب لا يمكن لأيّ نور ساطع أن يخترق عوسجه المتشابك.

كان يظنّ أنّه يفهم، من عمق فوضاه، ووهنه، التفاهة الراسخة لما كان يعانيه، ومع ذلك، لم يكن بوسعه استخدام هذا الحدس بشكلٍ عمليّ، بل كان تائهاً على تخوم الحياة الحقيقيّة، تلك التي لكلٍّ منّا القدرة على التأثير فيها.

أمّا هو، رودي ديسكا، فكان يعتبر أنّه بالرغم من بلوغه الثّالثة والأربعين، لم يكن قد امتلك بعد هذا الاتّزان المرح الأنيق، وهذه السّخرية الوادعة التي كان يرى أنّها تسم أفعال الآخرين الأكثر بساطة وأقوالهم الأكثر عاديّة؛ كانوا جميعاً يوجّهون الكلام إلى أطفالهم بهدوء وعفويّة، ويقرأون الصّحف والمجلّات باهتمام عابث، ويفكّرون بمتعة تناول الغداء برفقة الأصحاب في الأحد القادم، وينفقون من أجل إنجاح مشروعهم المال بسخاء وبهجة، دون أن يتوجّب عليهم أن يجهدوا في إخفاء إنهائهم الشجار الألف للتوّ، أو خروجهم من حلم أليم ومهين، **لأنّني غارق في لجّة لا قرار لها.**

لا شيء من كلّ هذا أعطي له.

ولكن لماذا، لماذا إذن؟

كان يريد فعلاً التسليم بأنّه تصرّف بشكلٍ سيّئ في تلك اللحظة وفي ذاك الموقف، فيما كان حريّاً به أن يكون في مستوى المحنة أو المسرّة، ولكن، من أيّ نوعٍ كانت تلك المحنة، وأين كانت تلك المسرّة في الحياة الضئيلة

مكتبة

التي كان يعيشها مع عائلته، وأيّ ظروف تحديداً عجز عن مواجهتها كرجلٍ ناضجٍ؟

كان يبدو له أنّ تعبه الهائل (ولم يكن غضبه بأقلّ منه، كما كانت فانتا تقول مازحة. لا ضير في ادّعائه أنّه مستنفد القوى، لكنّ الغضب المسعور الدّائم الذي يفرضه على أفراد عائلته كان يضنيهم أكثر من أيّ شيء آخر، أليس ذلك صحيحاً يا رودي؟) متأتٍّ من أنّه كان يبذل قصارى جهده ليقود عربة حياتهم التّعسة في الاتّجاه الصّحيح، ويضطلع بحملهم من الأحلام الأليمة، الأحلام المهينة.

هل كوفئ مرّة على نيّته في أن يفعل الأفضل؟

لا، ولا حتّى... ولا حتّى هنّئ أو كُرِّم أو لقيَ تقديراً.

بغضّ النظر عن فانتا التي كانت تبدو دوماً وكأنّها تنسب إليه بشكل خفيٍّ الكبوات وعثرات الحظّ، لا بدّ له من الاعتراف بأنّه كان مستعدّاً لاستباق أيّ حكم مماثل من خلال ذلك الشعور الغامض بأنّه مسؤول عن المصائب التي كانت تهبط على رؤوسهم.

أمّا ضربات الحظ النادرة، فقد درج على استقبالها بذاك التّشاؤم الكبير، وكانت ملامح وجهه المرتاب توحي فعلاً بأنّ لا دخل له في هذا العبور الخاطف للسعادة في بيتهم بحيث إنّ أحداً لم يبادر يوماً لإبداء الامتنان له.

آه، هذه الأمور لم يكن رودي ليجهلها.

وكان يشعر بذاك الارتياب السئم يبين على وجهه حين كان يقترح على فانتا، على سبيل المثال، أو جبريل، الذهاب إلى المطعم أو في نزهة إلى نادي الزوارق، وكان يرى بالمقابل القلق أو الحيرة الطفيفة (كان الطّفل يشيح بنظره باحثاً عن أمّه غير قادر، من جهته، على فهم نوايا والده الخفيّة) تعلو

وجهَي زوجته وابنه الجميلين، المتماثلين، ولم يكن يستطيع حينئذٍ ألّا يشعر بالضّغينة حيالهما فينقلب حانقاً ويقول: أنتما ألا شيء يرضيكما؟ وعندئذٍ يسود الوجوم الوجهين الجميلين للكائنَين الوحيدَين اللذين يحبّهما في هذا العالم مُظهرَين بذلك عدم اكتراثهما به وبكلّ اقتراح يعرضه عليهما في سبيل الترفيه عنهما، ويطردانه بصمت من حياتهما، ومن أفكارهما ومشاعرهما، هو الرّجل المتذمّر الذي لا يمكن توقّع تصرّفاته والذي كان يجبرهما قدر سيّء على تحمّله بالقرب منهما كمن يعاني من ذيول حلم أليم، حلم مهين. **كلّ ما كان مقدّراً لي حدوثه قد تمّ**[1].

تجاوز رودي المستديرة الكبيرة التي بات يرتفع في وسطها التمثال الغريب المصنوع من الحجر الأبيض لرجل عارٍ يبدو من خلال ظهره المنحني ورأسه المخفض وذراعيه الممدودتين إلى الأمام وكأنّه ينتظر بخوفٍ وخضوعٍ نوافير الماء المبرمجة لتبليله أوائل الصّيف، ثمّ أوقف سيّارته فجأةً في الممرّ الجانبيّ على الطّريق الصّغيرة التي كانت تقوده كلّ يوم مباشرةً إلى مؤسّسة مانيل.

كان رودي قد تابع كلّ مرحلة من مراحل إنجاز هذه النافورة عندما كان يلتفّ صباحاً حول المستديرة ببطءٍ في سيّارته النيفادا القديمة قبل أن ينعطف باتّجاه المؤسّسة، وكان فضوله الشّارد قد تحوّل، في غفلة منه، إلى ارتباك ثمّ إلى استياء، لدى ظنّه أنّه لاحظ تشابهاً وثيقاً بين وجه التمثال ووجهه (ثمّة تشابه في الجبين العريض المسطّح والمربّع، والأنف المستقيم والقصير قليلاً، والحنك النافر، والفم العريض، والذّقن المدبّب الذي

(1) معظم التعابير الواردة بخطّ أسود عريض مأخوذة من قصيدة للشاعر الفرنسيّ روتبوف Rutbeuf (1230–1285) وقد اشتهر بمناحاته الكئيبة التي تشكو بؤسه وشقاءه وخيانة أصدقائه له.

مكتبة

يميّز الناس الواثقين من أنفسهم الذين يعرفون بالتّحديد إلى أين تقودهم كلّ خطوة من خطواتهم الواثقة، ولكن ألا يغدو الأمر مضحكاً أكثر منه محزناً حين يكتفي المرء بالذّهاب ليشقى لدى مانيل، أليس كذلك يا رودي ديسكا؟) وتفاقمَ اضطرابه لرؤيته الأعضاء التناسليّة المخيفة بين فخذي البطل التي نحتها شخص يدعى ر. غوكلان، وهو من سكّان الحيّ، وكان هذا يُلقي في نفس رودي الشعور بأنّه موضوع سخرية وقحة لفرط ما كان مزرياً هذا التناقض بين هيئة الرجل الخرعة العزلاء وكيس الخصيتين الهائل.

بات يتجنّب أن يرمي التمثال بنظرته المعهودة عندما كان يلتفّ حول المستديرة بسيّارته النيفادا القديمة.

لكن أحياناً كان يسيئه النظر بشكلٍ لاإراديّ إلى الوجه المعدنيّ الذي كان وجهه، ذاك الوجه المشرق والعريض بسّيمائه الممعنة في رجولتها، المنحني بخشية، ثمّ إلى الخصيتين الهائلتين، وانتهى به الأمر للشعور بالحقد لا بل بالكراهية حيال غوكلان الذي نجح، علاوة عن ذلك، حسبَ ما قرأ رودي في الجريدة المحليّة، أن يبيع منحوتته للمدينة لقاء مئة ألف يورو وأكثر.

أغرقه هذا الخبر في حزنٍ كبير.

كان الأمر وكأنّ غوكلان اغتنم فرصة نومه أو غفلته لكي يلتقط له صورة مضحكة بورنوغرافية جعلت غوكلان أكثر ثراء وديسكا أكثر فقراً، وبشاعة. لكأنّ غوكلان لم ينتشله من حلم مؤلم إلّا ليغرقه في حلمٍ آخر مهين.

- مئة ألف يورو، لا أستطيع أن أصدّق، قال لفانتا، وهو يضحك لكي

يخفي خيبته. لا، حقّاً لا أستطيع أن أصدّق.

فأجابت فانتا:

- وما همّ! وماذا يضيرك أنت أن يتدبّر الآخرون أمرهم جيّداً.

قالت له ذلك بتلك النبرة المُغيظة التي درجت عليها منذ فترة والتي تريد من خلالها أن تنظر إلى كلّ موقفٍ بنظرة متعالية، نبيلة، متجرّدة، تاركةً رودي لأفكاره السّخيفة والحاسدة، لأنّها لا تريد أن تشاركه هذا الموقف، ولا أيّ شيء آخر. telegram @ktabpdf

ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تمنعه من أن يتذكّر تلك السنوات الجميلة التي لا ترقى إلى زمن بعيد، وكان يذكّرها بها بنبرة متوسّلة، أيّام كانا يجلسان على السّرير، في خلوة غرفتهما، متلاصقَين كصديقين، وهما يمجّان تباعاً من السيجارة نفسها، وكانت إحدى ملذّاتهما الأحبّ تقوم على انتقاد تصرّفات الأصدقاء والجيران وطبائعهم دون رأفة، وكذلك على اغتراف أسبابٍ للضحك والاستهزاء من مَعين قسوتهما المشتركة المطعّمة بالنوايا السيّئة المتعمّدة، ولم يكونا ليقدرا أو يتجرّآ على اختبار هذا التواطؤ مع آخرين، بيدَ أنّه كان يعزّز صداقة وثيقة وتفاهماً بينهما علاوة على رابط الزواج الذي يجمعهما.

كان يريد إرغامها على تذكّر تلك السنوات، فيما هي كانت تتظاهر زاعمةً بأنّها لم تقضِ معه قطّ وقتاً ممتعاً.

- ولكن، لا، لم تكن تلك الفكرة الأفضل التي خطرت له بنبرته المتوسّلة رغماً عنه: أن يضطرّ لاستجدائها لكي تتقبّل أنّ ما كان ولّى إلى غير رجعة، وأنّ الرّفيق المحبّب الذي استطاع أن يكونه فيما مضى اختفى، بسبب من خطئه بالذّات.

مكتبة

وكان يعود دوماً إلى هذا المنحى الذي لا يُطاق، إلى هذا الاتّهام الضمنيّ الذي كان يضيّق على خناقه- خطئه الأبديّ -وكلّما كان يتخبّط لكي يتحرّر ممّا كان يخنقه، ويقتله، كان يهزّ رأسه الثّقيل ويتوتّر ويُفاقم أخطاءه.

وفي الواقع، لم يعد لديهما أصدقاء منذ زمن بعيد، وكان جيرانهما يجافونه.

لم يكن رودي ديسكا يُبالي بكلّ ذلك، وكان يعتبر أنّ لديه من الشجون ما يكفي ليهتمّ بما ينفّر الآخرين من تصرّفاته، ولكنّه لم يعد يستطيع أن يهزأ بأيٍّ كان مع فانتا حتّى لو كانت لا تزال قادرة على تمنّي ذلك.

كانا يعيشان في عزلة، في عزلة تامّة، لا بدّ له من الاعتراف بذلك فعلاً.

كان يبدو له أنّ الأصدقاء (من كانوا تحديداً، ما أسماؤهم، أين اختفوا جميعاً؟) قد ابتعدوا بقدر ما كانت فانتا تبتعد عنه كما لو أنّ الحبّ الذي كانت تكنّه له، كمثل شخصٍ ثالث متألّق بينهما، كان وحده جديراً باهتمامهم وعطفهم، وما تبخّرَ هذا الشّاهد الجميل حتّى بدَيا، هو وفانتا، وخصوصاً هو، لكلّ أولئك الأصدقاء، بملء تفاهتهما، وضحالتهما.

ولكنّ رودي لم يكن يُبالي بكلّ ذلك.

لم يكن يحتاج إلّا لزوجته وابنه، علماً بأنّه، كما أسرّ لنفسه بشيء من الانزعاج، كان يحتاج لابنه أقلّ من احتياجه لزوجته، وما حاجته لابنه إلّا بوصفه امتداداً غامضاً وجذّاباً لزوجته، بصفته نموّاً مبهراً ومدهشاً لشخصيّة فانتا وجمالها.

لم يكن ينقصه في حضور تلك الأطياف الخائرة التي لعبت دور الأصدقاء إلّا النظرات اللطيفة والودود التي كانت تؤكّد له أنّ رودي ديسكا كان شخصاً محبّباً، طيّب المعشر، وأنّ زوجته الآتية من بعيد كانت تحبّه بسلامة نيّة. عندئذٍ كان هو فعلاً رودي ديسكا كما يرى نفسه، حاضراً

في هذا العالم، وليس الوجه المريب المشوّش الطّالع من حلم مهين لا يستطيع أيّ صباح أن يطرده. ماذا صار بحال أصدقائي الذين أخلصت لهم الودّ وأحببتهم كثيراً؟

نظر إلى ساعته.

لم يتبقّ له إلّا خمس دقائق قبل بدء دوام الوظيفة عند مانيل.

توقّف أمام الحُجرة الهاتفيّة الوحيدة في المكان، على حافّة الطّريق الصّغيرة التي كانت تمتدّ متقدّمةً برونقٍ وجمالٍ بين سهول الكروم.

كانت الشمس ترسل سهامها الحارقة.

ما من نسمة هواء، ما من ظلّ كان يستبق ذاك الذي تلقيه في البعيد السنديانات العالية الخضراء المحيطة بالقصر الواقع بين الكروم، الصارم بشبابيكه المغلقة.

يا للفخر الذي شعر به حين حكى لفانتا عن المنطقة التي ولد فيها والتي سينتقلان إليها ليعيشا فيها حياة مزدهرة، وبالأخصّ هذا المبنى الذي كانت أمّه تعرف مالكيه قليلاً وكانوا منتجين للغراف[1] الممتاز الذي لم يعد رودي قادراً اليوم على احتسائه.

كان يدرك بصورةٍ غامضة، وفيما يتعدّى كلّ أملٍ متعقّل، أنّ اللذّة المكابرة التي شعر بها وهو يتقدّم فانتا ويدلّها على القصر الصغير القاتم جاذباً إيّاها تقريباً خلفه في الممرّ حتّى السياج، حتّى السنديانات الخضراء، متذرّعاً بهذه العلاقة الغامضة بين أمّه وأسياد المكان (توجّب عليها فقط أن تحلّ مكان خادمتهم المعهودة لبضعة أسابيع) ليتمادى في الاقتراب منه،

---

[1] غرافGraves نبيذ أبيض تشتهر به منطقة غراف جنوبيّ مدينة بوردوBordeaux في فرنسا.

مكتبة

هذه اللذّة مبعثها إذن اقتناعه بأنّ هذا القصر سيمتلكانه يوماً ما، هو وفانتا، وسيؤول إليهما بطريقة أو بأخرى دون أن يعرف كيف.

أمّا أن تنقضّ عليهما ثلاثة كلاب هائلة اندفعت من خلف المنزل فهذا لم يبدّل في هذه القناعة، على الرغم من الشعور بالرّعب الخالص الذي استولى عليه حينذاك.

آه لم يكن رودي ديسكا رجلاً على هذا القدر من الشّجاعة. هؤلاء الأصدقاء غدروا بي أيّما غدر.

ألم تكن كلاب الدوبرمان تريد أن تعاقبه على رغباته المعتدّة والمستحيلة، وعلى زجّه قدماً متسلّطة في أرض المكان الذي امتلكه بفكره؟

صفّارة أطلقها سيّدهم اللامرئيّ أوقفت الكلاب في سعيها فيما كان رودي يتراجع ببطء، وذراعه ممدودة باتّجاه فانتا وكأنّه يريد أن يقنعها بالعدول عن مهاجمة الوحوش الثلاثة.

كم شعر بحقارته وتفاهته في تلك الصبيحة الربيعيّة الدّافئة وسط السكون الوادع المضيء الذي أعقب انكفاء الكلاب، وعودتهما هو وفانتا إلى السيّارة، كم شعر بنفسه شاحباً مترنّحاً بالمقارنة مع فانتا التي كانت هادئة تماماً بالقرب منه.

كان يفكّر: لم تحقد عليّ لكوني عرّضتها للخطر، لا لأنّها طيّبة، مع أنّها كذلك، بل لأنّها لم تشعر بالخطر، هل هذا ما يُسمّى الشجاعة، في حين أنّي لست إلّا متهوّراً؟ لأنّه طالما أنّ نقمة الله قد حلّت بي، لم أرَ منهم نصيراً.

كان يسترق النّظر إلى وجه زوجته الهادئ وعينيها الكبيرتين البنّيّتين تمعنان النظر إلى حصى الممرّ وهي تحرّكه شاردةً بطرف غصن صغير من شجرة البندق التقطته عن الأرض حالما فرّت الكلاب مسرعة.

كان شيء ما داخلها يعصى على الفهم، هكذا كان يفكّر بإعجاب رغم استيائه، ذاك الهدوء الطبيعيّ الذي يميّزها كامرأة مثقّفة قبل كلّ شيء، وذاك التجاهل الذي تتظاهر به، هي التي كانت تحلّل كلّ شيء، لتماسكها بالذّات.

كان ينظر إلى أعلى وجنتها الرحبة الملساء ورموشها السّوداء الكثيفة، والأنف الناتئ قليلاً، ويشعر بأنّ الحبّ الذي يكنّه لها، لهذه المرأة الغامضة، كان يخيفه.

ذلك أنّها كانت غريبة الأطوار، في منتهى الغرابة بالنسبة إليه ربّما، وكان يستنفد قواه ليبرهن أنّ حجمه لم يكن مختزلاً إلى ما كان يبدو عليه، وأنّه لم يكن فقط أستاذاً سابقاً في إحدى المدارس توخّى العودة ليقيم في مسقط رأسه، بل كان رجلاً انتخبه القدر لكي يضطلع بمصير مميّز.

كان سيكفيه، هو، رودي ديسكا، وكان سيرضى ممتنّاً بألّا يوكل إليه أيّ واجب آخر سوى واجب حبّ فانتا.

ولكنّه كان يشعر أنّ هذا الحبّ قليل جدّاً عليها، وإن كانت تجهل ذلك، وأنّه كان يدين لها، لانتزاعه إيّاها من عالمها الأليف، بأكثر من منزل ريفيّ صغير يفتقر إلى الذوق، ويعمل جاهداً على تسديد ثمنه عبر قرض ملزم مدى الحياة، وكلّ ما يدور حوله من تفاهة كانت تخرجه عن طوره.

بضع سنوات مرّت على تلك الصّبيحة الدّافئة العذبة من شهر أيّار حين أوشكت الكلاب أن تمزّقهما كليهما (ولكنّ هدوء فانتا أتراه كبح اندفاعة الكلاب فابتعدت عنها مزمجرة ربّما، مُشْتَمَّة أنّها لم تكن كائناً بشريّاً عاديّاً؟)، وها هو يقف على حافة هذه الطّريق الصّغيرة الهانئة، وما أشبه هذه الصّبيحة بتلك، مع فارق أنّ خيبته حينذاك لم تزعزع ثقته بالمستقبل،

مكتبة

وبنجاحها، وشجاعتها المبهرة، أمّا اليوم فهو يعرف أن كلّ مسعى يقوم به سيبوء بالفشل.

وانطلقا من جديد في «النيفادا» القديمة تلك التي كان يخرج منها في هذه اللّحظة، لأنّها كانت، بالطبع، منذ ذاك الحين سيّارة رديئة قديمة الطّراز، لونها الأزرق الذي يميل إلى الرّماديّ يميّز الذوق الحذر لوالدة رودي، وقد اشتراها منها بعدما تخلّت عنها لصالح سيارة من نوع كليو. وبما أنّه لم يكن يشكّ آنذاك بقدرته على اقتناء واحدة أفضل منها في ظرفِ وقتٍ قصير (ماركة أودي أو تويوتا)، راح يحثّ فانتا على النظر إلى النيفادا بوصفها بهيمة لعينة ماكرة بعض الشيء، ولكن سقيمة، وعليهما ملازمتها في أيّامها الأخيرة بصبرٍ، وعدم إخراجها إلّا لصيانتها.

لقد عامل «النيفادا» المسكينة بوقاحة واحتقار، ولكن ألم يكن ذلك نابعاً من حقدٍ يشعر به حاليّاً إزاء قوّتها لا بل صمودها كسيّارة قديمة بسيطة أمام كلّ تجربة، وحتّى استقامتها ونكرانها لذاتها؟

كان يقول في نفسه إنّه لا شيء أتعس من أن يكره المرء سيّارته. إلى أين ذهب بي فشلي، وهل سأسقط إلى دركات بعدُ أدنى -آه، نعم ولا شكّ لأنّ ذلك يعدّ أمراً تافهاً بالمقارنة مع ما قاله لفانتا هذا الصّباح قبل ذهابه للعمل عند مانيل واستقلاله هذه الطّريق نفسها التي كانت تمرّ فيما مضى بين الكروم...

فماذا قال لها تحديداً؟ وكانت الرّيح تعصف أمام بابي وتحملهم بعيداً.

ترك باب السيّارة مفتوحاً، ووقف على ساقيه المرتعشتين. إنّ فداحة خطئه كانت تسبّب له الدّوار.

يمكنكِ العودة من حيث جئت.

أيُعقَلُ هذا؟

ابتسم ابتسامة هزيلة، متشنّجة، صفراويّة. لا، رودي ديسكا لا يتحدّث هكذا إلى المرأة التي كان يتحرّق لأن تحبّه من جديد.

رفع نظره، ووضع يده على شكل واقية، كان العرق يتصبّب من جبينه ومن طرّته الذهبيّة.

ذهبيّاً كان أيضاً العالم حوله في ذلك الصّباح العذب النقيّ. وذهبيّة كانت جدران ذاك القصر الصغير هناك الذي ابتاعه أجانب مؤخّراً ورمّموه (قد يكونون أميركيّين أو أستراليّين، حسبما عرفت الوالدة المترصّدة للأخبار التي تشبع ميلها للتباكي الشبق)، وكانت بقع النور الذهبيّة تتراقص تحت أجفانه على وقع رفيف عينيه -ألا فلتنهمر أخيراً دموع الغضب هذه التي كان يشعر بها تثقل على محجرَيه من الداخل.

لكنّ خدّيه بقيا جافّين، وبقي فكّه متشنّجاً.

سمع هدير سيّارة كانت تسير خلفه، وللحال قرفص خلف بابه غير راغبٍ في توجيه التحيّة للسائق الذي كان احتمال تعرّفه إليه وارد جدّاً هنا، ثمّ استسلم في الحال لضحكة مجنونة وهو يفكّر أنّه كان الوحيد في الضاحية الذي يقود سيّارة نيفادا زرقاء تميل إلى الرماديّ، وأنّ سيّارة رودي ديسكا تشهد بالتأكيد لحضوره أكثر من هيئة رودي ديسكا نفسها التي يمكن دوماً، من على مسافة معيّنة، أن تشبه أحداً آخر.

كان يبدو له أنّ الجميع جنى من المال ما يكفي لشراء سيّارة يعود عهدها إلى عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة على أكثر تقدير، باستثنائه هو، ولم يعرف السبب.

عندما نهض من جديد، فكّر أنّه لن يستطيع تفادي الوصول متأخّراً

مكتبة

إلى مانيل وأنّ عليه المرور بمكتب هذا الأخير مقدّماً له عذراً غير مسبوق نسبيّاً.

وكان هذا يُرضيه، بطريقة مبهمة.

كان يعرف أنّ مانيل سئم منه، وسئم من تأخّره المتكرّر، وسوء مزاجه، كما يفترض برجلٍ مهذّب بطبيعته وتاجر بالفطرة كمانيل أن يصفه، في حين أنّ رودي كان يحسب أنّ الدفاع عن خصوصيّته بشراسة هو ضمن حقوقه الأساسيّة كموظّف يتقاضى راتباً مجحفاً. ومع أنّه كان يقدّر مانيل، إلّا أنّه لم يكن يروقه أن يكون التقدير متبادلاً، لأنّه كان يرى في مانيل مثال الرجل النفعيّ والماكر والمحدود الأفق، ولكنّه ضمن الحدود الضيّقة جدّاً لقدراته يظهر موهبة مدهشة، لا بل شبه فريدة.

كان يعرف أنّ مانيل كان قادراً على محبّته واحترامه، لا بل كان قادراً على مسامحة طبعه الصّعب لو أنّ رودي أظهر براعة في بيع المطابخ، وكان يعرف أنّ مانيل كان يجلّ القدرة على إظهار كفاءة بسيطة ولافتة في ميدانٍ معيّن أكثر من جني أرباح للمؤسّسة، وكان يعرف أيضاً أنّه لم يكن في نظر مانيل لا مؤهّلاً ولا بارعاً ولا قويّ الإرادة ولا حتّى لطيفاً بما يكفي للتعويض عن تقاعس مماثل.

كان رودي يفكّر أنّ مانيل لم يكن يحتفظ به إلّا على سبيل التساهل الغريب، والشّفقة الغامضة -لأنّه ما الذي يمكن أن يكون الداعي فعلاً لكي يشفق عليه؟

فماذا كان يعرف عن وضع رودي تحديداً؟

أشياء قليلة، بالطبع، إذ أنّ رودي لم يكن ليعهد البتّة بسرّه لأيّ كان، لكنّ مانيل، ذاك الرّجل القاسي، الودود، الماكر، لا بدّ أنّه أحسّ أنّ رودي

كان محظوطاً من قدْره على طريقته، وأنّه يُحتّم على شخصٍ مثله، هو مانيل، وهو من أولئك الذين يشعرون بأنّهم تماماً في مكانهم الصّحيح حيثما وجدوا، أن يحميه إلى أن يغدو الأمر غير قابل للاحتمال.

كان رودي يفهم المبرّر الخفيّ لمانيل.

وبالرغم من امتنانه كان يشعر بالإهانة.

اغرب عن وجهي، لا أحتاجك أيّها المتعهّد التافه، وتاجر المطابخ الريفيّة.

ولكن ماذا سيصير بحالك يا رودي ديسكا لو أنّ مانيل طردَكَ، مُبدياً أمامك شيئاً من الحرج والأسف ومعبّراً لك عن اضطراره لإفهامك أنّك كنت السبب في بلوغك هذه النهاية؟

كان واثقاً من أنّه يدين لأمّه بوظيفته عند مانيل، مع أنّها لم تعترف إطلاقاً أنّها ذهبت للتحدّث إليه بشأن ابنها (والتوسّل إليه حتماً، بطرف أجفانها المتهدّلة، عرِقة ومتورّدة وقد احمرّ أنفها الطّويل لشعورها بالخزي من جرّاء سعيها) وأنّ السّبب الذي دفع برودي إلى البحث عن عمل كان من الإيلام بحيث لم يجرؤ على طرح هذه المسألة معها مجدّداً.

لا يعنيني أمر مانيل، هذا شيء أكيد.

كيف بإمكانه أن يضيّع وقته سارحاً وهو يدور بأفكاره حول مانيل فيما لم يكن يتذكّر الكلمات التي قالها تحديداً هذا الصّباح لفانتا، والتي لم يكن يفترض به قطّ أن يقولها، ولا في أيّ حال من الأحوال، لأنّه بدا له أنّه ستترتّب على ذلك أسوأ العواقب الممكنة لو انتبهت أو تحيّنت الفرصة لتأخذ كلامه حرْفيّاً، وأنّه سيبلغ حتماً بهذه الطريقة النتيجة المعاكسة تماماً لما كان يعمل عليه جاهداً منذ وقتٍ طويلٍ نسبيّاً.

مكتبة

تستطيعين العودة من حيث جئت.

كان يهمّ بالاتّصال بها ليطلب منها أن تكرّر له الكلمات التي تلفّظ بها تحديداً في حوارهما العنيف والسبب الذي أثارها.

بدا له مستحيلاً أن يكون قال لها ذلك.

فكّر أنّ ظنّه كان صحيحاً لأنّه كان ميّالاً للوم نفسه أكثر ممّا يستحقّ، ولاتّهام نفسه بالأسوأ حيال زوجته، هي التي لم تكن تستطيع أن تمتلك لا أفكاراً سيّئة ولا نوايا مبيّتة لأنّها كانت عزلاء تماماً، وفي منتهى الخيبة، في منتهى الخيبة!

إنّ مجرّد التفكير في أنّها قادرة على الامتثال لهذه الكلمات المريعة جعلت العرق يتصبّب من وجهه وعنقه.

ثمّ، وللحال، اجتازته رعشة.

وبيأس طفوليّ تمنّى أن يستفيق من ذلك الحلم الذي لا نهاية له، من ذلك الحلم الرتيب البارد حيث رأى فانتا تتخلّى عنه لأنّه، من دون أن يقدر على تذكّر ما قاله، قد أوحى لها بذلك، في حين أنّه لا شيء أكثر رعباً يمكن أن يحصل له. كان يعرف أنّها قادرة، أليس كذلك؟ لأنّها سبق لها أن تخلّت عنه، سبق لها أن حاولت، أليس ذلك صحيحاً يا رودي ديسكا؟

وطرد على وجه السّرعة هذه الفكرة من رأسه، هذه الذّكرى التي لا تطاق لهروب فانتا (هكذا كان يقول في داخله لكي يُقلّل من أهميّة ما كان خيانة ليس إلّا) مفضّلاً بدلاً منها، وهذا ما أثار دهشته حقّاً، البرودة الرتيبة لذلك الحلم اللامتناهي الذي آلت إليه حياته- حياته الحقيقيّة، حياته التعسة.

فتح باب الحجرة الهاتفيّة وانسلّ بين جوانبها المغطّاة بالخدوش ورسوم الغرافيتي.

وكما كان مضطّراً لقيادة سيّارة نيفادا عفا عليها الزمن توجّب عليه كذلك أن يُبطل اشتراكه مؤخّراً في الهاتف المحمول، وهذا القرار الذي كان باستطاعته الاقتناع بوصفه متعقّلاً، نظراً للميزانيّة المحدودة التي كانت تحت تصرّفه كلّ شهر، بدا له في الوقت ذاته غير سويّ وغير قابل للتفسير، وظالماً مثل أذىً ألحقه بنفسه، لأنّه لم يكن يعلم أو يسمع بأحدٍ تخلّى عن هذه الوسيلة، خلاهُ هو.

ولا حتّى الغجر الذين كانوا يعيشون في المخيّم الدّائم المنصوب عند أسفل الطّريق الصّغيرة، بالضبط خلف الكروم على سفح التلّة، والذين، فكّر رودي بطريقة آليّة، كان يُفترض بالسّاكنين الجدد للقصر الصّغير، هؤلاء الأميركيّين أو الأستراليّين، أن يروا سقوف عرباتهم المقطورة المخضرّة من جرّاء الطّحالب، ولا حتّى الغجر الذين كان رودي يراهم غالباً أمام واجهة مانيل يتأمّلون بنظرات حادّة مستهجنة المطابخ المعروضة، حتّى هم ما كانوا ليستغنوا عن هواتفهم.

ولكن ماذا كان يفعل كلّ هؤلاء النّاس ليتمكّنوا من عيش حياة أفضل بكثيرٍ من حياته؟

ماً الذي كان يمنعه، لا سيّما وأنّه لم يكن أبله، من أن يكون ماكراً كالآخرين؟

هو رودي ديسكا الذي اعتبر وقتاً طويلاً أنّ حساسيّته الخاصّة والرحابة الروحانيّة والمثاليّة والرّومنطيقيّة الغامضة أيضاً لطموحه تعوّضان جدّيّاً عن افتقاره إلى الدّهاء والبراعة، بدأ يتساءل عمّا إذا كان لمثل هذه الفرادة

مكتبة

قيمة ما أو عمّا إذا لم تكن مثار هزء واحتقار خفيّ كاعتراف رجل جبّار بحبّه للضرب على عجيزته وللزينة النسائيّة.

كان يرتجف كثيراً لدرجة أنّه أعاد ثلاث مرّات طلب رقم هاتفه بالذّات.

تركه يرنّ طويلاً.

كان نظره يهيم عبر اللّوح الزّجاجيّ باتّجاه القصر الصّغير الهادئ، النّضر والذهبيّ، اللائذ بالأوراق الكثيفة المتّسقة للسنديانات القاتمة، ثمّ انكفأ نظره وشخص إلى زجاج الحجرة حيث انعكس وجهه بالذّات، وكأنّه سجين الزجاج، شفّافاً متعرّقاً بعينيه المذعورتين وزرقة حدقتيه اللتين أقتمَهما القلق، فيما كان يتمثّل جيّداً الغرفة التي كان يرنّ فيها الهاتف ويرنّ عبثاً، الصّالون غير المستكمَل لبيتهم الصّغير العالق كلّه في اللّامنجز الذي لا أمل فيه، أوراق الجفصين غير المكحّلة، والبلاط البنيّ الدميم، وأثاثهما الفقير: طقم من الكنبات بقماشه المكسوّ بالأزهار وخشبه الملمّع الذي جلبته أمّه من سيدّة تعرفها، وطاولة الحديقة المغطّاة بشرشفٍ بلاستيكيّ، والصوان المصنوع من خشب الصنوبر، والمكتبة الصّغيرة التي تفيض كتباً، وكلّ ذلك يغرق في بشاعة حزينة لا شيء يأتي أبداً لإبهاجها أو التخفيف منها، لا تجاهلها ولا الحيويّة النضرة لساكني البيت. كان رودي يمقت هذه الدمامة التي لم يكن يفترض بها أن تكون، كسائر الأشياء، إلّا مؤقّتة، وكانت تعذّبه كلّ يومٍ كما تضنيه في هذه اللحظة حجرة الهاتف، لمجرّد تخيّله إيّاها. كانت تعذّبه وتغضبه هو أسير الحلم اللامتناهي، الحلم الرتيب البارد للانزعاج الدّائم.

ولكن أين بإمكانها أن تكون في هذه السّاعة؟

لا شكّ أنّها رافقت جبريل، كما في كلّ صباح، حتّى موقف باص المدرسة لكنّها لا بدّ أن تكون عادت إلى المنزل منذ وقتٍ طويل. أين كانت إذن ولَم لم تكن تردّ على الهاتف؟

وقطعَ المخابرة الهاتفيّة ثمّ أسند ظهره إلى زجاج الحجرة.

كان قميصه الأزرق الفاتح مبلّلاً، وكان يشعر به رطباً وحارّاً لصق الزجاج.

آه كم أنّ كلّ هذا مؤلم ومقلق ومدمّر، وكم يثير رغبته في البكاء سرّاً، بعد أن هدأ غضبه!

أيعقل، أيُعقل أنّ فانتا... تعلّقتْ بالمعنى الحرفيّ لتلك الكلمات التي لم يكن واثقاً حتّى من لفظها، والتي كان في جميع الأحوال متأكّداً من عدم التفكير فيها أبداً؟

رفع السمّاعة من جديد بسرعة فأفلتت منه وارتطمت بالزّجاج.

أخرج من جيب بنطاله الجينز المفكّرة القديمة المهترئة الأطراف مفتّشاً عن رقم هاتف السيّدة بولمير، مع أنّه كان واثقاً، نظراً لأنّه سبق له أن هاتف المرأة العجوز مرّاراً، من قدرته على تذكّره.

لم تكن طاعنة في السنّ إلى هذا الحدّ في الواقع، كانت لا تكاد تكون بعمر أمّي، ولكن كان لديها تلك التصرّفات التي تسم النساء العجائز، تلك الطّريقة في الانتقاص علانيةً من قدرها للنزول إلى مستوى الطلبات المعقّدة والمزعجة التي اعتاد أن يلتمسها منها مذ أصبحت جارتها، فيما هي آلت على نفسها ولا شكّ ألّا تطلب منهما أيّ شيء.

وللحال رفعت السمّاعة وكأنّها تتوقّع المكالمة.

– أنا رودي ديسكا، مدام بولمير.

- نعم.

- أودّ فقط أن أعرف إذا.... إذا كان بإمكانك الذّهاب لرؤية المنزل والتأكّد من أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام.

وشعر أنّ قلبه يرتطم في صدره بقوّة فيما كان يجهد لإضفاء برودة على صوته لن تخدع السيّدة بولمير لحظة واحدة، وكان مستعدّاً للشكوى والتوسّل إلى إله أمّه، ذاك الإله الطيّب العطوف الذي كان يبدو له أنّه سمع أمّه واستجابها، فالتقط أنفاسه والعرق المتجمّد يتصبّب منه بالرغم من هواء الحجرة الخانق، وقد نأى فجأةً في زمن جامد (كان كل شيء يبدو له جامداً حوله ومعلّقاً وسط القلق، أفنان السنديانات الخضر وأوراق الكروم والغيوم المندوفة في زرقة السّماء القاسية) لا شيء يستطيع بثّ الحركة فيه من جديد سوى أن يقال له إنّ فانتا على ما يرام في المنزل، وإنّها سعيدة، وتحبّه ولم تكفّ أبداً عن حبّه...

لا، هذا لن تقوله له السيّدة بولمير أليس كذلك؟

وقالت له همساً مصطنعةً الرقّة:

- ماذا يجري يا رودي؟ هل ثمّة خطب ما؟

- لا، لا شيء خطير، كنت أقول فقط... بما أنّني لا أستطيع الاتّصال بزوجتي...

- من أيّ مكانٍ تتّصل؟

عارفاً أنّه لم يكن يفترض بها أن تسأله ذلك، وعارفاً أيضاً أنّه لم يكن يجرؤ على زجرها قبل أن تتفضّل بحمل الكتلة الثّقيلة لجسدها الجليل العديم النفع إلى منزل ديسكا، والنظر عبر النّافذة المجرّدة من الستائر أو القرع على الباب للتأكّد من أنّ تلك المرأة الغريبة التي كانت زوجته، فانتا

تلك التي اختفت فعلاً ذات مرّة، لم تهرب ولم تسقط منهارة في إحدى زاويا هذا البيت التّعس شبه المرمّم؛ آه كم كان يُسئمه أن يفهم تماماً ما ترمي إليه السيّدة بولمير، وكم أنّ مثل هذه العلاقات يشعره بالتقزّز.

- أكلّمكِ من حجرة هاتف.

- ألم تذهب إلى العمل يا رودي.

فصرخ قائلاً:

- لا! وماذا بعد يا سيّدة بولمير؟

ساد صمت طويل، صمت غير ناتج عن صدمة أو دهشة. لم تكن تنتاب العجوز بولمير مثل هذه الانفعالات الصبيانيّة، ولكنّه صمت مشحون بكرامة مجروحة يفترض بها أن تدفع برودي، لو كان لديه ذرّة من احترام إنسانيّ، إلى النّدم.

كان يسمع لهاثه في سمّاعة الهاتف.

كان يشعر بهذا الغضب يصعد في داخله من جديد، كما في ذلك الصّباح حين واجهته فانتا بكلامها أو بصمتها ربّما، لم يعد يذكر (ولكن هل سيقول له أحدهم أخيراً لِكَم من الوقت يستطيع إنسان يناضل من أجل الاحتفاظ بشرفه كرجل وأب، وكزوج وابن، رجل يحاول كلّ يوم أن يَحول دون هدم ما بناه، لِكَم من الوقت يستطيع هذا الرّجل أن يتحمّلَ أن تستهدفه الملامات نفسها، التي ينطق بها لسان أو نظرة متفحّصة مسمومة لا شفقة فيها، فيتحمّلها بجبين مشرق وابتسامة على الشّفتين وكأنّ القداسة أحد واجباته أيضاً، ترى هل سيقول له أحدهم له أخيراً كم بإمكانه الصمود، هو الذي تخلّى عنه أصدقاؤه؟) هذا الغضب المضطرم على شيء من العذوبة والودّ، والذي كان يعرف جيّداً أنّه يفترض به أن

مكتبة

يقاومه ولكنّه كان يُستحسن به أيضاً ألّا يلجمه، الناجع والمريح للغاية، حتّى أنّه راح يفكّر أحياناً: هذا الغضب الأليف، أليس هو كل ما تبقّى لي، ألم أفقد كلّ ما عداه؟

وألصق فمه بالبلاستيك الرّطب.

ثمّ صرخ قائلاً:

- والآن عليكِ أن تحرّكي مؤخّرتكِ الكبيرة وتقومي بما طلبته منكِ.

أغلقت السيّدة بولمير السمّاعة دون كلمةٍ أو تنهيدة.

وضغط على زرّ الهاتف بعنفٍ مرّتين أو ثلاثاً ثمّ طلب من جديدٍ رقم منزله.

بات التّفكير في المنزل على أنّه منزله ملازماً له، وإن كان يزعجه ويجرحه باستمرار، ولكنّه كان يجاري بهذه العبارة فانتا في رغبتها التلقائيّة المتجلّية عبر كلّ تصرّفاتها، والمتمثّلة في عدم اعتبار المكان منزلها بل فقط منزله، ذاك المنزل التّعس المتداعي، وكان يعرف أنّ السّبب لم يكن قبح البيت المتعذّر إصلاحه والذي لم تكن فانتا لتكترث به، وهذا كان يدركه في العمق، بل لأنّه اختار هذا البيت وسمّاه ولأنّه، بشكلٍ من الأشكال، أوجده.

كان قد قرّر أنّ هذا المسكن سيؤوي سعادتها.

كانت فانتا تصطحب الطفل معها، جبريل الصّغير ذي السّبع سنوات الذي لم يكن رودي قطّ مرتاحاً معه (لأنّه كان يدرك، عاجزاً عن تغيير أيّ شيء، أنّه كان يخيف الصبيّ) لتخرج من البيت.

ثمّ كانت تعود إلى المنزل، لم يكن لديها من خيار آخر إلّا أن تعود إليه. ولكنّ رودي كان يشعر أنّها كانت تشيع البرودة في المنزل، وترفض أن

تُظهر عطفاً لمنزل زوجها واعتناءً به، أو أن تحيط بيت زوجها التّعس بعنايتها وانتباهها الأموميّ.

وعلى مثالها، كان الطّفل يسكن البيت طيفاً صغيراً حائراً، ملامساً البلاط بقدميه الخفيفتين، ويبدو أحياناً وكأنّه يطفو على الأرض أو كأنّه كان يخشى هو أيضاً الاحتكاك بمنزل أبيه فيمكث بحذرٍ بعيداً عن أبيه نفسه.

وقال في نفسه وقد هزّه الألم، وكلّ غضب قد تلاشى في داخله فيما كان الرّنين يتواصل في أذنه، وخلف الزّجاج كانت الكروم والسّنديانات والغيوم الصّغيرة الطّفوليّة تستعيد حياتها في الرّيح الهزيلة: ما الذي حصل إذن لثلاثتهم جميعاً لكي تنظر إليه زوجته وابنه، الكائنان الوحيدان اللّذان يحبّهما في هذا العالم (لأنّه لم يكن يشعر حيال أمّه إلّا بحنانٍ غامضٍ، شكليٍّ، دون تأثير) وكأنّه عدوّهما؟

- نعم؟ على الفور قالت فانتا بصوتها الخافت المتجهّم الكئيب لدرجة أنّه ظنّ بادئ الأمر أنّه هاتف مرّة جديدةً السيّدة بولمير.

ذُهل ثمّ شعر بانقباضٍ في حلقه.

هاكم إذن كيف تتكلّم فانتا حين تكون وحدها في المنزل، وحين تجهل أنّها تتوجّه إليه فيمتلئ صوتها لحينه بحقدٍ وقساوة يصيّرانه متهدّجاً -هاكم إذن كيف كانت فانتا تتكلّم عندما تكون نفسها، دون أيّ رابط يجمعها به- بأيّ حزن، بأيّ يأس كامد، بأيّ ارتداد كئيبٍ لنبرتها.

لأنّها، على قدر ما يمكنه أن يتذكّر، كانت تجهد دوماً لإخفاء هذه النبرة التي كان يجدها ساحرة، ومع أنّ هذه الرّغبة في الظّهور، وكأنّها آتية من لا مكان، لم تكن تستهويه تماماً لا بل كان يجد فيها شيئاً من العبثيّة (لأنّ

مكتبة

وجهها كان يعلن بشكل واضح أنّه وجه غريبة) فإنّه قد نسبها دوماً إلى طاقة فانتا، وحيويّتها التي تفوق حيويّته، هي التي كانت قد كافحت دوماً بشجاعة منذ الطّفولة لتصبح كائناً متعلّماً ومثقّفاً، ولتخرج من واقع الفقر الأبديّ، الفائق الجمود والرّتابة.

أليس من سخرية القدر المُرّة أن يكون هو، رودي، من عاد فأغرقها في الفقر الذي كانت نجحت بقدرتها وحدها وبشجاعتها في التخلّص منه فيما كان يتوجّب عليه بالأحرى تنجيتها، لا بل إعانتها في إتمام انتصارها على الشّقاء، شقاء ولادتها في حيّ كولوبان[1]، وكان يتوجّب عليه أيضاً ليس دفنها حيّة وجميلة وشابّة، وهي على هذه العزلة والشجاعة في عمق...

- هذا أنا رودي.

- انتظر لحظة، أحدهم يقرع الباب.

أمّا وأنّ لهجتها باتت أقلّ حزناً بعد أن تعرّفت إلى محدّثها، وكأنّها أعيدت تلقائيّاً إلى تصلّبها بفضل ردّ فعل قائم على الانتباه والارتياب يهدف إلى ضبط كلّ كلمة تقولها لئلّا تُستخدَم ضدّها في الشجار القادم، مع أنّه كان يرى أنّ فانتا لم تكن في الحقيقة تثير الشّجار قطّ بل تكتفي بأن تواجه هجماته بحاجز من الخرس المعاند، ووجهٍ ساهٍ يكتنفه الحرد، وشفتين منتفختين، وذقنٍ مشدود، وكان رودي، من ناحيته، يعرف جيّداً أنّها كانت تراقب بإحكامٍ شديدِ القليلَ الذي كانت تقوله بحيث تتجنّب أيّ جملة تثير غضبه؛ كما كان رودي يعرف جيّداً أنّه يشتعل غضباً من لامبالاة هذا الوجه نفسها المتعمّدة عن سابق تصميم، والمشغولة بإتقان. ثمّ إنّه كلّما كان يزداد غضباً، كانت ملامح فانتا تزداد تصلّباً، وكان، هو،

(1) في دكار عاصمة السنغال.

يمعن انزلاقاً في شرَك الغضب المسعور، إلى حدّ أنْ يرمي كالبصاق حيال هذا الوجه الذي يكتنف بالبرودة الزائفة كلماتٍ كان يندم عليها يائساً رغم ارتيابه لاحقاً، كما في تلك الصّبيحة، من أنّه نطق بها حقّاً.

فكّر: كم أنّ كلّ ذلك كان باطلاً، ليتها كانت تدرك أنّه يكفي بضع كلمات من ناحيتها، بضع كلمات بريئة بسيطة ولكن منطوقة بالدفء الضروريّ لكي يعود من جديد رودي ديسكا الطيّب، الهادئ، الودود، الذي يفتقر بالطّبع إلى الحسّ العمليّ ولكن المفعم طاقة وفضولاً على أيّة حال، كما كان منذ سنتين أو ثلاث، ألا ليتها كانت تدرك ذلك.

أحبّك رودي، أو: لم أكفّ عن حبّك أبداً، أو ربّما: أنا متمسّكة بك، رودي، وهذا كان سيوافقه أيضاً.

شعر بنفسه يحمرّ خجلاً، وأشاعت أفكاره بالذّات في نفسه الاضطراب.

وهذا كانت تدركه جيّداً.

ولا أيّ توسّل، ولا أيّة نوبة غضب (ولكن ألا يمتزج التوسّل لديه بالغضب؟) ستجبرها يوماً على التفوّه بمثل هذه الكلمات.

كان مقتنعاً أنّه حتّى لو أُوسِعت ضرباً وتهشّم وجهها على البلاط القاسي، فإنّها ستلوذ بالصّمت، لعجزها عن الاقتناع بأنّ الخلاص سوف يأتي من مداهنة عاطفيّة.

عبر سمّاعة الهاتف، كان بإمكانه أن يسمع خطوات فانتا، المتباطئة قليلاً، الخفِرة، المتّجهة ناحية الباب، ثمّ الصوت العالي القلق لبولمير المتبوع بصوت فانتا الهامس. هل بإمكانه، من هذه المسافة، تمييز التعب اللامتناهي الذي كان يثقل على صوت زوجته أو أنّ هذا الإحساس لم يكن إلّا نتيجة البعد وخجله من نفسه بالذات؟

مكتبة

سمع اصطفاق الباب، ومن جديدٍ التقدّم البطيء لقدمَي فانتا الحافيتين، هذه المشية المتعبة، المنهكة التي باتت أليفتها منذ نهوضها من الفراش، وكأنّ انتظار نهار جديد في هذا المنزل الذي كانت ترفض بإصرارٍ العناية به (لِمَ عليّ أن أفعل كلّ شيء هنا؟ غالباً ما كان يصرخ بها هكذا حانقاً) يثقّل عرقوبيها الرّهيفين بجلدهما الجافّ اللّامع، هذين العرقوبين نفسيهما اللذين كانا يسيران بسرعة ولا يهدآن سواء أكانا ينتعلان الأحذية المسطّحة، أو الرياضيّة المغبرة، في أزقّة كولوبان، وهما في الطريق إلى المدرسة الثانوية حيث رآها رودي للمرّة الأولى.

كان هذان العرقوبان يبدوان آنذاك مجنّحين لأنّه كيف كان بإمكانهما، على نحافتهما وصلابتهما، وهما أشبه بعصوَين مستدقّتين مستقيمتين يكسوهما جلد لامع، أن ينقلا بهذه السّرعة والخفّة الجسد الطّويل الرّشيق القويّ المشدود لفانتا الشابة. كيف كان بإمكانهما فعل ذلك، تساءل بافتتانٍ، لولا الدعم الذي يجيئهما من جناحين صغيرين غير مرئيّين وبالتأكيد كانا الجناحين عينهما اللذين يجعلان جلد فانتا يرتعش برقّة بين عظمَي الكتف في تقويرة صُدرتها السّماويّة، حين كان يقف خلفها في كافيتيريا مدرسة ميرموز الثانوية منتظراً دوره في صفّ الأساتذة، متسائلاً وهو ينظر إلى رقبتها المكشوفة وكتفيها السمراوين الصلبتين والجلد النّاعم الخافق عمّا إذا كان...

قالت له باقتضاب:

- إنّها الجارة.

- آه.

وبما أنّها لم تضف شيئاً، وبما أنّها لم توضح شيئاً، متّخذةً نبرة التهكّم

الحزين التي باتت تلازمها، عن سبب زيارة بولمير، أحسّ أنّ المرأة العجوز قد آزرته بشكلٍ ما، بعدم قولها شيئاً عن اتّصاله، متذرّعةً ربّما بحاجة منزليّة. وشعر بارتياح وبتوتّر وغضبٍ في الوقت نفسه من هذا التّواطؤ مع السيّدة بولمير، من وراء ظهر فانتا.

وكانت ردّة فعله أن أحسّ بشفقةٍ عميقةٍ حيال فانتا. أفَلَم يكن الذنب ذنبه؟ ألم يكن هو السبب في أنّ فانتا الطّموح ذات العرقوبين المجنّحين لم تعد تطير فوق الوحل المحمرّ لشوارع كولوبان؟ صحيح أنّ ألف عائقٍ عائليّ كان لا يزال يعترض طموحاتها آنذاك ويلجمها، ولكنّها كانت تتقدّم بالرّغم من كلّ شيء باتّجاه المدرسة الثانوية حيث كانت أستاذة أدب فحسب؛ ألم يكن هو السبب، بوجهه العاشق الذي لوّحته الشمس، وشعره الأشقر الشّاحب الذي كانت خصلة منه تسقط على الجبين دوماً، وكلماته المعسولة الجديّة النبرة، ووعوده بحياة مريحة، ومثقّفة، وجذّابة، وراقية على جميع الأصعدة، ألم يكن هو السبب في أنّها تركت الحيّ والمدينة والبلد (الأحمر، الجافّ، الحارق) لتُلفي نفسها دون عمل (وكان عليه أن يعرف أنّه لن يُسمَح لها هنا بتدريس الأدب، كان عليه أن يستعلم عن الأمر ويعرف فحواه ويستنتج التبعات المترتّبة عنه) لتقيم في عمق أعماق ريف ساكن، مجرجرةً عرقوبيها المتثاقلين في منزل أفضل بقليل من ذاك الذي تركته، متمنّعةً عن أن تجود عليه بفكرة أو نظرة أو بادرة اهتمام (كان قد رآها تكنّس طويلاً وبصبرٍ الغرفتين في الشقة المهلهلة ذات الجدران الخضراء الفاتحة التي كانت تتقاسمها في كولوبان مع خالٍ وخالة وأقرباء كثر، تكنّسها طويلاً طويلاً وبصبرٍ لا يكلّ!) ألم يكن هذا بسببه هو رودي ديسكا، ألم يكن ذنبه إن كانت تبدو ضائعة أو محاصرة في ضبابة حلم أبديّ،

مكتبة

حلمٍ رتيب متجمّد؟

هو، بوجهه الذي سفعته الشّمس، وقوّة الحبّ الرّهيبة في الإقناع، وتصرّفاته المرهفة، وبريق شقرتة الغريب هناك والالتماع المميّز لـ...

سأل أخيراً:

- ألا تريدين أن تعرفي سبب اتّصالي بك؟

وقالت بعد صمتٍ:

- ليس بشكلٍ خاصّ.

ولم يعد صوتها منطبعاً بذلك التهاون الكليّ السّئم الذي ألهب قديماً مشاعرَ رودي، بل بخلاف ذلك بات متصلّباً، مضبوطاً، مكتمل الرنّة في تحكّمه باللّكنة الفرنسيّة.

- كنت أودّ أن تذكّريني بسبب تشاجرنا هذا الصّباح. اسمعي، لم أعد أعرف كيف بدأ كلّ هذا...

الالتماع المميّز لـ... عاد يتذكّر في الصّمت الذي أعقب كلامه، الصمت اللاهث قليلاً، وكأنّه كان يُهاتف بلداً بعيداً جدّاً حيث الاتّصالات وجيزة ويستلزم وصول كلماته كلّ هذه الثواني البطيئة، لكنّه لم يكن إلّا النَّفَس القلق لفانتا وهي تفكّر بالطّريقة الأفضل لكي تجيبه محافظةً بذلك على مصالح مستقبليّة لم يكن يعرف أيّها ولم يكن يجرؤ على تخيّلها (وعندئذٍ تصاعدت فقاعة غضب توّاً إلى رأسه، فأيّ مستقبل يمكنها أن تتصوّر من دونه؟) أجل، كان يتذكّر وهو يهيم بنظره على الدّوالي المخضوضرة بحبّات الحصرم الصّغيرة، والسّنديانات الغضّة في البعيد التي شذّبها مالكو القصر، أولئك الأميركيّون أو الأستراليّون الذين كانوا يفتنون والدته ويزعجونها في آنٍ لأنّها كانت تؤكّد أنّ الكروم يجب أن تبقى بين أيدي الفرنسيّين،

شذّبوها بقسوةٍ جعلت الأشجار تبدو وكأنّها مهانة ومعاقبة لتجرّئها على إنماء أوراقها اللامعة المتراصّة الدّائمة الخضرة حاجبةً في جزء منها الأحجار الرّماديّة آنذاك، والذهبيّة النضرة اليوم، للبيت الضخم الذي كانوا يدْعونه باحترام هنا: «القصر». أجل كان يتذكّر الالتماع الخاصّ هناك لشُقرته بالذات، لنضارته بالذات...

قالت فانتا بصوتها الخفيض البارد:

- لا أعرف.

لكنّه كان مقتنعاً بأنّها لم تكن تجيبه إلّا بالطّريقة الأقلّ إحراجاً لها وما هو كفيل بأن يورّطها بأقلّ قدرٍ ممكن حياله، ولو كان تبادلاً بسيطاً للكلمات، وهذا غدا المعيار الوحيد لصراحتها.

وفي الواقع، إذا كان يريد أن يكون صادقاً مع نفسه، ولكن هل كان يريد ذلك حقّاً؟، هكذا كان يفكّر وعيناه تسرحان إلى منظر القصر البعيد المغمور بنور الشمس، الذي كان يتخيّله أكثر ممّا يراه، والذي كان يعرفه تمام المعرفة بحيث إنّه يراه دوماً في أحلامه، تلك الأحلام الرتيبة، التي لا دفء فيها، الأحلام الرماديّة التي كانت تراوده بانتظام، وترافقها تلك الدقّة في التّفاصيل التي لا يملك ذكرى عنها ولكنّه سمعها ربّما فقط من فم والدته التي حلّت فيه ليوم أو يومين محلّ الخادمة المياومة للمالكين القدامى (محلّ الخادمة، لأنّها كانت تفعل كلّ شيء، الطّعام والخدمة والكناسة وكيّ الملابس)، متظاهرة باحتقارِ كلّ ما كانت تصفه (الغرف التي لا تحصى والتي لم تعد تُستعمل والمفروشة كلّها، أواني الطّعام النفيسة، والفضّيّات)، وتلك عادة مزعجة وسخيفة درجت عليها الأمّ فيما كانت عيناها الصّغيرتان، بأجفانهما المتهدّلة، عيناها الصّغيرتان الفاتحتان

مكتبة

الورديّتان الملتمعتان بشغف ملجوم -وعيناه الفاتحتان أيضاً المرفوعتان من جديد صوب تخوم القصر، وكأنّه من هناك، من الأعالي، من ذلك المنزل الضخم الرّتيب الذي لا دفء فيه والذي لم يعد رمادياً بل....، كان يُفترَض بجواب باهر حاسم أن يأتيه. ولكن ماذا كان يتوجّب عليه أن يعرف سوى أنَّ هذه المِلْكية لن تكون له أبداً، ولن تكون أبداً لفانتا ولا لجبريل، إن كان يريد أن يكون صادقاً مع نفسه...

قال:

- على فكرة ما رأيك لو ذهبت هذا المساء لآتي بجبريل من المدرسة؟

- كما تشاء.

قالتها وهي تتعمّد أن تبزغ في صوتها المحايد والبارد نبرة قلقٍ أثار غضبه في الحال.

- من زمنٍ طويل لم أذهب لاصطحابه، أليس كذلك؟ سيكون مسروراً لتجنيبه الباص لمرّة واحدة.

- آه لا أعرف (كان صوتها حذراً مشدوداً بمزيج من الخشية والمكر). كما تشاء، لا تتأخر وإلّا فسيكون قد صعد إلى الباص عند وصولك.

- بالطّبع، بالطّبع...

لو كان صادقاً مع نفسه، أو لو كان يرغب على الأقلّ في أن يكون كذلك، فعليه الاعتراف بأنّه لم يكن ليؤمن بصدق فانتا مع أنّه أحسّ فجأةً في نغمة صوتها بالنبرة الصّادقة الصريحة لماضي الزّمان، نبرة المرأة الشّابة ذات الخطى المجنّحة والطّموحات الجيّاشة الواضحة، والتي قادها عزمها الذكيّ من البسطة الصّغيرة لمغلّفات الفستق التي كانت تعرضها كلّ يوم وهي فتاة صغيرة في أحد شوارع كولوبان، إلى قاعات الصّفوف في مدرسة

ميرموز الثانويّة حيث كانت تدرّس الأدب وتعدّ أولاد الدبلوماسيّين ومتعهّدي المشاريع الأثرياء لامتحانات البكالوريا. وهذه المرأة الطّويلة القامة المستقيمة ذات الشّعر بقصّته الصبيانيّة الذي يغطّي فقط قحفَ رأسها المقوّس، هي نفسها التي نظرت إليه بإصرارٍ مفعم بالحريّة والجرأة حين لامس يومذاك بطرف إصبعه جلد ظهرها الناعم الخافق، ممتثلاً لرغبة لم يعهدها لديه سابقاً، ولا حتّى خطرت له من قبل...

قال متنهّداً:

- فانتا، هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟

قالت بحذرٍ تلقائيّ:

- نعم.

وكان ذلك غير صحيح، كان يعرف ذلك ويحسّ به.

لم يعد بإمكانه أن يصدّق أيّ شيء ممّا كانت تقوله. ومع ذلك كان يعاند في طرح أسئلة تتطلّب في نظره إجابات صريحة، أسئلة ذات نسق حميم أو حتّى عاطفيّ، وكأنّ التّكرار المعاند لهذه الأسئلة يمكنه يوماً أن يخفّف من حذر فانتا، وحرصها الشديد على عدم البوح بأيّ شيء.

قال فجأةً:

- سأصطحب جبريل لينام عند أمّي.

قالت: «آه! لا تفعل»، مطلقةً تنهيدة أشبه بشهقة أشعرته بانقباضٍ أليم في قلبه، لأنّه، هو رودي، كان مسؤولاً عن هذا الحزن، ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل؟

هل يتوجّب عليه أن يحرم أمّه من طفله الوحيد بحجّة أنّ فانتا تأبى الافتراق عن الطّفل؟

مكتبة

ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل؟

- منذ زمن طويل لم تحظَ برفقته ولو قليلاً.

قالها بنبرةٍ مطمْئنة لطيفة بدا له صداها زائفاً إلى حدّ أنّه أبعد السمّاعة منزعجاً عن أذنه وكأنّ أحداً آخر يتكلّم بدلاً منه، وكان مخزياً لهذا الآخر إخفاقه في إخفاء خبثه.

فقالت فانتا:

- إنّها لا تحبّ جبريل.

- لِمَ تقولين ذلك؟ أنتِ مخطئة، هي تعبده.

كان يتحدّث بصوتٍ عالٍ وفرِحٍ مع أنّه شعر بأنّه لم يكن لا قويّاً ولا فرِحاً، وأنّه لم يكن لا نضراً ولا مزهوّاً لدى الخروج من هذا الحلم الكئيب الجارح المحزن (ولكن الذي لا يخلو، ويا للغرابة، من أملٍ طفيف) الذي بات شبيهاً به كلُّ حوار يجريه مع فانتا.

فيما مضى، كانت الظلال الرنّانة، والهادرة لأحاديثهما المرحة تطوف الأمكنة حولهما.

كان يقول في نفسه، ورأسه ملتهب وشعره ملتصق بجبينه بسبب حرارة حجرة الهاتف، إنّه كان يشعر أنّ باستطاعته أن يسمع صرخاتهما الغامضة، وكان ذلك يُشعره بحنين أشبه بسماعه صدفةً تسجيلاً لأصوات الأصدقاء الموتى، الأصدقاء القدامى اللّطفاء الأحبّاء.

آه يا إله أمّي، أيّها الأب الطيّب الصّغير، يا من صنعْتَ الكثير من أجلها على حدّ زعمها هيَ، اجعلْ فانتا...

لكنّه إذا لم يكن قد أعار يوماً إلّا انتباهاً شارداً جدّاً لاندفاعات تقوى أمّه، محيّياً قناعاتها، وإشارات الصّليب التي ترسمها متأنّية، وتمتمات

أدعيتها، بشبه ابتسامة، جامدة وساخرة وحانقة، فإنّه حفظَ رغماً عنه تقريباً، لكثرة ما سمع هذه الكلمات، أنّ الامتثال النزيه هو الشرط الأساسيّ، إن لم يكن الكافي، لبلوغ الصلاة مرامها.

أين كانت النزاهة إذن في ما كان يلتمسه؟

يا إله أمّي الصّغير الطيّب، أيّها الأب العطوف، أتوسّل إليك...

أين كانت إذن نزاهته ما دام يعرف (أو أنّ رودي آخر داخله كان يعرف، شخصاً أكثر فتوّة وصرامة، أكثر توجّساً، شخصاً لم تفسده بعد خيبات الأمل وسوء الفهم والشفقة وضرورة أن يرمّق لنفسه الأسباب الوجيهة والذّرائع السخيفة) أين كانت حقيقة روحه، ما دام يعرف أنّه لم يكن همّه والدته حين أعلن أنّه سيعهد لها بجبريل ليلاً، ولم يكن يهتمّ إطلاقاً بإرضائها أو إسعادها بل يسعى فقط إلى تطمين باله لأنّه بهذه الطريقة يمنع فانتا من....

لأنّها ليست هي أبداً من سيهرب تاركاً وراءه الطّفل، أليس كذلك؛ أو ماذا لو كانت كذلك؟

لا يستطيع أن يحكم على الأمر إلّا من خلال ما فعلتْه سابقاً، ولكن إذا كانت في المرّة الأولى قد اصطحبت جبريل معها فهل لأنّ مانيل طلب منها فعل ذلك؟

ولكن لماذا يريد مانيل أن يلزم نفسه بالطّفل ما دامت الفرصة متاحة أمام فانتا لأن تعهد به لأبيه؟

لا، لا، لن ترحل من دون جبريل، على أيّة حال كان الطّفل يخاف من رودي، ورودي أيضاً، بمعنى ما، كان يخاف من الطّفل، لأنّ الطّفل، طفله بالذّات، لم يكن يحبّه، حتّى لو كان في قلبه الفتيّ يجهل ذلك، ولم يكن يحبّ

مكتبة

منزله، منزل أبيه...

كانت موجة جديدة من الغضب تعتمل في داخله، متأهّبة لالتهام عقله، وكان يودّ أن يصرخ في السمّاعة قائلاً: لن أسامحكِ أبداً على ما فعلتِه بي.

كان باستطاعته أن يصرخ أيضاً قائلاً: أحبكِ جدّاً، لا أحبّ إلّاكِ في هذه الحياة، وكلّ شيء عليه أن يعود كما كان في السّابق.

قال:

- حسناً، إلى اللقاء في المساء.

وأقفل السمّاعة، منهكاً، محبطاً، وكان رأسه يدور كما لو أنّه يخرج من حلم طويل كئيب، جارح، وكان يتوجّب عليه أن يكيّف وعيه مع الواقع المجاور، واقع كان هو نفسه أحياناً بالنسبة له، مجرّد حلم لا ينتهي، جامد وبارد، وكان يبدو له أنّه ينتقل من حلم لآخر دون أنّ يجد أبداً مخرجاً ليستفيق منه لبلوغ اليقظة التي كان يتصورّها ببساطة تحكّماً وتنظيماً واضحاً للعناصر المبعثرة لوجوده.

خرج من الحجرة.

كانت شمس الصّباح قد بلغت أوج حرارتها.

نظر بصورةٍ آليّة إلى ساعته وأيقن أنّه سيتأخّر عن عمله أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

فكّر: وما همّ!، منزعجاً مع ذلك لشعوره بقلق طفيف إزاء فكرة أن يجد نفسه مواجهةً مع مانيل.

لو لم يكن مانيل يشعر حياله هو، رودي ديسكا، بأيّ شيءٍ من التعاطف، لو أنّه كان يشعر فقط بالغضب ونفاد الصّبر، لكان كلّ شيءٍ أسهل.

ألم يكن يجدر به هو رودي أن يكره مانيل؟

ألم يكن مؤسفاً ومخجلاً أنّ ما كان يراه في عيني ربّ عمله من محبّة ورأفة، وأيضاً، ورغم كلّ شيء، وبطريقةٍ تكاد لا تُلمح، من ادّعاء، منعه من أن يشعر بالحقد الذي كان رجل سويّ سَيبيّته في قلبه حيال ذاك الذي...

كان يهزّ رأسه بخفّة وهو لا يزال حتّى تلك الساعة منذهلاً مع أنّ القصّة كلّها تعود إلى سنتين. أوَ ما كان عليه أن يشعر بالضغينة الثأريّة التي قد يحملها رجل سويّ في سريرة قلبه؟ آه، لكنّه كان يعرف أنّه لم يكن هناك، عند مانيل، يرتقب بصبرٍ اللحظة المؤاتية، أو يتحيّن الفرصة لينهال أخيراً على مانيل بذراعٍ منتقمة، وكان مانيل يعرف تماماً ذلك من جهته، ولم يكن يخشى رودي البتّة ولم يخشه يوماً.

هل كان هذا ما هو عليه الأمر؟ تساءل رودي.

هل كان ذلك مبعثاً على الإعجاب أم الذمّ، كيف بالإمكان معرفة ذلك؟

كان يهزّ رأسه بخفّة، حائراً، في الحرارة المستعرة، في الهواء الجامد، العطر.

كان يخيّل إليه أنّه يشمّ رائحة السنديانات الخضر في البعيد.

لم تكن تلك بالطبع إلّا ذكرى الرائحة القارصة للأوراق الصّغيرة الحريريّة. ومع ذلك كان يعتقد أنّ بإمكانه شمّها إذا ما تنشّق الهواء برهافة، وكان يشعر بارتياحٍ وسعادة وهو يتخيّل نفسه هناك في القصر، فاتحاً شبابيكه على صباحٍ نقيّ، ومتنسّماً رائحة سنديانات الخضر، الرائحة القارصة للأوراق الصّغيرة الحريريّة التي ستكون كلّ ورقة فيها ملْكه، هو

مكتبة

رودي ديسكا -لكنّه لن يجتزّ أبداً تلك الأشجار القديمة التعيسة كما تجرّأ وفعل هؤلاء الأميركيّون أو هؤلاء الأستراليّون الذين دفعهم غرورهم، بحسب أمّه، إلى أن يتماهوا والفرنسيّين حتّى أنّهم ظنّوا أنفسهم قادرين على إنتاج النّبيذ الفاخر عينه الذي ينتجه...

التفكير في أمّه، ووجهها الأبيض بتعابيره المريرة، أخمد رغبته.

أغرته فكرة أن يعود إلى حجرة الهاتف وأن يخابر فانتا من جديد، ليس ليتأكّد من أنّها فعلاً في البيت (مع أنّ ذلك أشعره فجأةً بقلقٍ وانزعاج في آن) ولكن ليعِدها بأنّ الأمور كلّها سوف تستوي من جديد.

هناك في الحرارة المفعمة برائحة السنديانات الخضر، كان الحبّ والاشفاق يشعلان الحماس في قلبه.

هل الأمور كلّها سوف تستوي من جديد؟

وهل بالركون إلى هذا المشهد الذي رأى فيه نفسه يفتح شبابيك غرفتهما في الطّابق الأوّل للقصر؟

ما همّ!، كان يريد أن يكلّمها، وأن يبعث فيها هذه الثقة التي شعر بأنّها تملأ كيانه في هذه اللحظة. لكأنّه، ولمرّة واحدة، كان واقع الوجود يتماهى بالتحديد مع أحلامه، أو يكاد.

تراجع خطوة إلى الخلف باتّجاه حجرة الهاتف.

إنّ فكرة الجلوس أمام المقود في سيّارته النيفادا مع رائحة النتانة الغامضة المنبعثة منها (كان يبدو له أحياناً أنّ المالك الأسبق للسيارة قد استعملها كمأوى لكلبه وأنّ حفنة من شعره علقت بلبّاد المقاعد) كانت تحزنه.

ومع ذلك تخلّى عن فكرة معاودة الاتّصال بفانتا.

لم يعد لديه الوقت، أليس كذلك؟

ماذا لو أنّها لم تردّ على اتّصاله ثانيةً، فما الأفكار التي يمكنها أن تخطر له وإلى أين ستأخذه؟

لكنّها لن تهرب من المنزل دون أن تأخذ معها جبريل، والطّفل كان بعيداً عنها في هذه اللحظة، أليس ذلك صحيحاً؟

وكره نفسه لأنّه يحتسب الأمور على هذه الشاكلة.

كانت تراوده الرغبة في أن يُدافع عن فانتا ضدّ نفسه وضدّ حساباته اللئيمة.

آه ما الذي باستطاعته أن يفعل ما دام يحبّها؟

ماذا بإمكاني أن أفعل غير ذلك يا إلهي، يا أبتي الصغير الرحيم، يا إله أمّي الطيّب الرحيم؟

كان مقتنعاً بأنّ البنية الهشّة، لا بل الفائقة الهشاشة والمضعضعة لوجوده لم تكن تقوى على الصمود قليلاً إلّا لأنّ فانتا، ورغماً عنها، كانت هنا في حياته، وأنّها كانت هنا كدجاجة قُصّت أجنحتها فباتت غير قادرة على اجتياز أصغر سياج، أكثر منها تلك المرأة المستقلّة والشجاعة التي التقى بها في مدرسة ميرموز الثانوية، وكان رودي يحتمل التفكير في ما آل إليه الوضع بخجل كبير ومشقّة كبيرةٍ، فقط لأنّ هذا الوضع المحزن كان مؤقّتاً في نظره.

أكان السّبب فقط قلّة المال -أم أنّه لم يكن كذلك؟

لأيّ حدٍّ كانت الألف يورو التي يتقاضاها كأجر تجعله أقلّ جاذبيّة من واحدٍ مثل مانيل؟

بالطبع، بالطبع (وحيداً تحت شمس السّاعة العاشرة، بالقرب من غطاء

مكتبة

محرّك سيّارته الذي ارتفعت حرارته كثيراً، كان يهزّ كتفيه فاقداً الصّبر) إلى حدّ كبير ولا شكّ، ولكن كان ينقصه خصوصاً الإيمان بمواهبه بالذّات، بحظّه، بدوام شبابه، الذي كان يجعل فيما مضى زرقة عينيه الفاتحتين كزرقة عيني أمّه متموّجةً، والذي كان يجعله يرفع، بحركة متباطئة من يده، رقيقة ولا مبالية في آنٍ، خصلة الشّعر الشّاحبة فوق جبينه، والذي...

أي كلّ ما كان قد فقده، مع أنّه لم يكن مسنّاً بعد، لا بل إنّه كان لا يزال، بحسب المعايير المعاصرة، شابّاً، كلّ ما فقده منذ عودته إلى فرنسا والذي لا بدّ أنّه لعب الدّور الأساسيّ في الحبّ الذي كنّته له فانتا.

كان يتمنّى لو يستطيع فقط الخروج من هذا الحلم القاسي والمحزن، الأليم والمهين، ويستعيد، شرط أن ينتقل أيضاً من حلم إلى آخر، ذاك الحلم حيث كان هو وفانتا يسبحان في بريق ذهبيّ ويسيران معاً في شوارع كولوبان وذراعاهما العاريتان تتلامسان عند كلّ خطوة، هو رودي الطويل القامة الذي لفحته الشّمس، متحدّثاً بصوته القويّ الفرح، محاولاً منذ ذلك الحين، مع أنّه كان أرعن، أن يوقع فانتا في شباك كلماته الحنون، السّاحرة، المتغزّلة بمحاسنها هي المرأة الشّابّة ذات الرأس الصّغير الحليق، والنظرة الصادقة والساخرة بتحفّظ، التي استطاعت الدخول إلى مدرسة ميرموز الثانوية لتعلّم الأدب الفرنسيّ لأولاد المتعهّدين الأثرياء، والسياسيّين أو العسكريّين ذوي الرتب العالية، وكان رودي يفكّر وهو يخطب متشدّقاً بصوته القويّ الفرح أنّ أولئك المراهقين لم تكن لديهم أيّ فكرة عن العزم الرّهيب الذي توجّب على فانتا أن تتحلّى به لتكون أمامهم، هذه المرأة ذات العرقوبين المجنّحين، والجلد الناعم الخافق عند صدغها. لم تكن لديهم أيّ فكرة عن الوقت والانتباه اللذين أولتهما للعناية بتنّورتيها الوحيدتين

القطنيّتين، إحداهما زهريّة، والأخرى بيضاء، المكويّتين دوماً بإتقان فائق، واللّتين كانت ترتديهما مع قميصٍ يظهر من شريطيه الرّفيعين الجلد النّاعم لظهرها، الخافق وكأنّ جناحين صغيرين...

هو، رودي ديسكا، كان فعلاً ذاك الرّجل الرّشيق والسّاحر، والمتحدّث اللّبق الذي انتهى الأمر بفانتا إلى اصطحابه إلى بيتها، إلى هذه الشقّة ذات الجدران الخضراء حيث كان يسكن الكثير من النّاس.

كان يتذكّر كيف شعر بغصّة في حلقه عندما دخل إلى الغرفة المغمورة بضوءٍ بحريّ، مكتنفٍ بشؤم غامض.

اجتاز وهو يسير خلفها درجاً من الاسمنت وسلك رواقاً يطلّ على أبواب مقشور دهانها.

فتحت فانتا آخر باب، وبدا النّور الباهت الزيتونيّ اللّون الذي تزيده حدّة ستائر النوافذ المعدنيّة المضلّعة، وكأنّه يلتهمها.

لم يرَ سوى البقعة البيضاء لتنّورتها حين دخلت إلى الغرفة قبل أن تعود أدراجها وتتوسّل إليه بالدّخول، بعد أن تحقّقت، كما افترض رودي، أنّ بإمكانها أن تريه الشقّة.

وتقدّم، ليس من دون خجل أو بعض الانزعاج، لكنّ الشعور بالامتنان بوجهٍ أخصّ كان يُخرسه فجأةً.

لأنّ نظرة فانتا الكئيبة كانت تقول له بهدوء في الظلّ: هنا أسكن، هنا بيتي.

كانت تتقبّل هذه النّظرة، أيْ حكم رجلٍ غريبٍ ذي جبين أبيض (ماذا كان يهمّ اسمراره آنذاك!) مزيّنٍ بخصلة شقراء، وله يدان بيضاوان ناعمتان، على بيتها النّظيف والمتواضع للغاية -كانت تتقبّلها مرتضيةً

مكتبة

مسبقاً التبعات الممكنة، ومشاعر الاستياء المحتملة أو المراعاة.

كم كانت هذه المرأة واعية لكلّ شيء، ثاقبة النظر، مرهفة، حادّة الذكاء، ومع ذلك كم كانت مكابرة وغير آبهة إطلاقاً بأن يحكم رجل أبيض الجبين ناصعه وأبيض اليدين ناعمهما، على منزلها أو عليها، كان رودي يستطيع أن يشعر بذلك، وأن يسمعه تقريباً.

لا شكّ أنّها كانت تعتبره رجلاً ثريّاً، مدلّلاً نظراً لشقرته وكلماته المعسولة.

ولكنّها جعلته يأتي إلى بيتها هناك، وها إنّها بحركة وكلمات قليلة كانت تعرّفه على العمّ والخالة وإحدى الجارات وأناس آخرين كان الضّوء البحيريّ الخفيف يكشفهم لرودي تدريجيّاً في عمق الغرفة، وكان كلّ واحدٍ منهم جالساً على كرسيّ أو في كنبة من المخمل البالي، جامداً، ساكناً، يحيّي رودي بهزّة غامضة من رأسه، وأحسّ بأنّه دخيل ومتطفّل بيديه الكبيرتين اللتين احتار ماذا يفعل بهما، واللتين كان شحوبهما مشعشعاً كما كان مشعشعاً في الجلاء والعتمة جبينُه الأبيض تعلوه خصلته الطويلة الشقراء الملساء.

كان يودّ لو ارتمى عند قدمي فانتا، وأقسم لها أنّه لم يكن الرجل الذي كان يبدو أنّه عليه -ذاك النوع من الأشخاص الذين لوّحتهم الشّمس، الواثقين من أنفسهم والذين يذهبون في نهاية الأسبوع إلى دارتهم في السّومون[1]

كان يتحرّق شوقاً لأن يضمّ بين ذراعيه ركبتي فانتا الناعمتين، وأن يشكرها، ويقول لها كلّ الحبّ الذي كان يعتمل في داخله لأنّها سمحت

(1) السومون: محلّة تقع على السّاحل السنغالي، على مسافة 77 كلم جنوبيّ داكار.

له برؤية تلك الغرفة المتواضعة وأولئك الناس الصامتين أمامه الذين لم يكونوا يبتسمون له ولا يتظاهرون بأنّهم سعداء بالتّعرّف إليه، وكذلك تلك الحياة الشاقّة والمقتصدة التي كانت تعيشها والتي لم يكن أحد، على الأرجح، في مدرسة ميرموز الثانوية حيث كانت تصل دوماً بخطاها الأثيريّة، مرتديةً تنّورتها البيضاء أو تلك الزهرية المنشّاة النظيفة، يعرف عنها شيئاً وخصوصاً، وأكثر من أيٍّ كان، أولاد الدبلوماسيّين، أو المتعهّدين، الذين كانوا يذهبون في عطلات الأسبوع لممارسة رياضة التزلّج المائيّ في السومون، أي كلّ هذا الخليط من الناس الذين كان يمقتهم حتّى إذا كان يشعر في سرّه أنّه يحسدهم، كان يتحرّق شوقاً ليقول لها ذلك.

أجل، كانوا يجهلون بالطبع كلّ شيء عنها وعن هذه الغرفة الخضراء الضاربة إلى الرمادي ببريقها السّماويّ.

كان نور الظّهيرة، الذي يخترق سواتر النوافذ عنوة، ينهمر على وجه الخالة، واليدين المتصالبتين للخال اللتين بدتا وكأنّهما تنتظران رحيل رودي لكي تعاودا سير نشاطهما العاديّ.

وكان رودي يرى ذلك كلّه ولا يعرف كيف يشكر فانتا على استقباله في بيتها.

اكتفى، وكان تصرّفاً أبله في نظره، بحني جذعه لكلّ من الأشخاص الموجودين وهو يمطّ شفتيه بابتسامة صغيرة مرتعشة خرقاء.

كان يفكّر آنذاك، في نوعٍ من الدّهشة المفتونة: أُحبّها، أُحبّها حبّاً لا حدّ له.

فتح باب سيّارته واندسّ في داخلها حابساً أنفاسه. كان الجوّ فيها أكثر

مكتبة

حرارة وأكثر اختناقاً ممّا في حجرة الهاتف.

هل كان محقّاً في عدم اتّصاله بفانتا من جديد؟

ولكن ماذا لو حاولت، من شدّة حزنها حيال قراره بأن يصطحب جبريل لقضاء اللّيلة عند أمّه، ليس أن ترحل، بل أن....

لا، لم يكن يحتمل حتّى أن يصوغ في فكره مثل هذه الكلمة.

يا إله أمّي الوديع الرحوم، يا أبتي الكريم، ساعدني لأكون على بصيرة من أمري.

ساعدنا يا أيّها الإله الرّحوم.

أكان يستطيع، ولو لدقيقة، أن يتّصل بها، ألم يكن هذا ما كانت تنتظره منه ربّما في هذه اللحظة؟

لكنّ صوتاً خافتاً كان يُسرّ له متهكّماً: لا بل إنّها بالأحرى تتمنّى ألّا تسمع نبرة صوتك حتّى هذا المساء، فهي تدرك في الواقع أنّك تشعر بالذّنب محاولاً بشكل أو بآخر أن تصلح موقفك فيما كنت تريد تحديداً أن تنتهي من تلك العادة السيّئة التي تدفعك إلى أن تلقي على كاهلك بالمسؤوليّة الكاملة لكلّ شجاراتكما، لأنّك لو فعلت فهذا لن يزيد من قدرك في نظرها،لا بل ربّما نفرت منك قليلاً لأنّك تراخيتَ بعدما كنت مهيباً، وسعيت لطلب الصّفح والمواساة قربها بعد أن أهنتها، وهل هذا يُعقل، بأن قلت لها أن تعود من حيث جاءت، فهل هذا يُعقل فعلاً.

كان يُشغّل سيّارته وهو يهزّ رأسه علامة على النفي.

ليس بإمكانه، هو رودي ديسكا، أن ينطق بمثل هذه الجملة.

هذا لا يُعقل.

لم يستطع احتباس ضحكة صغيرة مريرة.

مهلاً، مهلاً! أوَ كان يقصد بقوله إنّها تستطيع العودة إلى عند مانيل؟

أخذ العرق يتصبّب منه غزيراً.

وينهمر على المقود، وعلى فخذيه.

أراد أن يضع معالِج السّرعة على النقلة الأولى، ولكنّ الأمر مستحيل، كانت عتلة السرعة تعترضه.

توقّف.

الصّمت الذي اخترقه هنيهةً هدير النيفادا اللّامجدي، عاد فغمره فرأى نفسه عنصراً ضروريّاً، مؤكّداً ومكتملاً من بعض المشهد.

لم يكن يعكّر صفو شيء أو أحدٍ، وليس لأحدٍ من تأثير عليه.

أسند رأسه إلى ظهر المقعد.

مع أنّه كان لا يزال سابحاً في عرقه إلّا أنّ الهدوء عاد إلى قلبه.

ولكنّه كان يتوجّب عليه التّسليم فعلاً بأنّ مانيل كان، نظراً لطبعه الرّيفيّ المتكتّم بالأحرى، متعهّداً مزدهراً، وأنّه إذا لم يكن قد مارس قطّ التزلّج المائيّ ولا اقتنى أيّ منزل إلّا الدّارة الضخمة التي بناها لنفسه خلف مباني المؤسّسة، فإنّ ثقته الرّجوليّة والخفرة على أناقة وتحفّظ، ذاك اللطف الخاصّ الذي يمتلكه، كمن بإمكانه أن يجيز لنفسه بأن يكون لطيفاً، لأنّه لا شيء يهدّده أو يخيفه، كلّ ذلك كان لا يزال قادراً، من جديد، على اجتذاب امرأة ضائعة، متبطّلة، مجروحة، امرأة تائهة مثل فانتا.

فكّرَ: غريب هذا الشّعور، أو أنّه ربّما بحُكْمِ الحبّ، لا أستطيع أن أسامحها هي، أمّا هو، فكأنّني أتفهّمه.

وأكثر غرابة أيضاً أنّها هي أيضاً، والحقّ يُقال، أتفهّمها، لدرجة أنّني أستطيع أن أتصوّرني، لو كنت امرأة، مستسلماً بغبطة وبساطة لإغواء

مكتبة

مانيل الصريح -آه كم أتفهّمها وكم أحقد عليها!

ومع ذلك فإنّ نوعاً من الذهول المذعور، الهاذي، كان يقطع أنفاسه دون حتّى أن يتنبّه للأمر، حين كان يحاول الاقتراب بفكره من غرفة مانيل، التي تصوّرها، على غرار دارته، فسيحة وتقليديّة، مزيّنة بأشياء عصريّة مألوفة وباهظة الثمن، حين كان يدفع بخفّة باب هذه الغرفة المجهولة ويرى في الضوء الباهر على السّرير العملاق، فانتا ومانيل، مانيل ممدّداً على فانتا، زوجة رودي ديسكا، منتحباً بصوتٍ خافت، فيما يتحرّك حقواه الجبّاران وعَجُزُه عَجُزُ القنطور[1] بإيقاع هادئ وواثق يُحدث في لحمه الأشعر غمّازات صغيرة مستديرة، ووجهه مندسّ في عنق فانتا، زوجة رودي ديسكا بالذّات، الحبّ الحقيقيّ الوحيد في حياة رودي ديسكا كلّها.

أو بالأحرى، ما كان يراه فوق السّرير كان عَجُزَ رجلٍ لا يقلّ قوّةً عن قنطور ورأس فرسٍ يلهث فوق فانتا -فهل عليه أن يقتلَ هذا المسخ، هل عليه أقلّه أن يمقته؟

وما كانت طبيعة مشاعرها، هي، الغامضة والجديدة، التي ربّما لن يعرفها أبداً، تحت وزن جسد مانيل الذي يفوقه ضخامة؟

كان رودي رجلاً رشيقاً نحيلاً، ضيّق الكتفين ولكن قويّ البنية، هكذا كان يحلو له أن يفكّر، أمّا مانيل... كان رودي يهزّ رأسه... لم يكن يريد أن يعرف شيئاً بهذا الخصوص.

كان يهزّ رأسه من جديد، وحيداً، أمام مقود سيّارته المتوقّفة، في السّكون المختلج بالحرّ، كان يشعر أنّه مسلوب، يمزّقه الرّعب نفسه المكتنف بالحيرة، الذي تركه مرتعداً ومنبهراً، قادراً فقط على رسم ابتسامة

(1) نسبة إلى القنطور Centaure *(Kéntauroi* باليونانية)، وهو كائن خرافيّ نصف جسمه رجل ونصفه فرس.

صغيرة مريعة مزدرية عندما نفث فمٌ ما في وجهه، لم يعد يعرف لمن هو (فم بولمير أم تراه فم والدته؟)، في دارٍ كان يزورها، ولم يعد يدري أيّ دار (ألم يكن حينئذٍ عند واحدة من زبائنه[1])، كاشفاً له عن حقيقة العلاقة بين فانتا ومانيل، وهذا النفث المسموم رسمَ على شفتي رودي الابتسامة البلهاء المنعكسة لا يعرف في أيّ مرآةٍ من دارٍ مجهولة كان يقف في وسطها مباعداً ساقيه، كانت عيناه مصوّبتين على تلك المرآة حيث كان يرى نفسه مثيراً للسخرية وغريباً، ولكن كلّ شيء كان أفضل من رؤية ذلك الفم الصّغير الخبيث ذي النّفس الكريه والذي تنطّح لإخراج رودي ديسكا من براءته، من غفلته العاشقة التي هي أفضل من نبرات الغضب الحاقد العاجز (حسناً، لا بدّ أنّها كانت الوالدة لأنّه لا السيّدة بولمير ولا إحدى الزّبائن كانت ستقدر على النظر إلى القضيّة بهذه المرارة)، ذلك الفم الذي كان يأمره بأن يزدري امرأة مماثلة ويسارع إلى طردها.

ماذا كان يقترح عليه ذاك الفم المتعقّل في اشمئزازه (آه كان فم الوالدة فعلاً) سوى أنّه يتوجّب على رجلٍ يملك شيئاً من الإباء ألّا يلج الجسد نفسه حيث لا يزال يهجع مَنْيُ القنطور، وماؤه اللّعين؟

كان عليه أن يجيبه هازئاً، ليس هناك مخاطرة، فمنذ زمن طويل لم أعد أضاجع فانتا أو أنّها لم تعد تضاجعني.

ولكن كان بإمكانه أن يجيب أيضاً في صرخةٍ يائسة: أنتِ يا أمّي، أنتِ من أدخلني عند مانيل، وأنتِ من ذهب للقائه والتوسّل إليه بأن يوظّفني! لولا ذلك لما التقَتْ به أبداً!

---

(1) تفادَينا المفردة العاميّة «زبونة»، لأنّ الفصحى «زبون» إنّما يستوي فيها المذكّر والمؤنّث. ويساعد اسم الإشارة أو النعت المرافق للمفردة في تحديد جنس الشخص المقصود وإزالة كلّ لبس ممكن (المُراجِع).

مكتبة

ولكنه لم يكن يذكر أنّه فتح فمه المبتسم المرتخي، والمكشّر برخاوة.

كان يرى نفسه من جديد محدّقاً في مرآةٍ إلى وجهه الخالي من التعبير ثمّ كان يلمح بالضّبط في الأسفل مؤخّرة جمجمة هذه المرأة الضئيلة التي كانت تواصل كلامها، وتحاول أن تغرقه تحت وابل الشتائم والتحريض الخبيث على استعادة شرفه الرجوليّ. أفلم يفكّر حينئذٍ بأنّ ضربةً واحدة من يده على هذا الرأس ذي الشّعر القصير المصبوغ بالأشقر سوف تخلّصه من هذا العذاب، ألم يتخيّل نفسه منصرفاً ببرودةٍ إلى ضرب أمّه لكي يسكتها صارخاً في وجهها ربّما، قبل أن تفقد وعيها: ويحكِ ماذا تعرفين أنتِ عن الشّرف! وأبي ماذا كان يعرف عنه؟

لكنّه لم يعد يريد التّفكير في كلّ ذلك.

لأنّه كان أمراً مهيناً وغير مجدٍ، وكان يحسّ بنفسه قذراً كما عند الاستيقاظ من حلم يتكّرر، حلم سخيف لا ينتهي إذ تعرف كلّ مراحله الأليمة ولكنّك تعرف أيضاً لدى رؤيته أنّك لن تفلت من أيّ منها.

لم يعد يريد التفكير في كلّ ذلك.

أدار السيّارة مجدّداً وانتقل توّاً إلى معدّل السّرعة الثانية.

اعترض المحرّك متوثّباً، ثمّ ببطءٍ بدأت النيفادا تسير منتفضة وحشرجاتها تتردّد في كلّ هيكلها القديم، ولكنّها، فكّر رودي راضياً، شجاعة بما يكفي.

لن يعود للتّفكير في كلّ ذلك.

أخفض الزجاج، وجعل يقود سيّارته بيدٍ، ووضع ذراعه اليسرى على حافة الشبّاك الساخنة. كان يسمع أحياناً صفائح الإسفلت الذائب تفرقع تحت العجلات.

ما أحبّ هذه الضجّة إليه!

كان يشعر في هذه اللّحظة بأنّ غبطة عذبة ولذيذة تملأ كيانه.

لا، يا إله أمّي الوديع الطيّب، أيّها الآب المتواضع الرحيم، لن يعود للتفكير في الماضي المذلّ بل فقط بأن يظهر جديراً بالحبّ الذي ستكنّه فانتا له من جديد إنْ هو شاء أن يتكبّد عناء ذلك، كان يتحرّق لاستعادة حبّها والسّماء شاهدة عليه، السماء العالية الصافية المستعرة لذاك الصّباح، ولماذا، ولمرّة واحدة، لا يكون الأفضل من نصيب رودي ديسكا، أفضل وأصدق الوعود الكثيرة التي تحتويها سماء ذاك الصّباح في نقائها الربيعيّ؟

وتولّته نوبة من الضّحك.

وسحرته نبرة صوته بالذّات.

فكّر بشيءٍ من الدهشة بأنّه، وبعد كلّ حساب، كان لا يزال حيّاً، وفي مقتبل العمر، وصحّته ممتازة.

وغوكلان نفسه، ذاك الماكر الذي كان يلتفّ في هذه اللحظة حول منحوتته المنفّرة (لقد تسنّت له القوّة اليوم لإشاحة نظره عنها) ذاك الفنان الذي أصبح ثريّاً بطريقة مخجلة، هل بإمكانه أن يقول عن نفسه الشيء ذاته؟

بالطّبع لا.

لا يزال حيّاً يرزق، نعم للأسف، لكنّ الصّورة التي رآها له رودي في الجريدة كانت تُظهر بالأحرى وجهه منتفخاً متغضّناً وجبينه أصلع مطوّقاً بشعرٍ أشيب، وفجوة بالضبط، ويا للغرابة، في أسنانه الأماميّة. وآنئذٍ فكّر رودي، هو يتذكّر ذلك بشيءٍ من الازدراء لنفسه، أنّ رجلاً يتلقّى مبلغ مئة ألف يورو ثمناً لتمثالٍ دميم كان قادراً، قبل مثوله أمام المصوّر، على أن

مكتبة

يجود على نفسه بطاقم أسنان.

لم يكن للطريقة التي بها كان كوغولان ذاك حيّاً صلة بحيويّته الجميلة، هو، رودي، التي كان يشعر بها خافقة في كلّ واحدة من عضلاته وكأنّه كان حصاناً (أو قنطوراً)، أو حيواناً ضخماً فتيّاً رائعاً ووظيفته مقدّرة بأكملها في وجوده الرّائع نفسه، ولن يعود يعتريه، كما هي الحال مع أيّ حصان (أو قنطور)، أيّ نوع من الأحلام اللّامتناهية التي تخرج منها دبق الفم، ضيّق النَّفَس.

هل كانت الأمّ لا تزال حيّة ترزق؟

بعد أن اجتاز المستديرة، زاد من سرعته بقوّة وعنف، دون قصد منه.

لا حاجة كانت تدعوه للتفكير في أمّه في هذه اللحظة ولا بأبيه الذي كان متوفّىً منذ زمنٍ طويل، والذي لا تخطر للمرء فكرة مقارنته لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ بحصانٍ (أو قنطور) تختلج عضلاته تحت جلده الرطب. وجنتا رودي وعنقه وصدغاه، هذا كلّه كان رطباً داخل السيّارة غير المكيّفة، لكنّه كان يشعر بأن ردّة الفعل هذه لجسده إنّما هي وليدة تذكّرٍ، وإن يكن عابراً وغير ذي بال، لوالده المتوفّى منذ سنوات طويلة؛ كان يشعر بالرّعب والذّهول الذي تثيره فيه دوماً فكرة ذاك الهيكل العظميّ، بعظامه المبيضّة، الذي كان لشخص يُدعى آبيل ديسكا، والجمجمة المثقوبة بإتقان من الجهتين، والعظام الناصعة البياض، هكذا كان رودي يتخيّلها، في تراب القبر الرمليّ الدافئ في «بيلير»[1].

ركن سيّارته في الموقف التابع لمؤسّسة مانيل.

وقبل أن ينزل من السيّارة، مسح وجهه وعنقه بالمنشفة التي كان يحتفظ بها لهذه الغاية على المقعد الخلفيّ والتي تشبّعت آخر الأمر برائحة السيّارة.

(1) حيّ مترامي الأطراف يقع شرقيّ داكار عاصمة السنغال.

كان يقطع على نفسه عهداً في كلّ مرّة بتغيير المنشفة ثمّ ينسى، وكان غضبه يبلغ ذروته عندما كان يمدّ يده إليها ويعثر من جديد على هذه الخرقة النتنة. كان يبدو له أنّها بوساختها تشهد ببساطة على إهماله بالذات، وتجسّد بشكلٍ مبهم كلّ حياته الراهنة وفوضاها القذرة.

ولكن، كما نجح هذا الصّباح في لجم ارتكاسة الغضب هذه وهو يمسح وجهه، أفلح أيضاً في سعيه لأن يدع لنظره أن يقيِّم بأدنى انحيازٍ ممكنٍ مختلف السيّارات المركونة حوله، وليس، كما كان يفعل عادةً بهذا الحسد المرير الأليم الذي كان يعتبره معيباً.

كان يقول عادةً وعلى نسق واحد تقريباً: هاكم إذن السيّارات التي يقودها زملائي والزّبائن، متفحّصاً سيّارات الأودي، والمرسيدس، والبي. أم. دبليو على اختلافها، السّوداء أو الرّماديّة التي كانت تُضفي على موقف مؤسّسة تجهيزات المطابخ هذه القائمة في ضواحي مدينة ريفيّة صغيرة، مظهر فندق فخم.

تُراهم ماذا يفعلون ليَجنوا هذا القدر من المال؟

ما الذي يعرفونه هم فيما أجهل أنا أيّ فكرة عنه: كيف بمقدورهم أن يجنوا من حياة الكدّ هذه التي يحيونها المبالغ الضّروريّة لاقتناء سيّارات مماثلة؟

إلامَ تستند خططهم التي لن تخطر لي على بالٍ أبداً، ومن أيّ نوع حدسهم وحيلتهم؟

وكانت أسئلة أخرى غير مجدية تدور في فكره الناقم فيما كان يغلق بعنفٍ باب النيفادا.

لكنّه عرف هذا الصّباح أن يقاوم الجيشان الرتيب للحسد.

مكتبة

اجتاز الموقف بخطى رشيقة وعادت إليه آنئذٍ الذّكرى السحيقة لشعور مماثل، لحقبة من حياته حيث كان يسير دوماً هكذا، رشيق الخطى ناعم البال؛ أجل، كان يسير دوماً هكذا، وكان الوجه الذي يطلّ به على الوجود هكذا: صافياً ولطيفاً.

بدا له هذا الوجه مغرقاً في البعد بحيث ارتاب قليلاً في أن يكون الأمر متعلّقاً به هو، رودي ديسكا، وليس بأبيه أو بشخصٍ آخر رآه في المنام.

لأيّ عهد ترقى تلك الحقبة؟

فكّر أنّها ترقى إلى عودته إلى داكار، وحيداً، دون والدته التي بقيت في فرنسا، وقبل فترةٍ قصيرة من تعرّفه إلى فانتا.

وفكّر أيضاً، وبارتعاشة مندهشة، لأنّه كان قد نسي تماماً هذا التّفصيل، أنّه بدا له حينئذٍ طبيعيّاً أن يهفو إلى طيبة القلب.

وتمكّثَ فجأةً في الموقف المغمور بالشّمس.

كانت روائح الإسفلت الحارّ تملأ منخريه.

غشي بصره مع أنّه لم يكن شاخصاً إلى الشّمس بل إلى الإسفلت تحت قدميه.

هل كان حقّاً ذاك الرّجل الذي يذرع، خفيفاً ناعم البال الشوارع الهادئة لتلّة داكار[1] حيث استأجر شقّة صغيرة، ولم يكن بالطبع يختلف في هيئته وشقرته والتناسق المحبّب لملامحه مع الرّجال البيض الجبهات الذين كان يلتقي بهم في ذاك الحيّ، لكنّه لم يكن يقاسمهم أيّ شيءٍ من مطامحهم المركنتيليّة ومشاغلهم.

هل يمكن أن يكون حقّاً ذاك الرّجل، رودي ديسكا، الذي كان يطمح

(1) أحد الأحياء الأكثر عصريّة في داكار عاصمة السنغال.

بهدوء وبُعد نظرٍ، إلى أن يكون عادلاً وطيّباً، لا بل أكثر من ذلك (آه كان وجهه يحمرّ اضطراباً وذهولاً) إلى أن يميّز دوماً الخير من الشرّ في داخله، وألّا يؤثِر الشرّ حتّى لو بدا لابساً قناع الخير كما كان شائعاً، هناك، حين يكون المرء رجلاً ذا جبين أبيض، وجيوب ممتلئة نقوداً، ويستطيع لقاءَ مبلغٍ زهيدٍ أن يشتري الجهد من أيّ نوعٍ كان، والصبر والدأب اللذين لا حدّ لهما؟

وأخذ يسير من جديد، بطيئاً، نحو الباب المزدوج الزجاج للمبنى الذي تعلوه الأحرف العملاقة والمضيئة لاسم مانيل.

تصلّبت ساقاه، وكأنّهما حُرِمَتا من حقّهما في الخفّة.

لأنّه كان يتساءل للمرّة الأولى عمّا إذا كان بإقناعه فانتا باللّحاق به إلى فرنسا، لم يتعمّد غضّ الطرف مفسحاً للشرّ بأن يستوطن داخله بتؤدة، وعمّا إذا لم يكن قد استطاب ذاك الشّعور بإساءة التصرّف دون أن يبدو عليه أبداً ذلك.

حتّى اليوم لم يطرح السؤال إلّا بعبارات براغماتية: هل كان اصطحاب فانتا إلى فرنسا فكرة سديدة أم خاطئة؟

كان السّؤال المطروح على هذا النّحو تحايلاً يسلكه الشرّ المستقرّ بارتياحٍ في داخله.

آنذاك، في تلك الحقبة المشرقة من حياته، حين كان يترك كلّ صباح، سليمَ الطويّة، شقّته الصّغيرة العصريّة الطّراز في تلّة داكار، كان لا يزال قادراً على تميّز النوازع الشريرة والأفكار الفاسدة التي كانت تعبر خاطره أحياناً فيطردها من داخله بأفكار معاكسة تعيد إليه سعادته وراحته لأنّ رغبة واحدة كانت تحدوه بعمق، وهي أن يكون قادراً على محبّة كلّ ما

مكتبة

كان يحيط به.

أمّا اليوم، أمّا اليوم، فإنّ اتّساع حقده يصيبه بشيءٍ من الدوار.

إذا كان فعلاً ذاك الرّجل، فما الذي جرى له، وما الذي فعله بنفسه ليسكن الآن جلد شخصٍ فظّ يأكل الحسد قلبه وانكفأت لديه تلك الاستعدادات للحبّ الكونيّ لتنحصر فقط بشخص فانتا وحده؟

أجل، ماذا فعل بنفسه حقّاً لكي يثقل الآن كاهل امرأة بكلّ هذا الحبّ غير المستثمَر، والمرهِق، ويُسئمها شيئاً فشيئاً بعدم كفاءته، في سنّ الأربعين، حيث أخطاء مماثلة (انعدام القدرة على المواظبة في العمل، واعتبار المشاريع الضبابيّة أمراً واقعاً متحقّقاً) لم يعد بإمكانها أن تبعث على التساهل أو التفهّم؟

ليس هذا فقط، فكّر رودي فيما كان يدفع الباب المزدوج الزجاج الذي كان يرى من خلاله بارتياحٍ متخاذلٍ مانيل بقامته الضخمة محاطاً بشخصين، زبونيْن على الأرجح، وكان مانيل يشرح لهما مزايا المطبخ المعروض، لم يسمح فقط دون أيّ مقاومة بدخول الكذب إلى قلبه واستقراره فيه، والفساد أيضاً، ولم يرتضِ فقط القضاء على شجاعته المعنويّة لكنّه احتبس أيضاً، بذريعة الحبّ، فانتا في سجن من الحبّ المشؤوم البارد -لأنّ حبّه اليوم أضحى هكذا، أبديّاً، عسيراً، كحلم نصارع عبثاً لكي نستيقظ منه، حلم مشوب بالذلّ وغير مُجدٍ. ألم تكن فانتا تتلقّى حبّه على هذه الشّاكلة، ألم يكن هذا ما سيشعر به هو نفسه لو كان ضحيّة حبّ مماثل؟

حين أصبح داخل المبنى، مشى بخطى واثقة إلى القاعة التي توجد فيها مكاتب الموظفين مع أنّه لم يستطع منع شفته العليا من الارتجاف.

كان يعرف أنّ هذه الخصلة كانت تمنحه هيئة مقيتة، شبه سقيمة، وكان

الخوف دوماً هو ما يثيرها.

كانت شفته تنحسر إذن مثل مشفرَي كلب.

ومع ذلك كان مانيل أقلّ هومه شأناً؛ أحقّاً؟

كان يراقب بطرف عينه التقدّم البطيء لمانيل وزبونَيه، وقدّر أنّه سيكون قد بلغ المكاتب قبل أن يقاربه الرهط الصغير.

ثمّ قال في نفسه، وهكذا سينسى مانيل أنّه رآه يصل إلى عمله متأخّراً على هذا النحو.

كان يكفي أن يغافله لساعة أو ساعتين وعندئذٍ سيسير كلّ شيء في الطريق القويم.

تسنّى له الوقت ليلاحظ أنّ مانيل، هذا الصّباح، كان يبدو جميلاً في سرواله الجينز الفاتح، ذي القَصّة الأنيقة، والمشدود حول خصره بحزام من الجلد المزيّن بمسامير منمنمة، والـ"تي شيرت" الأسود المكويّ جيّداً.

كان شعره رماديّاً ولكن غزيراً، مرفوعاً إلى الوراء، وكانت بشرته كامدة، ذهبيّة تقريباً.

كان رودي يستطيع أن يسمع النبرة الخافتة الجشّاء قليلاً لصوت مانيل فيما كان يفتح ويغلق باب إحدى الخزائن، وكان واثقاً من أنّ الزّبونَين الناضجَين، بملابسهما القاتمة وسيقانهما السمينة، كانا يتذوّقان، دون أن ينتبها، سحر مانيل الذي كان يبدو محدّقاً إليهما بعينيه القاتمتين، وكأنّه دوماً على وشك أن يفصح عن بعض المعلومات الشخصيّة والمهمّة، أو عن رأي يُثني به على محاوريه، لكنّه كان يحتفظ بأقواله لنفسه فقط تفادياً لإحراجهم.

سبق لرودي أن لاحظ أنّ مانيل لم يكن يعطي أبداً الانطباع بأنّه يسعى ليبيع الزبائن شيئاً ما.

مكتبة

كان يسعى ببساطة واضحة لأن يوحي للزّبون بأنّ العلاقة التي تجمعهما وديّة، حميمة، وأنّها تدوم بعد الشّراء المحتمل للمطبخ، وأنّ المطبخ لم يكن إلّا ذريعة إضافيّة لنشوء هذه الصّداقة. وكان يحدث أن يثبت هذا النهج صدقه وأن يواصل مانيل زيارة بعض الزّبائن لما يحمله ذلك له ولهم من متعة متبادلة، ولم يكن ليتخلّى أثناء حديثه عن ذلك الحماس الخفيّ المكتوم، المرهف، الذي جعله يربح الصفقة، بحيث إنّ النبرة المعتمدة، فكّر رودي، لإقناع الزّبون أصبحت في النّهاية صوت مانيل الحقيقيّ، الصّوت الوحيد الذي صدر عنه أبداً، -تلك الرنّة العذبة، المشوبة ببحّة خفيفة، وهذه الاندفاعة الملجومة، وهذه الحماسة التي تدفعنا للتفكير في أنّه لو لم يسيطر عليها لكانت قادته إلى البوح بالأسرار وإلى المدائح، لا بل إلى العناق.

لم يكن رودي يستطيع الامتناع عن الإعجاب قليلاً بمانيل، وإن كان يكره مهنته.

كيف يُعقل أن يفضّل هو أيضاً مثل مانيل ارتداء بنطال جينز و«تي شيرت»، وينتعل أيضاً حذاءً قماشيّاً لدناً، علماً أنّه يفوقه طولاً ورشاقة وشباباً، وأن يبدو مع ذلك، هو رودي، أشبه بمراهق متصابٍ فاشل، هذا ما لم يكن يستطيع فهمه.

تلك الأناقة المسترخية لمانيل، لن يمتلكها أبداً، ولا يمكنه الأمل بذلك. هذا ما فكّر به وهو يلمح انعكاسه في الباب الثاني المزدوج الزجاج الذي يفصل صالة العرض عن المكاتب.

كان يجد مظهره رخيصاً، ذابلاً، شبيهاً بمنظر إنسان معوز.

من بإمكانه أن يعجب برجلٍ مماثل مهما يكن طيّباً؟

حتّى لو استعاد حبّه للآخرين وللحياة، أين بالإمكان ملاحظة ذلك عليه؟

أين بالإمكان استشفافه؟

كان عليه الاعتراف فعلاً بأنّ مانيل، بالرغم من تعاطيه مهنة التجارة التي جعلته قاسياً وكذلك الحسابات المتواصلة، والتدابير البراغماتية، وبالرغم من الملابس العمليّة الأنيقة وساعات «شوميه »والدارة خلف المخزن، وبالرغم، إجمالاً، من كلّ ما يمكن أن يجعل من مانيل، وهو ابن عمّال زارعيّين، شخصاً حديث النعمة تافهاً آتياً من الرّيف، كانت لا تلبث أمارات اللطف والأدب والقدرة على التعاطف المنبعثة منه بشكلٍ خفيّ أن تتجلّى في نظرته الوديعة المفعمة رقّة.

وعندئذٍ تساءل رودي ديسكا للمرّة الأولى عمّا إذا لم تكن هذه الصفة تحديداً هي التي جذبت فانتا إلى مانيل، وقد فقدَ، هو رودي، منذ زمنٍ بعيد تلك...

دخل إلى المكتب وأغلق الباب خلفه بنعومة.

شعر بنفسه يحمرّ خجلاً.

ومع ذلك كان الأمر على هذا النّحو، مهما تكن الكلمات رنّانة فلا وجود لسواها؛ لقد فقد تلك القدرة على التعاطف.

لم يكن قد فكّر إطلاقاً، حتّى في أوج حزنه وغضبه، بعد أن أعلمته أمّه (هل هذا صحيح؟) بالعلاقة التي تجمع فانتا بمانيل، لا، لم يسبق له أن فكّر إطلاقاً أنّ ثراء مانيل وجبروته والاحترام الذي يوفّره له ذلك هي أشياء أمكنها أن تغري فانتا.

لم يسبق له أن فكّر بذلك.

مكتبة

والآن، آه، نعم، ها إنّه يفهم فحوى المسألة، وكان يفهمها على ضوء ما فقده، لأنّه كان يدرك أخيراً أنّه لم يعد يملك هذه النعمة، فيما كان يتألّم دون أن يعرف السبب.

نعمة التعاطف.

تقدّم إلى طاولته وهوى على الكرسيّ ذي الدّواليب.

حولَه، في القاعة الكبيرة الزجاجيّة، كان جميع الموظفين يجلسون خلف مكاتبهم.

- وأخيراً ها قد أتيت!

- مرحباً رودي.

وأجاب بابتسامة، بإشارة صغيرة من يده.

على طاولته المزدحمة، وبالضبط قرب لوحة مفاتيح الحاسوب، رأى رزمة من الكراريس.

- أمّك هي التي جلبتها منذ قليل.

وصل إليه صوت كاتي من الطاولة المجاورة ودوداً على شيء من الانزعاج، وكان يعرف أنّه إذا أدار رأسه، فسيلتقي نظره بنظرها المتسائل الحائر قليلاً.

ربّما ستسأله بصوتٍ خافت عن سبب وصوله متأخّراً ثلاثة أرباع السّاعة عن موعد عمله، وربّما عن عدم منعه أمّه، بكلّ بساطة، من أن تطأ أرض مؤسّسة مانيل.

وهكذا ردّ عليها بهمهمة لم تكن ترغمه على رفع نظره نحوها.

في الضياء الباهر للغرفة، كان الوهج الورديّ القويّ لقميص كاتي يشعّ على مسافة كبيرة حولها.

كان رودي يلمح انعكاس قميصها على المساحة البيضاء لطاولته بالذّات.

كان يعرف أيضاً أنّه، لو التفت ناحية كاتي، لرأى بوضوحٍ خلف الوجه الصّغير الشّاحب لزميلته، في الناحية الأخرى للواجهة الزجاجيّة، دارة مانيل، وهي بناء ضخم مطليّ بالورديّ الفاتح، سقفه من القرميد على الطريقة البروفانسيّة[1]، وشبابيكه زرقاء، ويفصله عن المؤسّسة مرج صغير، وأنّه لن يستطع الامتناع عن التساؤل، للمرّة الألف بألمٍ غير مجدٍ، عمّا إذا كانت كاتي، وكذلك الآخرون، دومينيك، وفابريس، وناتالي، قد لاحظوا آنذاك روحات فانتا وغدواتها إلى منزل الأحلام هذا، وكم من المرّات دخلت إليه، ولماذا لم يلمحها، هو رودي، قطّ مع أنّه لم يكفّ في تلك المرحلة المرعبة، حين كان يعلم بالأمر دون أن يعيه حقّاً (لأنّه هل كان عليه تصديق كلّ ما تقوله أمّه؟) عن رفع نظره إلى الواجهة الزجاجيّة، ناظراً من فوق رأس كاتي الحزين، المُشفق (هل كان الجميع على علم بمصيبته؟) إلى المدخل المبهرَج للدارة، باب بمصراعين من الحديد المطروق يعلوه قوس.

كم تألّم حينذاك!

كم شعر بالخجل وكم أحسّ بنفسه عنيفاً!

ولّى زمنٌ وبعدت الذّكرى، لكنّه لم يكن يقدر حتّى اليوم التوجّه إلى كاتي دون أن يلقي نظرة إلى دارة مانيلا ويشعر خلسةً بالغضب يغلي في داخله.

وفجأةً شعر برغبةٍ في أن يقول لها بلهجة جافّة مستفزّة: لم يعد لدى أمّي من تعزية في هذه الحياة سوى أن تذهب لتضع في كلّ مكان رزَم كراريسها

(1) نسبة إلى مقاطعة البروفانس في فرنسا.

مكتبة

البلهاء، هذه الإعلانات المصنوعة للحمقى المساكين المتوحّدين والمتبطّلين مثلها، كيف تريدين أن أمنعها من المجيء، ومن ذا الذي ينزعج من مجيئها حقّاً، من؟

ومع ذلك، لم يقل لها شيئاً.

كان يرى الهالة الورديّة، الضاربة إلى الحمرة، المنبعثة من قميصها ويشعر بالغضب، لأنّه لم يكن قادراً على نسيان وجودها.

وبقفا ذراعه، أبعد حزمة الكراريس المربوطة بسلك مطاطيّ.

الملائكة هنا بيننا.

رأى الرّسم الأخرق، المثير للضحك، لملاكٍ في سنّ البلوغ، جالسٍ على الطاولة وسط أفراد عائلة في حالة انخطاف، وعلى شفتي الملاك ترتسم ابتسامة فاسقة، ماكرة.

إنّهم هنا بيننا.

تلك هي ضروب البلاهة التي كانت تجنّب أمّه الغرق في الكآبة وتناول مضادّات الاكتئاب: كانت تنقذها فعلاً.

أن تتجرّأ امرأة تافهة مثل كاتي وتوحي له، مع ما كان يبدو عليها من نيّة في مساعدته، بأن يحرم أمّه من لذّة حمل كراريسها إلى مؤسّسة مانيل، فهذا أمر أثار حفيظته.

ثمّ ماذا كانت تعرف كاتي عن حياة أمّه التعسة؟

سألها بغتة:

- يا أنتِ، قولي لي، هل يريد مانيل أن تمتنع أمّي عن المجيء إلى هنا ثانيةً؟

كان ينظر إليها، منبهراً باللّمعان الغريب لقميصها الورديّ، وكان يبذل جهداً كبيراً ليبقي عينيه شاخصتين إلى وجهها، ولكي يردع رغبتها

الدّائمة في النظر إلى البعيد من فوق رأس كاتي ما تسببّ له بألم شديد في الرأس.

وعندئذٍ بدأ إسته يؤلمه وكأنّه موخوز بألف إبرة.

قالت كاتي:

- لا إطلاقاً. ولا أعرف حتّى إن كان يلاحظ مجيء أمّك.

كانت تبتسم له، مندهشة من قدرته على أن تخطر له مثل هذه الفكرة.

آه، لا، فكّر منهاراً، ها إنّ ذاك الألم اللّعين يعاوده مجدّداً.

رفع ردفيه قليلاً عن الكرسيّ ليجلس على حافته محافظاً على توازنه بحيث إنّ أعلى فخذيه فقط بقي محتكّاً بالمقعد.

لكنّ الارتياح الضئيل المتوقّع لم يحدث.

وسمع أيضاً، عبر ضبابة الألم التي غمرته فجأةً الصوت الخافت لكاتي.

- مانيل ليس من ذلك الصنف، أليس كذلك؟

لم يعد يتذكّر ماذا قال لها أو عمّا سألها. آه أمّي... ليس من شيَم مانيل أن يبدي إزاءها أيّة قسوة، أو أن يسعى لطرد هذه المرأة المضحكة التي كانت تعتقد فعلاً أنّها بجلبها كراريسها المكتوبة والمطبوعة في صالونها لقاء مبلغٍ لا يستهان به من معاش مقتطع من تقاعدها الزهيد، تستطيع إقناع بائعي المطابخ بوجود ملائكة حولهم.

على أكثر تقدير، كان يتوجّب عليه أن...

هذا الحكاك المألوف الذي هاجمه فجأةً، بدأ يسيطر على ذهنه.

أخذ يستنجد بوسائله القديمة في التصدّي له والتي قلّما استخدمها منذ وقت طويل، لأنّ هذه العلّة تركته بسلام لبضعة أشهر، وكانت الوسيلة الأكثر بداهة تقوم على توجيه أفكاره نحو مواضيع لا علاقة لها بجسده

مكتبة

بالذات، ولا بأيّ جسد ملموس، بحيث إنّه راح، ببساطة تامّة، يصبّ تفكيره على ملائكة أمّه فجذب بأصابعه رزمة الكراريس نحوه.

تُرى بمَ ستجيبه أمّه إذا سألها عمّا إذا كانت الملائكة تُعاني أحياناً من البواسير؟

ألن تكون سعيدة وفخورة لرؤيته يفكّر بجديّة ظاهرة، ولسماعه فقط يقارب موضوع...

ثمّ فكّر وقد اعتراه الهلع: كفى، كفى، ليس هذا أبداً الموضوع الذي يفترض به أن يُركّز عليه.

كان الألم يعاوده، أكثر إلحاحاً، ويثير غيظه.

شعر برغبةٍ فظيعةٍ في الحكّ، لا بل بكشط هذا اللّحم الموخز، الحارق وانتزاعه.

حكّ مؤخّرته بحافّة الكرسي.

وبإصبع مرتعشة، شغّل حاسوبه.

ثمّ نظر من جديد إلى الملاك في الكرّاس، إلى هذا الوجه الأخرق، وهذا الإطار الممعن في السّذاجة اللذين رسمتهما أمّه، وفجأةً ميّز بشكلٍ لا يرقى إليه الشكّ ما اكتفت عيناه بالمرور عليه منذ قليل دون التعمّق فيه.

وكما سبق لشعوره أن حدّثه بذلك بشكل غامض لاحظ أنّ أفراد العائلة الصّغيرة المجتمعين حول الطّاولة كانوا يشبهون جبريل وفانتا ورودي، ووحدها رعونة القلم الذي رُسموا به كانت تحميهم قليلاً من إمكانِ أن نعرفهم، أضف أنّ أحدهم سخر من الملاك فزوّده بعضوٍ ذكريٍّ صلبٍ كان ظاهراً بوضوح تحت الطاولة، وكان يبدو خارجاً من جيبٍ وُضِع عمداً في الثّوب الأبيض الطّويل.

قلّب رودي رزمة الكراريس.
لم يكن الملاك موضوع هزء إلّا في الكرّاس الأوّل.
قلّب الرزمة ودفعها إلى زاوية على مكتبه.
في هذه اللحظة كان يشعر بأنّه فقد البوصلة وأنّ زمام الأمور يفلت من يده.

كان عذاب الحكاك الجنونيّ ينتشر في كلّ كيانه انطلاقاً من هذه النقطة المركزيّة وكأنّ دماغه كان هناك، يرسل أوامره ناقلاً رغبته القاضية بأن يتألّم رودي.

رمى كاتي بنظرة.
وفي اللحظة نفسها رفعت نحوه نظرة مستفسرة وهي تقطّب حاجبيها:
- رودي هل بكَ شيء؟
فتظاهر بالابتسام.
آه كم كان ألمه فظيعاً وكم كان غضبه شديداً بسببٍ من ألمه.
ثمّ سألها:
- من وضع الكراريس على طاولتي؟
- سبق أن قلت لكَ، أمّك جاءت هذا الصّباح.
- هل هي التي وضعتها، شخصيّاً؟
رفعت كتفيها دون أن تفهم قصده، مستاءةً قليلاً.
- لا أرى مَن سواها يستطيع أن يفعل ذلك.
- ولكن هل رأيتِها؟
كانت كاتي تبتسم ببرودة، بنفاد صبرٍ واضح وإن يكن ملجوماً.
- اسمع، رودي، أعرف أنّ أمّكَ جاءت مع... كراريسها تلك. رأيتها

مكتبة

في القاعة، ولكن صدف أنّني لم أكن أمام طاولتي حين جاءت لوضعها.

قفز عن كرسيّه، وقد دوّخه فجأةً الغضب والألم.

كيف يقدر المرء أن يكون لطيفاً حين يتعذّب وكأنّه كلب؟ همس له عندئذٍ صوت خافت أسيان، الصوت الوادع، الفرح، الجذاب لرودي ديسكا القديم الذي كان هو يطمح كثيراً لأن يكونه من جديد، بأخلاقيّته التي لا تهادن حيال نفسه، واللطيفة مع الآخرين.

لاحظ مرتعباً هلعاً ذعر كاتي التي سارعت بلمح البصر للتجمّع في كرسيّها لدى اقترابه منها.

شعر أنّ الآخرين حوله كانوا ينظرون إليه صامتين.

هل غدا إذن رجلاً من أولئك الذين تخشاهم النساء ويذمّهم الرجال الآخرون، لا بل يزدريهم البشر بعمقٍ لمعرفتهم أنّهم قادرون، أسوةً بهانيل، على إخضاع قوّتهم؟

وشعر بنفسه فجأةً تعساً بشكلٍ مُزرٍ، جباناً، عديم النفع.

أمسك رزمة الكراريس ورماها على مكتب كاتي.

كان ينطنط من قدمٍ لأخرى متحايلاً على الألم بجعل سرواله الداخليّ يحتكّ بلحمه الملتهب.

هتف وهو يضع إصبعه على عضو الملاك:

- وهذه المزحة الطريفة، من الذي اخترعها إذن؟

رمت كاتي الصّورة بنظرة حذرة وغمغمت قائلة:

- لا أملك أدنى فكرة.

أخذ الرزمة من جديد ثمّ عاد إلى مكتبه.

أطلق أحد زملائه، في عمق القاعة، صفيراً خافتاً زاجراً.

فصاح رودي:

- ماذا، ماذا هنالك؟ سحقاً لكم!

قالت كاتي بلهجةٍ جافّة:

- ألا ترى أنّك تماديت يا فتى؟

- أريد فقط أن تُترك أمّي بسلام.

لأنّه لم يكن يستطيع احتواء فكرة أنّ أحدهم أراد أن يهين أمّه مخربشاً على رسمها بشكلٍ داعر، ومع أنّه كره على الدوام هذا الترويج الدينيّ ورفض بشكلٍ قاطعٍ النقاش حوله إلّا أنّه كان يرى أنّ الشغف الدؤوب الذي كانت تكتب به العِبَر التي تريد إيصالها وتُصوّرُها، باذلةً أقصى جهدها لتمنح أفضل ما لديها من موهبتها الضئيلة، كان يرغمه على الدّفاع عنها.

لا أحد غيره بإمكانه فعل ذلك، كما هو الأمر مع تلك الأحلام الراعبة التي لا ترحم، والتي لا مفرّ منها والتي تترتّب عليك فيها مسؤوليّة ثقيلة، محتّمة، وعبثيّة. لا أحد سواه يستطيع الدّفاع عن هذه المرأة الخرقاء.

كان يتذكّر بطريقة مبهمة كيف ومتى أتاه الشعور بهذا الواجب، وكان هذا الشّعور من الإزعاج بحيث إنّ دفقاً من الدم صعد إلى وجنتيه، فيما كانت نوبة حكاك أكثر شراسة تحفر في مؤخّرته.

إنّهم بيننا، أرواح خالصة، ويتوجّهون إلينا بالفكر، حتّى عند تناول الطّعام، حتّى لدى السؤال عن الملح أو الخبز.

من هو ملاكك الحارس يا رودي، ما اسمه، ما مرتبته في الهرميّة الملائكيّة؟

مكتبة

كان والد رودي قد أهمل ملاكه، معاملاً كلبه باهتمام أكبر، وهذا هو السبب، كما ألمحت والدته، في أنه تكبّد نهاية تعيسة، لأنّ ملاكه لم يعد يراه أو لأنّه استنفد قواه باحثاً عنه في ظلمات اللامبالاة والنفعيّة.

كان والد رودي، حين كانت أموره كلّها تسير على ما يرام، قد بذل جهده، على سبيل المكر والغرور، للتخلّص من ملاكه. آه كم أنّ الرّجال شديدو الاعتداد بأنفسهم.

أين كان يوجد إذن، تساءل رودي، أين كان بإمكانه أن يوجد فعلاً الملاك الحارس لشريك أبيه لحظة داس هذا الأخير على جسده بعد أن قتله؟

هل كان ذاك الشّريك، هو أيضاً، رجلاً وقحاً، شديد الاعتداد بنفسه، متلهّياً بتضليل ملاكه، أم أنّ الأفارقة سيّئو الحظّ لدرجة أنّهم ليسوا محروسين كما يجب، وهل ملائكتهم يعانون من انعدام الكفاءة والجمود؟

إنّ المهمّة الصعبة التي توجِب عليه الدّفاع عن أمّه، لا أحد سواه يقدر أن يقوم بها، لا أحد سواه يقدر...

– عليك أن تهدّئ من روعك يا رودي، قال صوت كاتي المفعم بالعتب والاستياء. لم يهاجم أحد والدتك.

– أيْ نعم!

تمتم عاجزاً عن نسيان ألمه الجسديّ، مستغرقاً فيه لدرجة أنّه بات منقطع الأنفاس.

كان يبدو له أنّ الألم استحال ضوءاً، الضّوء المنبعث من قميص كاتي الورديّ، وأنّه سيسبح لبقيّة حياته في ذلك التوهّج الخانق.

ثمّ قالت مكرّرةً بإلحاح وبنبرةٍ رتيبة:

- عليكَ أن تهدّئ من روعك، رودي.

وكرّر بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

- أي، نعم!

- إن لم تهدأ يا رودي فستواجه متاعب حقيقيّة. لقد بدأ السيّد مانيل يستاء من هذا كلّه، كما تعرف، ونحن أيضاً. عليكَ أن تهدأ وتنصرف إلى عملك.

وهمس قائلاً:

- ولكن من يكون ذاك الذي خربش على رسم أمّي. هذا تصرّف... لئيم فعلاً!

سمع الباب المزدوج يفتح، وما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتّى كان مانيل هناك منتصباً أمامه وقبضتاه تستندان إلى مكتب رودي وكأنّه يمسك نفسه عن الانقضاض عليه، لكنّ التعبير الممعن في الاحترافيّة لنظرته كان ودوداً لا بل شبه ملاطف إن لم يكن يلوح فيه شيء من العياء الغامض.

وشعر رودي بانزعاجهما المشترك ينسلّ بينهما مرئيّاً كستار من مطر خفيف، لكأنّه مزيج من الخجل والحقد المتقاسميْن على حدّ سواء بين مانيل وبينه، هو الذي لا يزال يحظى بفانتا قربه فيما مانيل خسرها.

لكنّه كان يشعر أيضاً، منذ بعض الوقت، بما يشبه إحراجاً أقلّ، لا بل بشيء ما أكثر رقّة، باتّحادٍ فريدٍ يفوق الوصف منبثقٍ عن إدراكهما أنّهما أحبّا في الوقت نفسه المرأة ذاتها...

رأى أنّ مانيل كان يستوقف نظرَه رسمُ الأمّ.

قال رودي بنبرة محمومة حادّة أحدث صداها رعباً في أذنيه بالذات: «أرأيت هذا؟»

مكتبة

مستمعاً إلى هذا الصّوت المزعج الحادّ، تُرى ألم يكن مانيل يتساءل مستغرباً كيف أمكن لفانتا أن تفضّل عليه في آخر الأمر هذا الرّجل الضيّق التفكير والمخلّع المشية، المتذمّر والمعذّب، كيف يعقل أنّها عادت إليه، إلى رودي ديسكا هذا الذي فقد منذ وقت طويل كلّ اعتبار؟

لا شكّ أنّ هذا بالضبط ما كان سيفكّر به، هو رودي، لو أنّه كان هو مانيل.

لماذا عادت إليه فانتا، كئيبة، بائسة، وكأنّها أسيرة حلم فظيع لا خلاص منه، لماذا فرضت على نفسها الالتزام بهذا الواجب الغريب في مواصلة حياتها في بيتٍ لم تكن تحبّه، بالقرب من رجل كانت تهرب منه وكان يخدعها منذ البداية بخصوص ما كانه حقّاً، متظاهراً أنّه رجل شريف ولطيف فيما كان قد شرّع قلبه مفسحاً للكذب أن يعشّش فيه؟

لماذا لم تبقَ فانتا بالقرب من مانيل؟

أشار مانيل بحركة مزدرية إلى رزمة الكراريس، وكأنّه كان يريد أن يفهمه أنّ ما يراه لا أهميّة له على الإطلاق.

قال رودي بصوتٍ متهدّج قليلاً:

- أودّ أن أعرف من أراد الاستهزاء بأمّي.

قال مانيل:

- ليس الأمر بهذه الخطورة.

كانت تتصاعد من أنفاسه رائحة القهوة.

عندئذٍ فكّر رودي أنْ لا شيء سيوازي في هذه اللحظة متعة احتسائه فنجاناً صغيراً من القهوة الدّسمة المحلّاة.

كان يتلوّى على كرسيّه ساعياً تدريجاً لإيجاد إيقاع منتظم للحكاك يمنح

الارتياح ويخفّف من الألم، دون أن يبدّده.

قال رودي فيما كان مانيل يستعدّ لاستئناف كلامه:

- أتكون أنت صدفةً من قام بذلك؟

أجابه مانيل بصوتٍ خافت:

- إذا كان يوجد حقّاً شخص لا أسخر منه إطلاقاً فسيكون أمّك.

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة.

نزع قبضتيه عن طاولة المكتب، وأدخل إبهاميه في حزامه، وكان شريطاً رفيعاً من الجلد الأسود المدروز بمسامير فضيّة، وكان رودي يرى فيه بالذّات جوهر طبيعة مانيل الذكوريّة والمتّزنة في آن.

قال مانيل بصوتٍ خفيضٍ متقصّداً ألّا يسمعه سوى رودي:

- لا شكّ أنّك ما عدتَ تذكر، كنت صغير السنّ للغاية حينذاك، ولكنّي أنا أذكرك جيّداً. كان أهلك وأهلي جيراناً، وكنّا نسكن في الرّيف بعيداً عن كلّ شيء، وأيّام الأربعاء، كان والداي يتركانني وحيداً لكي يذهبا إلى العمل، وكانا يطلبان من أمّك أن تمرّ من وقتٍ لآخر لتتفقّدني وتتأكّد من أنّ كلّ شيء يجري على ما يرام. وعندئذٍ كانت أمّك تأتي كما كان مقرّراً، وكانت تجدني مغرقاً في الحزن وحيداً، وعندئذٍ كانت تصطحبني إلى بيتكم وتقدّم لي «عصرونيّة »فاخرة وأمضي فترات بعد الظهر مرتاحاً قرير العين. لسوء الحظّ، انتهى كلّ هذا مع رحيلكم إلى أفريقيا. لكنّ هذا لا يمنعني من تذكّري الدّائم لتلك اللحظات الطيّبة حين ألتقي بأمّك، ولا يمكنني بالتالي، ولا حتّى من وراء ظهرها، أن أقوم بما قد يتسبّب بجرحها، أبداً.

قال رودي:

مكتبة

- أعرف.

كان يتظاهر باتّخاذ نبرة ممازحة فيما كان يشعر بنفسه فجأةً غيوراً وضائعاً وتعيساً بالقدر ذاته الذي كانه في الثالثة أو الرابعة من عمره حين كان يرى أمّه كلّ أربعاء تعود برفقة ذاك الصبيّ الأكبر سنّاً منه، الذي لم يكن يعرف عنه شيئاً، والذي كان يجهل حتّى اللحظة أنّه مانيل. كان عليه أن يتحمّل الظلّ الهائل الجاثم فوقه، ظلّ الصبيّ، بساقيه المسمَرّتيْن البارزتين من سرواله القصير وكأنّهما عمودان يعيقان طريقه نحو أمّه... هكذا إذن! كان مانيل ذاك الصبيّ!

لم يكن يتذكّر ملامح الصبيّ بل فقط هاتين الساقين القويّتين المنتصبتين أمام وجهه، هو رودي، وبينهما وجه أمّه لا يكاد هو يلمحه.

لماذا كان يشعر دوماً آنذاك أنّ جوّ المنزل يتغيّر مع دخول الصبيّ ويصبح في الوقت نفسه مشحوناً وحيويّاً، وأنّ إثارة خفيّة كانت تسرّع حركات الأمّ وكلامها وهي تقترح، وكأنّها تحت تأثير إلهام، أن تحضّر الفطائر المحلّاة للعصرونيّة، لماذا بدا له دوماً أنّ هذا الصبيّ ذا الساقين المشدودتيْن، والصّوت الخافت، كان ينتشل الأمّ من ضجر لا يستطيع وجود رودي أن يبدّده، لا بل ربّما كان يزيده حدّةً ويفاقمه؟

لم يكن في الإمكان التخلّص من رودي، كان أحياناً ملحاحاً بحقّ، في حين لم يكن الجار الصّغير البالغ التاسعة أو العاشرة من عمره، يطلب أيّ شيء، وكانت الأمّ تأتي إلى نجدته دون أن تلاحظ أنّ رودي كان يرى دوماً أمام عينيه الساقين المشدودتين للصبيّ، وأنّ هاتين الساقين كانتا تتنقّلان دوماً بالتزامن مع رودي، لتمنعاه من الوصول إلى أمّه.

نعم، كان هو، كان مانيل!

كان رودي في ذروة الاضطراب والبلبلة وراح يتخبّط على كرسيّه أكثر فأكثر.

كانت الشّمس تصفعه ملء وجهه عبر الزّجاج المصطبغ دوماً بذلك اللّمعان الورديّ الذي كان يشيعه قميص كاتي.

أحسّ بالحرّ، حَرّ لا يُطاق.

بدا له أنّ مانيل كان ينظر إليه بقلق.

ألم يكن عجيباً أنّ أمّه لم تذكّره قطّ بتلك الحقبة حين كان صبيٌّ طويل القامة رابط الجأش يأتي يوم الأربعاء بعد الظهر ويملأ المطبخ بحضوره الخفر الجاثم كقَدَرٍ، وأنّها لم تقل له أنّ ذاك الصبيّ كان مانيل؟

لقد تقاسم الإثنان، الأمّ ومانيل، هذه الذّكرى الخفيّة، خفيةً عن رودي، ولكن بأيّ هدف، يا إلهي؟

كان مانيل منصرفاً إلى التحدّث إليه.

أن يجسّد مانيل بالضبط الابن الذي كانت تودّ أمّه أن تنجبه، فهذا ما لم يكن رودي يشكّ به. ولكن هل كان هذا سبباً لكي...

حسناً، ما همّ، على أيّة حال.

سعى جاهداً لأن يفهم ما الذي كان مانيل يقول له بصوته الخافت الحريريّ لكنّ شعوراً هائلاً بالظّلم اعتصر فؤاده لدى التفكير في أنّه سعى لحماية أمّه دوماً في حين أنّها، من جهتها...

آه، كان يحسّ بأنّ الحرّ يخنقه!

انتصب مانيل أمامه بطريقة ألفى معها نفسه في الظلّ فيما الشّمس كانت تبهر رودي.

عندئذٍ أدرك أنّه كان يحكّ مؤخّرته على مقعده وأنّ الأزيز الذي يحدثه

مكتبة

جعل زملاءه يلتفتون إليه من عمق القاعة.

ما الذي كان مانيل يقول له إذن عن هذه الزّبون، السيّدة مينوتي؟

ودون أن يفهم السبب تحديداً، كان اسم هذه المرأة يثير فيه استياءً يُضاف إليه رعب وكأنّه كان يعرف أنّه أخطأ تجاهها لكنّه كان عاجزاً عن أن يخمّن بأيّ طريقة أخطأ.

كان قد ظنّ أنّه انتهى من مينوتي ومن مطبخها المزعوم الذي أشرف على تنفيذه منذ البداية، وكان هو نفسه قد خطّ الرسم الإعداديّ له وساعدها في اختيار لون الخشب، بعد أن فكّر طويلاً معها في شكل الشفّاط، وعندما تساءل عن السبب الذي دفع بمانيل لأن يعهد إلى يديه القليلتي الموهبة بالورشة الكاملة لمطبخ السيّدة مينوتي، لم يلبث أن فهم السّبب، حين اتّصلت به مينوتي في البيت، في الليل المتأخّر، وهي تشتكي له من أنّ قلقاً فظيعاً أيقظها، لا بل أسوأ من ذلك، نوبة اختناق لم تشهد لها مثيلاً اعترتها لدى التفكير في أنّ خطّة العمل المركزيّة ربّما لم تكن تناسبها البتّة، فلمَ لا يُعتمَدُ إذن ببساطة مشروع البداية وتُرصف العناصر الأساسيّة على طول الجدران، ولِمَ لا يستعاد من جديدٍ التصوّر الكامل لهذا المطبخ الذي بحسب اعترافها لم تعد واثقة بتاتاً من أنّها تريده، وقد تملّكها فواقٌ ناجم عن تواتر خيبتها، وهي جالسة كما كانت في قميص النّوم في مطبخها القديم اللّطيف للغاية، لِمَ لا تمحو بجرّة قلم كلّ هذه القصّة، فهي تشعر بضيقٍ فظيع، فظيع.

وعندئذٍ، أمضى رودي ساعة كاملة وهو يذكّرها بأنّها قصدت مكتب مانيل تحديداً لأنّها لم تعد تطيق الأثاث القديم المتنافر لمطبخها، ثمّ وقد هدّه التعب والسأم، أكدّ لها أنّه يأمل برؤية حياتها تتجدّد وتزداد بهجة بفضل

تجهيز مطبخها بالخزائن المريحة وبالشفّاط التليسكوبيّ، وأنّ هذا الأمل يمكن تحقيقه. فهلّا يطيب للسيّدة مينوتي أن تمنحه ثقتها ثانية؟

وأغلق السمّاعة منهكاً ولكنّه كان من التوتّر بحيث عجز عن العودة إلى النوم.

واستبدّت به فورة حقدٍ حيال السيّدة مينوتي، ليس لأنّها أيقظته من نومه بل لأنّها فكرّت بإلغاء أسابيع من العمل الشاقّ والمضني كرّسها ليوفّق بين رغبات هذه المرأة المعقّدة والمتهوّرة والميزانيّة القليلة التي كانت في حوزتها.

آه! كم من الوقت كان قد أضاع أمام الحاسوب وهو يبحث عن الوسيلة لكي يُدخل إلى المطبخ طاولة عمل على الطريقة الأميركيّة أو سلّة مهملات تُفتح بطريقة آليّة ضمن التصميم الذي وافقت عليه قبل أن تغيّر رأيها، والاشمئزاز الذي غالباً ما تولّاه لاستنتاجه أنّه كان عليه أن يجنّد، في سبيل مسائل تافهة مماثلة ليس فقط ذكاءه بكليّته بل أيضاً كلّ قدرات التركيز لديه وكلّ براعته!

ربّما كانت تلك هي المرّة الأولى بالضبط التي اختبر فيها مدى انحطاطه الأليم، في اللّحظة التي طمأن فيها السيّدة مينوتي في عزّ الليل.

كان قد قام مع هذه السيّدة بإعادة نظرٍ شاملة لهذا المطبخ الذي كان يجده غريباً وعديم النفع (لكأنّه مجهّز ليستقبل كلّ يوم ضيوفاً كثيرين ومتطّلبين فيما كانت مينوتي تعيش وحيدة، وباعترافها هيٍ بالذّات، لم تكن تحبّ البتّة تحضير الطّعام)، لأنّه هذا ما كان يقتضيه دوره الآن، وهذا ما آلت إليه حياته، ولم تكن مينوتي تستطيع أن تتصوّر أنّه كان تقدّمَ لمنصب أستاذ جامعيّ ولا أنّه كان في وقتٍ ما يُعدّ خبيراً في الأدب القروسطيّ لأنّه

مكتبة

لا شيء كان يوحي لديه بهذا التبحّر الواسع الذي ميّزه والذي راح يتلاشى مدفوناً بهدوء تحت رماد الصعوبات التي لا تنتهي، هؤلاء المتزوّجون يشبهون سمكة تسبح بِحُريّة في مياه البحر الواسعة[1]...

ترى كيف بالإمكان الخروج، تساءل ببُعد نظرٍ يائسٍ وباردٍ، من هذا الحلم اللامتناهي الذي لا يرحم، الذي لم يكن إلّا الحياةَ نفسها؟... سمكة تروح وتجيء حيث يحلو لها وتظلّ تروح وتجيء إلى أن تصادف شَرَكاً...

قال مانيل:

- هي في انتظارك، اذهب في الحال.

هل يُعقل أن يكون قد قصد بكلامه فانتا؟

كان رودي واثقاً من شيء، وهو أنّ فانتا لم تعد تنتظره، هو زوجها، لا ولا تنتظر مانيل هذا، الذي لأسباب معيّنة يجهلها رودي، كان قد خيّب أملها.

وعاد مانيل على عقبيه.

صاح رودي:

- هل عليّ أن أذهب لرؤية السيّدة مينوتي، هذا هو الأمر، أليس كذلك؟

هزّ رودي رأسه إيجاباً دون أن ينظر إليه، ثمّ ذهب إلى قاعة العرض، حيث في الوقت الذي استغرقه كلامه مع رودي، كان تركَ زبونَيه جاثمين على مقعدَي بار، وسيقانهما السّمينة تتدلّى إلى الأرض بطريقةٍ خرقاء.

كان الرّجل، من بعيد، يبتسم لرودي بغموض.

كان يضع طاقيّته على ركبتيْه، وكان بإمكان رودي أن يرى من مكتبه اللمعان الشاحب لصلعته فوق جبينه الورديّ.

(1) قول للفيلسوف اليونانيّ سقراط.

إنّهم بيننا!

تساءل، كيف بالإمكان معرفة ما إذا لم يكن هذان الزوجان، المهتمّان بمعاينة مطبخ كامل من الخشب الدّاكن، على الطريقة القديمة، وحيث مقابض الخزائن من الحديد المشغول وثمة فجوات صغيرة زائفة مشابهة لتلك التي تحدثها الديدان آكلة الخشب، ينتميان إلى الملائكة التي كانت الأمّ موقنة من أنّهم يزوروننا بانتظام، ولو كانت أنفسنا متيقّظة (بحسب كراريس الأم) لاستطعنا معرفتهم؟

وبما أنّ رودي كان يبتسم له بدوره فإنّ الرّجل أشاح بصره فوراً عابساً... **حيث هناك أسماك جمّة انجذبت إلى الطّعم الموجود داخل الشرَك بعد أن فاحت رائحته الشهيّة والجذّابة، وحين تراه السمكة تعمل ما في وسعها لتتسلّل إليه...**

نهض رودي وذهب نحو مكتب كاتي، متظاهراً بالثّقة.

كان إسته لا يزال يحرقه بشكلٍ مرعب.

رفع سمّاعة كاتي التي زمّت شفتيها لكنّها لم تقل شيئاً.

وبصفته بائعاً مساعداً، لم يكن لديه الحقّ بخطّ مباشر.

طلب رقم منزله، وترك الهاتف يرنّ عشر مرّات.

وإذا بالعرق يتدفّق فجأةً منه مبلّلاً يديه وصدغيه.

لم تكن فانتا تسمع شيئاً أو أنّها اختارت ألّا تُجيب، أو أيضاً، فكّر، كانت غير قادرة على الردّ أو غائبة أو...

عندما ردّ السمّاعة من جديد إلى موضعها، تلاقت نظراته بنظرات كاتي التي بدت محرجة مضطربة. قال بنبرةٍ مرحة:

- يبدو أنّ السيّدة مينوتي ترغب في رؤيتي.

مكتبة

لكنّ ألماً شديداً انتابه فأصابه التشنّج المعهود الذي يرفع زاوية شفته العليا. وإذ خانته قواه، أخذ بيدٍ واحدةٍ يحكّ مؤخّرته بشكلٍ جنونيّ لوقتٍ قصير.

قالت كاتي بصوتٍ خفيض وكأنّما على مضض:

- رودي، أظنّ أنّ السيّدة مينوتي غاضبة فعلاً.

- ولكن لماذا؟

شعر ببعض جفافٍ في فمه حين راوده الشعور القديم المشوِش بأنّه أخفق في واجبه تجاه السيّدة مينوتي، ليس بطريقة إراديّة بل بسبب تراخيه وتهاونه.

ما الذي فعله إذن أو نسي أن يفعله؟

مينوتي موظّفة بسيطة في المصرف، ولا تملك الكثير من المال.

أخذت قرضاً قدره عشرون ألف يورو لكي تموّل هذا المطبخ، وضمّ رودي قطع تجهيزات مختلفة من عدّة موديلات مطابخ، وبعضها كانت أسعاره مخفّضة إرضاءً لطلبات مينوتي، وقد كانت كثيرة، في حين أنّ هذه المرأة البراغماتيّة، الخبيرة بالحساب راحت تتظاهر فجأةً بأنّها لا تفهم أنّ لائحة الأسعار الموازية لرغباتها تتجاوز بكثيرِ المبلغ الذي اقترضته.

وبمعنىً ما، كان رودي قد أظهر تفانياً، واستعداداً، ونشاطاً.

ومع ذلك، بعد أن أوصى على كلّ شيء، شعر بخطرٍ ما مثل طعم كريه يتبقّى في الفم... وتدور السّمكة حول الشرك إلى أن تجد مسرباً فتتسلّل منه، وتخال أنّها وسط اللذائذ والمتع، كما يتهيّأ للأسماك الأخرى، وعندما تصير داخله لا تستطيع الخروج منه.

آه يا إلهي ما الذي فعله أيضاً؟

لم يتذكّر، منذ أربع سنوات، مذ بدأ يعمل لدى مانيل (أربع سنوات من حياته) أنّه أنجز شيئاً ما بإتقان كما كان يُفترض به أن يفعل.

كان قد راكم، بسبب الضجر والضّغينة، الأخطاء الصّغيرة، والهفوات التي كان بعض الزّبائن يتذكّرونها ويبادرون إلى مصارحة مانيل بعدم رغبتهم في التعامل مع رودي ديسكا لدى عودتهم لشراء غرضٍ ما.

غير أنّه، فيما يخصّ السيّدة مينوتي، قد بذل جهداً كبيراً.

سألته كاتي:

- كيف حال زوجتك؟

فانتفض طارفاً جفنيه متململاً بطريقة لا إراديّة:

- في حال جيّدة، نعم.

- والصّغير؟

- جبريل؟ بخير، نعم، على ما أظنّ.

بدا له أنّها كانت تحدّق إليه بنفس الابتسامة الماكرة، الغريبة قليلاً، الحذرة، التي بدرت عن الرجل صاحب الطاقيّة منذ قليل.

وتولّاه الرّعب.

علامَ كانت تضحك إذن مطوّقةً بهالتها الحمراء؟ وعندما تدخل السمكة الشرك، لا تستطيع الخروج منه.

سأل أيضاً بنبرته المرحة:

- ألا تعرفين حقّاً ماذا تريد منّي مينوتي هذه؟

كان يدرك تماماً لا جدوى إلحاحه ولكنّه عاجز عن عقد العزم على الذهاب ما لم يقدَّم له توضيح ما، ليس فقط عن متاعب مينوتي، بل أيضاً عن التجارب الملغزة لحياته بأكملها. لا تستطيع السمكة الخروج منها.

مكتبة

حدّقت كاتي إلى شاشة حاسوبها، متجاهلةً إيّاه بوضوح مقصود.

عندئذٍ تولّاه شعور ضارب بأنّه ما إن يغادر هذا المكتب فإنّه لن يعود إليه أبداً، ولن يُسمح له بذلك، ولسبب لا يستطيع تبيّنه بعدُ يُفضّلون عدم إنذاره بذلك؛ فهل لأنّهم كانوا يخشونه؟

- فعلت كلّ ما بوسعي من أجل مينوتي، هل تعلمين؟ لم يسبق لي أن منحت أفضل ما عندي على هذا النحو منذ بدأت العمل هنا كما فعلت مع هذا المطبخ المقيت. والسّاعات الإضافيّة عملتُ خلالها دون حساب.

كان هادئاً وكان باستطاعته أن يحسّ على وجهه بدفء هدوئه، وابتسامته الخفيفة.

كانت آلام إسته قد هدأت.

وبما أنّ كاتي كانت مصرّة على التظاهر بأنّها لا تبالي بوجوده، وبما أنّه كان يفكّر فجأةً أنّه إذا لم يعد إلى المكتب فربّما لن يراها أبداً، فقد انحنى بلطفٍ نحو الفلقة الصّغيرة الزهرية لأذنها التي تكاد تكون شفافة.

وهمس بهدوء وعذوبة، بنفس الهدوء والعذوبة للرجل الشابّ الذي كانه فيما مضى:

- يجدر بي أن أقتل مانيل أليس كذلك؟

وأمالت رأسها بشدّة لتبتعد عنه.

- رودي ارحل من هنا، فوراً.

رفع نظره ورأى، مرّة أخرى، عبر الواجهة الزّجاجيّة، دارة مانيل التي تغمرها الشمس بمدخلها المهيب، غير المتناسق. ما أشبه هذا المنزل الضخم المنخفض بتلك المنازل التي كان المتعهّدون الأثرياء في حيّ

«ألمادي»[1] يبنونها، وفي الواقع ما أشدّ شبهه، قال في نفسه وقد اعتراه اضطراب هزّ كيانه كلّه، أجل، في الواقع، ما أشدّ شبهه بالدارة التي بناها والده آبيل ديسكا في دار السّلام وقد اختار للشبابيك، ليس هذا الأزرق الريفيّ الشائع جدّاً في هذه الأيّام بل الأحمر الداكن الذي كان يذكّره ببلاد الباسك التي يتحدّر منها، ولم يكن يفكّر، وكيف كان بمقدوره التفكير، لكنّ السمكة لا تستطيع الخروج ثانية، أنّ الحمرة الأقلّ دكنة إلى حدّ ما، حمرة دم شريكه، وصديقه، ستصبغ إلى الأبد هذه الحجارة المساميّة الناصعة البياض التي اختارها للشرفة الفسيحة.

أجل، فكّر رودي، إنّ الرجال الطموحين ذوي السّيقان القويّة المتينة والمستقيمة على الأرض، التي لا يعرو ركبَها أدنى تراخٍ رهيفٍ، مثل مانيل وآبيل ديسكا، هؤلاء الرجال كانوا يبنون منازل مماثلة، لأنّهم كانوا من طينة مشابهة، مع أنّ والد رودي كان سيجد مقارنته ببائع مطابخ مهينةً أو مضحكةً، هو الذي عرف، باكراً جدّاً، كيف يهجر ريفه مجتازاً إسبانيا وقسماً من المتوسّط، ثمّ المغرب وموريتانيا إلى أن أوقف سيّارته الفورد القديمة المتينة على ضفّة نهر السينغال، وهناك خطر له في الحالِ الشروع في صنع أسطورته العائليّة الصّغيرة من خلال بناء منتجع سياحيّ لا مثيل له.

آه، أجل، فكّر رودي، تلك الطينة الخاصّة من الرّجال ذوي الطموحات الواقعيّة، والتي لا تقلّ حدّة مع ذلك عن الرّغبات الروحيّة، لا يشعرون أبداً بأنّ عليهم أن يصارعوا، يوماً بعد يوم، الوجوه المتجمّدة في حلمٍ غير متناهٍ، رتيب ومهين بخفاء.

وقبل أن يبتعد رودي عن مكتب كاتي، وقد أحسّها متشنّجة خائفة

---

(1) رأس صخريّ في شبه جزيرة الرأس الأخضر في السنغال.

مكتبة

وكانت عيناها الصّغيرتان الجامدتان تمعنان بثبات يائس في تفادي عينيه، لم يستطع الامتناع عن أن يقول لها، بصوتٍ مرتعش قليلاً:

- لو أنّكِ تعرفين كم من الرقّة أملك في داخلي!

وأخذت تشخر بشكلٍ أجشّ، لا إراديّ.

أمّا والده أو مانيل، معً أنّهما كانا خطيرين في نوعهما، إلّا أنّهما لم يكونا من هؤلاء الرّجال الذين تخافهم النّساء، فيما هو، يا إلهي، كيف وصل به الأمر إلى هذا الحدّ...

جمع عن طاولته كراريس أمّه ثمّ لفّها ووضعها في جيب بنطاله.

اجتاز القاعة الكبيرة المغمورة بالضياء واثقاً من أنّ زملاءه كانوا يلاحقونه بنظرات تنمّ عن فَرَجٍ أو احتقارٍ أو أيّ شعورٍ آخر لم يكن باستطاعته أن يملك فكرةً عنه.

ومع ذلك، هناك، حين كان يوشك أن يبلغ الباب المزدوج الزجاج بخطواته التي تعيقها وخزات مؤخّرته، مباعداً بين فخذيه فيما لم يكن حجم عضلاته يرغمه على فعل ذلك (لأنّ ساقيه كانتا رشيقتين، لا بل نحيلتين، لكنّه كان يقلّد قليلاً بمشيته هذه أباه أو مانيل، ذينك الرجلين اللذين كانت أفخاذهما الضّخمة تجبرهما على إبقاء ركَبهما متباعدةً جدّاً) راقت له الفكرة بأنّ زملاءه كانوا ربّما قد وجدوا فيه ملاكهم.

كان يتقدّم مغموراً بشقرته اللامعة، كما في الأيّام الخوالي حين كان يترك شقّته الصّغيرة في تلّة داكار وينحدر إلى الجادّة النابضة دفئاً فيما كان هو مدركاً ومتيّقناً تماماً من نزاهة قلبه الناصعة، واكتمال شرفه.

كان يريد أن يقول لزملائه فرحاً ودوداً جذاباً وبكلّ لطفٍ تلقائيّ: أنا الملاك الذي حدّثتكم عنه والدتي.

ألم يكن هناك زمن كانت فيه أمّه، وتذكّر ذلك منزعجاً، تزيل لون شعره الذي كان بلون الكتّان المشرق بالماء المؤكسَد لكي يبدو أكثر شقرة، شبه أبيض؟

كان يتذكّر رائحة الكحول الكريهة التي كانت تغرقه في آخر الأمر في خمول تامّ، متهاوياً على كرسيّ بلا ظهر في مطبخ ذاك المنزل حيث أخبره مانيل منذ قليل أنّه أمضى فيه أيّام الأربعاء مراراً وتكراراً. لا بدّ أنّه كان يافعاً جدّاً عندما قرّرت والدته أن تمنحه تلك الميزة المتعارف عليها عموماً للوجه الملائكيّ، لأنّ هذه الجلسات انقطعت عندما انطلقا إلى أفريقيا لموافاة والد رودي.

فكّر: ربّما ارتأت أمّه أنّ شقرة شعره الطبيعيّة كانت تكفي إلى حدّ كبير لترسيخه كملاك أو أنّها لم تجرؤ على مواصلة هذه العادة بحضور والد رودي، الذي كان شكّاكاً، وساخراً، وعنيفاً، وقد تخلّى عن ملاكه بالذّات، لا بل تخلّص منه نهائيّاً بهروبه بعيداً، متوغّلاً أكثر وأكثر في ظلمات حساباته المتخابثة، وتكتيكاته وخططه شبه السريّة، شبه المباحة.

طاب له أن يهتف: أنا رسول العروش[1]، لكنّه أعفى نفسه من ذلك، غير راغب في أن يدير رأسه ناحية زملائه.

كان يحلو له فجأةً أن يفكّر بأنّ زملاءه هؤلاء قد نزل عليهم في هذه اللحظة بالذّات إلهام مماثل، لحظة رأوه يمرّ، هناك، أمامهم، مباعداً ساقيه، متصلّب المشية بعض الشيء، مكلّلاً مع ذلك بهالة مهيبة، رائعة، مضيئة، وبسطوعٍ شمسيّ.

لم يعرف أن يدافع عن فانتا.

(1) الطغمة الأولى من الملائكة حسب «العهد القديم»، إلى جانب السروفيّين والكروبيّين.

مكتبة

كان قد زعم أنّه الساهر عليها في فرنسا، على هشاشتها الاجتماعيّة، ولكنّه تخلّى عن مسعاه.

دفع الباب ودخل إلى قاعة العرض.

كان زبونا مانيل منصرفين إلى اختيار مقاعد «البار» الأميركيّ، وكان رودي مستعدّاً للمراهنة على أنّهما لن يتناولا أدنى طعام عليه أبداً، ولن يتّكئا إليه إطلاقاً لاحتساء فنجان قهوة، وسيفضّلان عليه الطاولة الصّغيرة القديمة التي خدمتْهما حتّى ذلك الحين، وسيجدان الوسيلة لإعادة إدخالها خفية إلى المطبخ الجديد الذي سيجهّزه لهما مانيل، وحين يزورهما أولادهما، ويُفاجؤون بالطاولة القديمة الوسخة ذات الأخاديد المليئة بفتات الخبز ويلومونهما على استعادتها ووضعها في زاوية المطبخ، معيقين على هذا النحو الوصول إلى البرّاد، فإنّهما سوف يبرّران تصرّفهما، فكّر رودي، متذرّعين أنّهما وضعاها مؤقّتاً وأنّهما سيتخلّصان من طاولتهما العزيزة ما إن يجدان قطعة الأثاث الصّغيرة تلك التي كانت تنقصهما لكي يلقيا عليها، لدى عودتهما من السّوق، الأكياس والصناديق الكرتونيّة.

كان مانيل يحثّهما على تلمّس غطاء المولسكين البنيّ لزوجين من المقاعد الخشبيّة الداكنة اللّون.

كان ينتظر بالقرب منهما، صبوراً إلى ما لا نهاية، غير مستعجل إطلاقاً، وغير راغبٍ في الانتهاء.

رفع الزبون نظره لدى سماعه خطوات رودي.

فكّر رودي بانفعال أنّه أطال النظر أكثر ممّا يفعله الزبائن عادةً وكانت نظراته ودودة، محتفية.

خُيّل لرودي أنّ الآخر قام برفع طاقيّته لتحيّته.

وفيما كان يُفترَضُ بمثل هذه الحركة المصحوبة بالنظرة الملحّة أن تقلقه بالأمسِ، وتكدّره، وتجعله يتساءل حالاً أيّ نوع من الانزعاج سيعقبها، إذا به يفكّر بارتياحٍ أنّ هذا الشّخص قد عرفه ببساطة.

أنا روح السلاطين[1]!

ربّما كان الرّجل قد حصل على أحد كراريس الأمّ، وإذ رأى رودي على هذا الإشراق، فإنّ شعوراً تلقائيّاً بالغبطة قد مسّ قلبه في الصّميم.

كانت نظرته كأنّما تقول: هل أنت مَن عليه أن يحرسني؟

فماذا يجدر به أن يجيب؟

ابتسم رودي ابتسامة عريضة، وهذا ما كان يتجنّب أن يفعله عموماً لأنّه لم يكن يجهل أنّ الزهو، شأنه شأن الخوف، يلوي شفتيه ويمنحهما مظهراً غير مستحبّ.

ناظراً إلى الرّجل مباشرة في عينيه، حرّك فمه بشكل أخرس كأنّما ليقول له: أنا سيّد الفضائل الصّغير!

ثمّ حثّ الخطى وخرج من المؤسّسة.

صعقه الحرّ في موقف السيّارات وأعاده إلى رشده.

لم يكن ما يشغله -راح يهمهم- هو أنّ الآخرين أمكنهم أن يلوموه على تعمّده ترك فانتا لوحدة امرأة منفيّة، أمّا في ما يتعلّق بأنّها لا تملك المواصفات المطلوبة لتدرّس في فرنسا، فهو لم يكن مسؤولاً عن ذلك.

ومع ذلك فإنّ تلك القناعة بأنّه خدعها ليصطحبها معه إلى فرنسا لم تفارقه قطّ، لأنّه أشاح بوجهه عنها، وتخلّى عن مهمّة السّهر عليها التي كان قد وافق عليها ضمناً حين كانا في أفريقيا.

---

(1) الطغمة الثانية من الملائكة إلى جانب القوّات والسّيادات.

لأنّه كان خارجاً آنذاك من امتهانٍ فظيع لكرامته!

أيّ هزيمة ماحقة أُنزلت به حين أُوسِعَ ضرباً!

كان يبدو له أحياناً أنّه لا يزال يشعر بآثار الضرب المبرح حتّى اليوم حين يرفع ذراعيه عالياً، وعلى نحوٍ أخصّ حين كان الإسفلت الحارق في موقف مانيل يفوح برائحة القار، حينئذٍ كان يرى نفسه من جديد بوضوح مؤلم، مطروحاً على بطنه فوق مساحة مماثلة من الزفت الذي أماعته حرارة الشمس، وكانت كتفاه وحقواه تنسحق تحت ركبتيْن حادّتيْن وهو يحاول أن يرفع وجهه المكدّم من جديد، ليتجنّب الاحتكاك بالزّفت المغبرّ الدبق.

سنوات مرّت على مثل هذا المشهد إلّا أنّ تذكّره كان يجعله يحمرّ خجلاً وذهولاً.

شعر مع ذلك، هنا، للمرّة الأولى، بكلّ ما يصدر من تلقائيّ في ردّة الفعل تلك.

تنشّق ملء رئتيه، متشبّعاً من رائحة الإسفلت النفّاذة.

وأدرك حينئذٍ أنّ العار فارقه.

نعم، كان هو فعلاً، رودي ديسكا، الذي أشبعه مراهقون من مدرسة ميرموز رفساً ثمّ رموه أرضاً وسحقوا أضلعه على الزّفت وهشّموا وجهه رغم محاولته إبقاءه مرفوعاً، على أرض الملعب، وعلى خدّه، هو، انطبعت إلى الأبد، ندوب رقيقة، وهاتان الكتفان اللتان لا تزالان تؤلمانه أحياناً هما كتفاه؛ ومع ذلك فإنّ الإهانة فارقته، ليس لأنّه استطاع أو تمنّى أن يحيلها إلى آخر سواه، بل لأنّه كان يشعر بأنّه، بخلاف ذلك، يتقبّلها وأنّ هذا كان يعطيه في الوقت نفسه إمكانيّة التحرّر منها، كما يتحرّر المرء من حلم دهريّ، متجمّد، من حلم راعب لا ينتهي فيشعر، إذ يكابده ويستسلم له،

بأنّه سينعتق منه.

هو، رودي ديسكا، أستاذ الأدب السابق في مدرسة ميرموز والمتخصّص في العصر الوسيط، لم يعد ملتصقاً بالعار.

كان قد فقد سمعته وكرامته وعاد إلى فرنسا جاذباً فانتا خلفه وهو يعرف أنّ الإهانة سترافقه لأنّها كانت في داخله وكان مقتنعاً أنّ تلك الإهانة، رغم كرهه ومحاربته لها، باتت تختصر وجوده.

وها إنّه يتقبّلها فيجد نفسه وقد تخفّف من وزرها.

ها إنّه يستطيع بهدوء، بتؤدة، أن يستعيد صور تلك الإهانة المريعة؛ والإهانة لم تعد لصيقة به في تلك اللحظة، حين، واقفاً في الهواء السّاخن الجافّ، كان يرى الكتلة التي أضنت قلبه والغائلة التي ملأت صدره، وتربّصت به، تذوب وتفارقه لدى تذكّره تحديداً وجوه الفتيان الثلاثة الذين انقضّوا عليه، حتّى أنّه يستطيع أن يحسّ على رقبته بالنَّفَس الحامز قليلاً (بسبب الخوف، أو الاضطراب) لذاك الذي أبقاه منطرحاً أرضاً؛ تلك الوجوه الثلاثة، أجل، الداكنة والجميلة في فتوّتها البديعة، والتي، في اليوم السّابق ليس إلّا، كانت تمتدّ نحوه بين الوجوه الأخرى، وتصغي إليه بكامل انتباهها وبراءتها وهو يتحدّث عن روتبوف.[1]

كان يستعيد تلك الوجوه ولم يكن حزيناً لرؤيتها.

تساءل: ترى ماذا صار بحالهم اليوم، أولئك الفتيان الثلاثة؟

وأخذ يمشي باتّجاه سيّارته، مستمتعاً لشعوره بأنّ قدمه في كلّ خطوة تلتصق بقوّة بالإسفلت ثمّ يسمعها تنفصل عنه بضجيج خافت وكأنّه وقْع قُبلة.

---

(1) روتبوف Rutebeuf: شاعر فرنسيّ من القرن الثالث عشر سبق التعريف به، وقد استشهدت الكاتبة بقصيدته التي يشكو فيها تخلّي أصدقائه عنه.

مكتبة

كان يستعيد كلّ ذلك ولم يكن ذلك يحزنه.

كم كان الطّقس حارّاً!

كانت وخزات إسته تعاوده.

آه، كان يتذكّر كلّ ذلك و...

يا للسعادة، قال في نفسه.

حكّ إسته، ليس من دون لذّة، واعياً أنّ حكاكه لن يرميه بعد ذلك اليوم في مهاوي الغضب والإحباط نفسها، وأنّه لم يعد يحقّ له أن يعتبر هذه الآلام العاديّة وكأنّها عقاب أو تجسيد لدونيّته.

كان قادراً في هذه اللحظة على...

وضع يداً على مقبض الباب الذي كان يكاد يغلي لشدّة حرارته.

لم ينتشل أصابعه في الحال.

كان هذا يحرقه، وكان هذا مزعجاً لكن بدا له أنّه يشعر بشكلٍ أفضل، نظراً للتباين بين الأمرين، بالرهافة الجديدة لعقله وجلاء صدره واتّساع قلبه -ها قد تحرّر أخيراً! هتف صارخاً في دخيلته.

وكيف حصل هذا؟

وكيف كان بإمكان هذا أن يحصل؟

نظر طويلاً حوله إلى السيّارات الضخمة الرماديّة والسّوداء لزملائه وإلى الطّريق أمام الموقف مع صفوف المرائب والأكشاك، ثمّ رفع جبينه لكي يمنحه بمتعة للشمس المستعرة.

أخيراً تحرّر!

وعلامَ كان قادراً في تلك اللحظة؟

أيْ نعم، كان قادراً على الذّهاب إلى أبعد حدّ، بالرّغم من الضيق

الذي يشعر به من جرّاء الاحمرار الخفيف لهذا الجبين الذي كان يرفعه نحو السماء، كان بإمكانه أن يذهب فعلاً إلى أقصى ما يمكنه ويمتحن عميقاً حريّته الجديدة، معترفاً للمرّة الأولى بأنّ الفتيان الثلاثة لم يعتدوا عليه.

ما تبقّى منه من رودي ديسكا القديم اعترض.

لكنّه كان صامداً في موقفه مع أنّ هلعاً وضياعاً بدآ يبزغان في داخله ويجعلانه يرتجف.

فتح باب السيّارة وتهاوى فوق المقعد.

كان الجوّ خانقاً داخل السيّارة.

حاول مع ذلك أن يتنشّق بجرعات كبيرة ذاك الهواء المحتبس داخل السيّارة محاولاً أن يهدأ ويبعد عنه الخوف، الخوف الفظيع الذي كان يجتاحه ليقينه أنّ هؤلاء الفتيان لم يكونوا البادئين بمهاجمته، وأنّ عليه والحالة هذه الإقرار بأنّ رودي ديسكا، أستاذ الأدب في مدرسة ميرموز الثانوية في داكار، هو من انقضّ على أحدهم، مرغِماً الاثنين الآخرين على أن يهبّا لنجدة زميلهما.

أحقّاً؟

أجل، لا بدّ أن تكون الأمور جرت على هذا النحو، أليس كذلك رودي؟ وتدفّقت الدموع الحارقة من عينيه.

كان قد صبّ كلّ جهوده لإنكار هذه الحقيقة لدرجة أنّه كان يشقّ عليه الاعتراف بها.

لا يزال يشقّ عليه الاعتراف بالحقيقة.

مدّ ذراعه نحو المقعد الخلفيّ، وأمسك منشفته القديمة ليجفّف أجفانه.

ولكنّ تلك الحقيقة، أنّى له استشفافها دون أن تحزنه؟

مكتبة

كان ملعب المدرسة ينبسط بمساحته المترامية من الإسفلت الذي يسمع نشيشه تحت شمس الظهيرة.

كان رودي ديسكا يخرج من مبنى المدرسة بخطواته الرّشيقة، سعيداً، أستاذاً شابّاً، محبوباً ولامعاً، محبوباً من لدن تلاميذه كما من لدن زملائه وزوجته فانتا التي كانت زميلة له أيضاً، ولم تكن تحدوه آنذاك حاجة للسلطات الإلهيّة ليشعر حول شخصه بهالة من الحنوّ والانتصار الرقيق، والطموحات المرهفة.

كان الإسفلت يلتصق بخفّة بنعل حذائه الموكاسّان.[1]

أسعده هذا الاحتكاك، وكان يبتسم أيضاً لنفسه لدى عبوره بوّابة المدرسة وهذه الابتسامة سرت مثل إشارة عفويّة توزّع بركاتها على المراهقين الثلاثة الذين كانوا ينتظرون هناك في الظلّ الهزيل لشجرة المانغا ووجوههم تلتمع في شمس الظهيرة.

كانوا ثلاثتهم من تلاميذه.

وكان رودي ديسكا يعرفهم جيّداً.

كان يشعر نحوهم بعطف خاصّ لأنّهم كانوا سوداً ويتحدّرون من أوساط متواضعة، وكان والد أحدهم، على حدّ علمه، صيّاداً في دار السلام، القرية التي عاش فيها رودي وأهله فيما مضى.

جالساً في سيّارته، في موقف مانيل، تذكّر رودي ما كان يشعر به دوماً حين كان نظره يتركّز على ابن الصيّاد: كان يشعر حياله بعاطفة جامحة، متعمّدة، قلقة، لا علاقة لها بمزايا ذاك الصبيّ، وكان بإمكانها أن تتحوّل فجأةً إلى الحقد دون أن يفطن رودي فعلاً للأمر، أو يدرك أنّ ما كان يحسّ

(1) موكاسّان: حذاء واطئ بلا سيور.

به كان من قبيل الحقد وليس الحبّ تجاه تلميذه.

لأنّ وجه الصبيّ كان يرغمه على التفكير في دار السّلام.

كان يتصدّى بذعرٍ لكلّ ما يمكن أن يذكّره بدار السّلام.

وكان هذا التصدّي يتحوّل إلى عاطفة مسرفة حيال المراهق، تلك العاطفة التي ربّما كانت تضمر حقداً.

ولكن في عزّ ظّهيرة ذاك النهار الجامد، اللّاهب من فصل الصيف، فيما كان يخرج من المدرسة، سعيداً ناعم البال، غمرت ابتسامته الصبْيان الثلاثة على حدّ سواء، وسرت نحوهم، محايدة، راضية، طريّة كمَسْحَةٍ مقدّسة.

فهل استطاع ابن الصيّاد أن يخمّن فجأةً أنّ اللّطف الفائض لرودي ديسكا حياله لم يكن إلّا وسيلة يائسة لاحتواء الحقد الذي أوحى به وجهه الآتي من دار السّلام؟

هل كان ذاك الحقد وقد انكشف أخيراً تحمله ابتسامة الأستاذ عياناً، في ضياء الظهيرة الباهر؟

كان الهواء الحارّ يرتعش.

لم تكن نفحة هواء واحدة تحرّك الأوراق الرماديّة لشجرة المانغا.

كان رودي ديسكا يشعر آنذاك بأنّ الحظّ حليفه، وأنّه في أوج تالّقه.

كانت سنتان قد مضتا على ولادة ابنه جبريل، وكان طفلاً مبتسماً وثرثاراً، ولم يكن يعتريه أيّ خوف من أبيه، ولم يكن أيّ انزعاج يرسم على جبينه غضون الحيرة كما هي حاله اليوم.

سعى رودي للفوز بمنصب أستاذ في جامعة أجنبيّة، وقد سار لقاؤه الأخير مع مدير قسم الآداب القروسطيّة على أكمل وجه، وكان شديد الثقة بأنّ التماسه سيُستجاب إلى حدّ أنّه زفّ لأمّه خبر قبوله عبر الهاتف،

مكتبة

وكان ذلك على سبيل التبجّح الخالص.

ابنكِ، حارس عمركِ الناضج، أستاذ جامعيّ مبرّز في الآداب الكلاسيكيّة.

آه ما كان أعذب الحياة!

حتّى لو لم يكن في طبع زوجته التعبير عن الحبّ، كان يشعر بأن فانتا تحبّه، وأنّها كانت تحبّ عبره الحياة التي صنعاها معاً في شقّتهما الجميلة التي استأجراها مؤخّراً في تلّة داكار.

كان يخطر له أحياناً أنّ فانتا كانت تحبّ الطّفل أكثر ممّا تحبّه هو، أو أنّها كانت تحبّ الطّفل حبّاً مشابهاً، ولكن أقوى، لكنّه كان يعتبر أنّ هذا الحبّ سيكون من طبيعة مختلفة وأنّه لن يخسر شيئاً، من ناحيته.

كان يفكّر بأنّه خسر فعلاً، وأنّها ابتعدت عنه.

ولكنّ ذلك لم يكن يتّصف بأيّة أهميّة.

كان حينئذٍ من الاهتمام برضى فانتا بحيث كان يقبل لا بل يستمتع بأن يراها سعيدة ولو حظي بحبّ أقلّ.

حينذاك، أجل، وحدها ذكريات دار السّلام التي كان يحاول التصدّي له كلّما رأى ذاك الصبيّ كانت ترمي بظلالها على تلك الحياة الكاملة ملوّحةً بانهيارٍ محتمل.

خرج الفتى من تحت ظلّة شجرة المانغا، ببطءٍ وعناء، وكأنّه هو من كان يتوجّب عليه أن يواجه الابتسامة المرعبة لرودي ديسكا.

وبصوتٍ هادئ، واضح، حاسم، قال له:

- يا ابن المجرم!

وقال رودي في نفسه فيما بعد، وها هو الآن يقول مجدّداً في مرآب مانيل

إنّ معنى هذه الكلمات قد طعنه حرفياً في الصّميم، وأكثر منه الوثوق الهادئ لذاك الصّوت الذي لم يتكبّد عناء شتمه، ولم تكن له لياقة أن يشتمه.

كانت الحقيقة المجرّدة تعلن عن نفسها عبر شفتي ابن الصيّاد، دون قصدٍ، لأنّ الأمر كان يفترض به أن يكون كذلك، وربّما كانت ابتسامة الأستاذ هي التي سمحت للحقيقة بأن تبين، تلك الابتسامة الزائفة، المعسولة، المفعمة حقداً وخوفاً.

وضع رودي حقيبته جانباً.

ودون أن يعرف أو يدرك ما الذي كان يفعله، أو ينوي القيام به، انقضّ على عنق الصبيّ.

يا للإرباك الذي هزّ كيانه حين أمسك بإبهاميه الأنبوب الحلَقيّ الرطب لقصبة الفتى الهوائيّة؛ كان رودي يتذكّر هذا أكثر من كلّ الباقي، وكان يتذكّر أنّه لم يفكّر، وهو يضغط على عنق الصبيّ، إلّا بجسد جبريل الصّغير الطريّ، ابنه الذي كان يحمّمه كلّ مساء.

وبطريقةٍ آليّة، قلب يديه ونظر إليهما.

كان يبدو له أنّه استعاد في طرف أصابعه، في طيّات سلاميّاته، هذا الإحساس بالعذوبة المقاوِمة التي أسكرته، والكرة المتحرّكة والقاسية لتفاحة آدم الفتيّة التي ضغط عليها وهو فريسة غضبٍ هاذٍ، مُنْتَشٍ بنفسه.

كانت تلك هي المرّة الأولى في حياته التي يتملّكه فيها غضبٌ مماثل، والمرّة الأولى التي كان ينقضّ فيها على أحدهم، وكان الأمر كما لو أنّه يكتشف أخيراً فرادته الحقيقيّة، ما كان مخلوقاً من أجله وما كان قادراً على منحه لذّة.

سمع تأوّهه ولهاثه هو تحت وطأة الجهد الذي كان يقوم به، هذا إن لم

مكتبة

تكن همهمات الصبيّ التي خالها همهماته.

طرح الصبيّ أرضاً في ملعب المدرسة، متشبّثاً دوماً بعنقه يشدّ عليه بكلّ قواه.

بدأ الفتى يتعرّق بغزارة.

كفى، كفاك لطفاً، هكذا كان يردّد صوت خافت ظافر حاقد في رأس رودي.

ماذا قال السافل؟

- ماذا قلت؟... أقلت «ابن المجرم»، حسناً!، فلنكن مخلصين إذن لدَمِنا أليس كذلك؟

أَمِنَ النوع ذاته كان دم شريك الوالد الذي صبغ إلى الأبد بلاط المصطبة المساميّ الجميل، ودم آبيل ديسكا نفسه ملطّخاً جدار زنزانته في سجن روبوس، ودم هذا الصبيّ، ابن صيّاد دار السّلام، الذي ما كان سيتوانى عن التدفّق من جمجمته لو أنّ رودي نجح في طرحه أرضاً وضرب رأسه بإسفلت الملعب؟

وصرخ تلقائيّاً: أيّها السّافل! دون أن يعرف تماماً، في غمرة نشوته المجنونة، ما السّبب الذي دفعه لشتم ذاك الذي كان يمنحه هذه المتعة.

ثمّ استولى ألم رهيب على ظهره وكتفيه.

أحسّ بعنق الصبيّ المبلّل بالعرق ينزلق من بين أصابعه.

ارتطمت ركبتاه، ثمّ صدره، بالأرض، وانقطعت أنفاسه.

حاول إبقاء رأسه عالياً قدر الإمكان قبل أن تأتي ذراع وتلصقه أرضاً، مجرّحةً خدّه، مخدّشةً صدغه بالحصى الصّغيرة الموجودة في الإسفلت.

سمع لهاث الفتيان وهم يشتمونه.

كانت أصواتهم محمومة، مشوّشة، لا غضب فيها، وكأنّ الكلمات التي كانوا يقولونها تؤلّف جزءاً من العقاب الذي يفترض بهم أن ينزلوه به، بسببٍ من غلطته.

كانوا يتساءلون آنئذٍ ماذا يفعلون به، بأستاذهم الذي يدرّسهم مادة الأدب والذي كانوا يغرزون في حقويه ركبَهم الحادّة، غير مدركين حجم الألم الذي كانوا يتسبّبون له به.

هل كانوا يخشون إنْ أفلتوه أن يهاجمهم من جديد؟

حاول أن يغمغم كلاماً مفاده أنّ الأمر انتهى وأنّه لا يجدر بهم أن يخشوه ولكنّ كلّ ما استطاع فعله هو إسالة لعابه فوق الزّفت.

وإذ أراد الحراك، خُدشت شفتاه الملتصقتان أرضاً.

أدار رودي سيّارته، ووضع عتلة السيّارة الخلفيّة فتحرّكت النيفادا القديمة من مكانها، هادرةً، نافثةً الدخان.

وفيما كان، طيلة أربع سنواتٍ خلت يصوغ بإتقانٍ نظريّة التوحّش المطلق لأولئك الصّبيان الثّلاثة الذين اعتدوا عليه وعنّفوه بلا داعٍ، ها هو يدرك الآن أنّ تلك النظريّة كاذبة. آه، كان أدرك ذلك لكنّه أبقى على جهله، وها هو الآن يذعن ويتذكّر اللّطف، والإحراج، والدّهشة التي رآها على وجوه الصبيْة حين كانوا يسعون لإبقائه جامداً مسبّبين له، دون أن يعوا ذلك، ألماً لن يُشفى منه أبداً، لأنّهم كانوا يبحثون عن وسيلة لإيجاد مخرجٍ ما، مع الحفاظ على كرامتهم وسلامتهم، وأيضاً على كرامة الأستاذ وسلامته، ولم يكن لديهم أيّ رغبة بالانتقام، ولا أيّ نيّة في احتقاره على الرغم من الرّعب والألم الذي كان ألحقه للتوّ بفتى دار السّلام.

مكتبة

أدرك، وهو يسمعهم يتكلّمون فوقه، مصغياً إلى أصواتهم المتوتّرة، الذاهلة، المجرّدة من الحقد، أنّهم كانوا مقتنعين تماماً، بحسّهم السّليم كمراهقين، أنّ الأستاذ كان قد انفجر غاضباً، وقد فاجأهم أنّ هذا الغضب كان صادراً عن هذا الأستاذ بالذات.

أمّا رودي، من جهته، فكان يكره فتى دار السّلام.

كما يكره حتّى هذه اللحظة وهو في موقف السيّارات التابع لمؤسّسة مانيل، تلامذته الثلاثة الذين جعلهم مسؤولين في سرّه عن عودته المكرهة إلى جيروند[1]، وعن همومه، وعن شقائه.

فكّر وهو يغادر الموقف لكي يستقلّ الطريق أنّ مشاعر الضّغينة الشاملة والغضب والغبن استولت عليه آنذاك، لحظةَ قرّر أن يعتبر نفسه ضحيّة الفتيان بدلاً من أن ينظر مواجهةً إلى هذا الحقد المتستّر بالابتسامات والصداقة، المتحدّر توّاً من دار السّلام حيث قتل آبيل ديسكا شريكَه.

فكّر: أجل، لا شكّ أنّ سوء حظّه الراهن كان منبعثاً من هناك، من جبنه، ومهادنته لنفسه.

سلك من جديدٍ المسار ذاته الذي اجتازه منذ ساعة ولكن بشكل معاكس، وعند المستديرة، دار بشكلٍ أطول حول التمثال لينحرف بعدئذٍ باتّجاه الطريق الواسعة، المحفوفة بالتّلع العالية التي يوجد في نهايتها منزل السيّدة مينوتي.

وفيما كان يتساءل عمّا إذا كان يجيز لنفسه الطلب من مينوتي بالسماح له باستخدام هاتفها للاتّصال بفانتا (يا إلهي ماذا تفعل الآن، وفي أيّ حال نفسيّة تراها تكون؟) لاحظ البطن الفاتح والأجنحة العريضة البنيّة اللّون

---

(1) إقليم فرنسي تابع لمنطقة أكيتانيا.

لصقر جرّاح يطير منخفضاً قبالته.

نزع قدمه عن دوّاسة البنزين.

كان الصقر ينقضّ على لوح الزّجاج الأماميّ.

وينشب مخالبه في المسّاحات، ويلصق بطنه بالزّجاج.

أطلق رودي صيحة تعجّب ثمّ أوقف سيّارته فجأةً.

لم يتحرّك الصّقر.

كان جناحاه مبسوطين على امتداد الزجاج الأماميّ، ورأسه باتّجاهه محدّقاً إليه بعينه القاسية الصفراء الراعبة.

ضغط رودي على بوق السيّارة.

ارتجف الصقر الجرّاح بكلّ صدره، ومع ذلك بدا وكأنّه يغرز مخالبه أكثر في الزجاج، ومن دون أن يفارق بنظرته المتوعّدة الباردة وجه رودي، أطلق زعيقاً بدا له وكأنّه زعيق هرّ مسعور.

وبطيئاً، خرج من السيّارة.

ترك باب السيّارة مفتوحاً، لا يجرؤ على الاقتراب من الحيوان الذي واصل التفرّس به بأن حرّك رأسه قليلاً وراح يراقبه بعينه الأخرى بنظرات معاندة باردة.

وفكّر رودي، وقد ذاب حناناً وقلقاً: يا إله والدتي الصّغير الشّجاع، يا أبتي الرؤوف، احفَظْ فانتا من كلّ مكروه.

مدّ نحو الصّقر ذراعاً مرتعشة قليلاً.

غادر الصّقر الزّجاج معاوداً إطلاق زعيقه المسعور المحمّل باتّهام لا يُدحض، ثمّ انطلق في الجوّ بطيرانه الثّقيل.

وإذ حلّق على مقربة من رودي، خدش في طريقه جبينه بمخلبه.

مكتبة

أحسّ أعلى شعره بخفقان جانح ثقيل.

وارتمى من جديد في السيّارة ثمّ أغلق الباب خلفه.

كان يلهث منقطع الأنفاس بحيث شعر لوهلةٍ أنّ هذه الضجة كانت آتية من شخصٍ آخر، ولكنّ هذا غير صحيح، كان ذلك الصفير الهلِع المندهش يخرج فعلاً من فمه.

التقط المنشفة على المقعد الخلفيّ ووضعها على جبينه.

ثمّ تأمّل طويلاً، مذهولاً، المنشفة الملطّخة بالدم.

كيف بإمكانه أن يؤكّد لفانتا رؤيته الجديدة لما حلّ بهما؟

كيف كان بإمكانه أن يُفهمها أنّه مهما قال لها ذاك الصّباح، ومهما تكن الكلمات التي نطق بها فظّة مع أنّه لم يكن واثقاً من تذكّرها، فإنّه غدا رجلاً مختلفاً، وفي قلب ذاك الرّجل لن يجد الغضب ولا الكذب موطناً لهما؟

كان يفكّر، مرتعباً، ومتحسّساً بحذرٍ بإصبعه جرح جبينه: لم يعد هنالك من داعٍ يا فانتا أن ترسلي لي هذا الطائر ليعاقبني، لم يعد هناك من داعٍ حقّاً.

واستأنف سيره، وهو يقود السيّارة بيدٍ، ويرفع باستمرارٍ اليد الأخرى إلى جبينه متلمّساً بدهشةٍ الجرح الذي كان على شكل فاصلة.

وردّد بطريقةٍ آليّة: هذا ظلم، هذا ظلم!

وعلى مسافة أبعد قليلاً، توقّف أمام منزل مينوتي.

كانت الطّريق محفوفة على طولها بمزارع متواضعة اشترتها أُسَر ميسورة الحال وبادرت إلى إصلاحها من خلال القيام بسلسلة من التغييرات الداخليّة الدقيقة الباذخة، في محاولة منها لطمس الأصول المتواضعة للمنازل (السّطوح الضيّقة، والسّقوف المنخفضة، والنوافذ الصّغيرة) أو على الأقلّ الإيحاء بأنّها منبثقة هي أيضاً من خيار واضح بالطريقة نفسها

التي تمّ فيها انتقاء البلاط المغربيّ، وقساطل النحاس، أو البركة الفسيحة المنغرزة في الأرض.

كان رودي قد فهم أنّ مداخيل مينوتي لم تكن تسمح لها بأن ترفع سقف نفقاتها لتضاهي جيرانها في هوسهم بإنفاق المبالغ الباذخة، وأنّ مطبخها سيبقى الدليل الوحيد لديها لجنون مفاجئ اعتراها طمعاً في الرفاهيّة والتفاخر.

ولاحظ أيضاً، بقلقٍ مفعمٍ بالغضب، أنّ المطبخ كان ذريعة تستطيع مينوتي التعويض بها عن دونيّتها الاقتصاديّة.

وكان يقول في نفسه إنّ هذا يسمّى الخراب الكبير المجتاح.

ترجّل من السيّارة.

ورأى في الحال أنّ الرغبة المدمّرة والمتوحّشة والمشوّشة لمينوتي قضت على أرومة الوِسْتاريّة[1] القديمة، الضخمة كجذع، والضاربة جذورها في الأرض ربّما منذ خمسين عاماً بالقرب من باب المدخل.

حين أتى رودي للمرّة الأولى كانت عناقيد جمّة من الأزهار البنفسجيّة العطرة تتدلّى فوق الباب، وتحت النوافذ ومجاري المياه، ملتفّة حول سلكٍ معدنيٍّ وضعه سكّان المنزل القدامى على طول الواجهة.

وقف على رؤوس أصابعه ليشتمّ الأزهار، مسحوراً بهذا الفيض من الجمال والعطر الممنوح مجّاناً، ومن ثمّ هنّأ مينوتي على بذخ وسْتاريّتها التي كانت تذكّره، آه أجل، كما أفصح عن ذلك، هو الذي لم يكن يتحدّث إطلاقاً عن حياته الماضية، بأزهار الياسمين الهنديّ في دار السّلام.

رأى السيّدة مينوتي تزمّ شفتيها علامة على التبرّم والانزعاج الغامض،

(1) أو الحلوة: جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنيّة.

مكتبة

كأمٍّ توزّع حنانها على أولادها بشكلٍ غير عادل، ونُطري أمامها على الولد الذي لا تحبّه.

وبنبرةٍ جافّة، متذمّرة، بدأت تشكو العمل المرهق الذي يتطلّبه تنظيف الأوراق المتساقطة في الخريف، الأوراق الجمّة وبتلات الورد اليابسة.

ودلّت رودي على شجرة بيغنونيا ضخمة بجانب بيتها وشرحت له كيف أنّها حسمت أمرها معها بعدما تجرّأت على أن تجعل أزهارها البرتقاليّة المتداخلة بجنونٍ تعترش على الملاط الرماديّ.

كانت الأغصان الرّهيفة، والأزهار اللّامعة، والجذور الصّلبة، والتويجات اليابسة... كان كلّ ذلك يضطجع أرضاً معدّاً للحرق، ومينوتي تشير إليه بازدراء متفاخر، هي البطلة في معركة انتصرت فيها بيسرٍ تامّ.

مرهقاً، تبعها رودي وهي تقوم بدورة حول الحديقة.

كانت الحديقة تعرض ببؤسٍ آثار معركة عبثيّة متوحّشة بقدر ما كانت عشوائيّة.

كانت النشوة المدمِّرة العاصفة بالسيّدة مينوتي، التي أرادت تجريد الحديقة واقتلاع كلّ ما فيها وزرع العشب الأخضر، قد انقضّت على سياج النيريّة[1]، وشجرة الجوز القديمة التي قُطعت من أسفلها، وشجرات الورد العديدة المجتثّة من جذورها، ثمّ أعيد غرسها في مكان آخر، بعد أن فطنت مينوتي لذلك، وكانت تحتضر.

كانت مينوتي تسير راضية لتثبيتها حقّ الملكيّة بفضل الدّمار، وكأنّ لا شيء، فكّر رودي وهو يراها ترفل بوركيها العظيمين بين كومتين من أشجار البقس المعمّرة المقتلعة، كان يبرهن على شرعيّة جبروتها بأفضل

(1) جنس شجر حرجيّ من الفصيلة البلوطيّة.

ممّا يفعل تبديدها للعمل الصّبور، ولتلك الشواهد على الذوق البسيط المرهف لكلّ أطياف الساكنين الكثر الذين تقدّموها في هذا البيت، والذين زرعوا وبذروا ونسّقوا نباتات الحديقة.

وها هو يتحقّق من أنّ مينوتي قطعت الوستاريّة.

لم يكن مندهشاً لكنّ مرآها أثار اضطرابه.

كان المنزل الصّغير ينتصب، مجرّداً، صارماً، مختزلاً بحزن إلى تفاهة محتوياته بعد أن كانت الأوراق تحجبها.

من النبتة الباذخة، لم يتبقّ إلّا بضع سنتمترات من جذعها فوق مستوى التراب.

اقترب رودي، بخطى بطيئة، من الباب الصّغير.

نظر إلى الواجهة العارية، وشهق باكياً.

مينوتي التي فتحت بابها لدى سماعها ضجّة السيّارة، وجدته هكذا، جامداً أمام الباب الصّغير ووجنتاه مبلّلتان بالدّموع.

كانت ترتدي لباساً رياضيّاً بنفسجيّاً.

كان شعرها قصيراً، رماديّاً، ونظّارتاها لهما إطار ضخم من البلاستيك الأسود، وكانتا تعطيانها هيئة غاضبة باستمرارٍ لولاها، هكذا لاحظ رودي، لَبَدا واجهها كمثْلِ وجه امرأةٍ ضائعةٍ، عزلاء.

هتف قائلاً:

- لم يكن يحقّ لكِ أن تفعلي ذلك!

- أفعل ماذا؟

كانت مينوتي تبدو مستاءة.

وعندئذٍ استعاد في فمه طعم الحديد ذاك، طعمَ دمٍ غامضٍ كان يتصاعد

مكتبة

من حلقه لدى التفكير في مينوتي، في ما كان يتوجّب عليه أن يفعل بعدُ من أجل مطبخها، على الرّغم من كلّ ما فعله سابقاً وأهمله بطريقة غامضة على سبيل التّعب، ثمّ نسيه.

لم يكن في تلك اللحظة يتذكّر إلّا تقاعسه عن واجبه، وليس موضوع هذا التقاعس.

- الوستاريّة! ماذا فعلتِ بها! لم تكن لكِ!

فقالت مينوتي بغضب:

- لم تكن لي؟

- كانت تنتمي... إلى نفسها، إلى الجميع...

وتهدّج صوته متلاشياً في الشعور بالحسرة وإدراك اللّاجدوى.

كان الأوان قد فات، فات على أيّة حال.

ألم يكن يجدر به أن ينقذ تلك الوستاريّة الرائعة؟

كيف أمكن له أن يتخيّل أنّ مينوتي سوف توفّرها؟

كيف أمكن له، بعد أن لاحظ قسوة مينوتي حيال طبيعة لم تكن تراها إلّا معادية ومهدِّدة بالاجتياح، أن يشيح بوجهه متغاضياًعن الوستاريّة التي صدر حكم الإعدام المتوحّش بحقّها من فم مينوتي حين ذكرت معاناتها مع الأوراق المتساقطة؟

دفع الباب الصّغير، وصعد الدرجات القليلة لدرج المدخل.

كان البيت ينتصب الآن وحيداً وسط المساحة المعشبة، وكانت الشمس تضرب مينوتي بسياط أشعّتها.

كانت الوستارية تظلّل بنعومةٍ هذه الشرفة نفسها، وهذه العتبة الإسمنتيّة نفسها، حسبما كان رودي يتذكّر والغصّة في قلبه... أفلم يكن

هناك أيضاً في الزاوية شجرة غار هائلة ضخمة ترسل عطرها المنكّه في الهواء الحارّ؟

اختفت شجرة الغار هي أيضاً، كالباقي.

ثمّ اشتمّ رائحة جورة صحيّة تطفو حول مينوتي.

- سيّد ديسكا، أنت شخص فاشل، أنت مسخ.

كانت عيناه لا تزالان رطبتين لكنّه لم يكن يبالي بما يمكنها أن تفكّر به (كان الأمر كما لو أنّ العار الذي لا يزال يجدّ للّحاق به لم يعد قادراً مع ذلك على إدراكه)، وهو يواجه النظرة المصدومة لمينوتي.

وفهم أنّها تخطّت بعيداً حاجز الاستنكار، وأنّها في تلك اللّحظة كانت تتسكّع في منطقة حائرة، قريبة من اليأس ومن امتعاضٍ ما، حيث أدنى إزعاج يمكنه أن يبدو لها وكأنّه تعدٍّ سافر.

وفهم أيضاً أنّها كانت، على طريقتها، ذات صدقٍ مطلق.

وعندئذٍ، شعر بالإشفاق الغامض في داخله يغالب الحقد، وكذلك بتعبٍ وإرهاقٍ مفاجئين.

وعندئذٍ هاجمت نوبة جديدة من الوخزات إسته ولم يقم بأيّ جهد، مفكّراً بالوستاريّة القتيلة، لكي يداري حياء مينوتي المحتمل، وحياءه بالذات، الحائر والمرهَق.

ومن فوق بنطال الجينز السميك أخذ يحكّ مؤخّرته بطريقة عنيفة شرسة.

لم يبدُ أنّ مينوتي لاحظت ذلك.

كانت تبدو آنئذٍ متردّدة بين ضرورة أن تدخله إلى المنزل (بدأ يستشفّ طبيعة المشكلة، ومأخذهاعليه) وبين رغبة شبه عارمة في مقاطعته بشكلٍ

مكتبة

حاسم.

وأخيراً استدارت ملوّحة بيدها في الهواء مشيرةً إليه بأن يلحق بها دون تردّد.

رأى كتفيها ترتجفان لفرط ما كانت منفعلة.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يعود فيها إلى هذا المنزل منذ سجّل قياسات المطبخ منذ بضعة أشهر.

وعندئذٍ، وفيما كان يلحق بمينوتي ويجتاز المدخل فغرفة الطّعام، أخذت الأمور تنجلي لبصيرته بصعوبة، وكان إحساس بالبرودة يغمر أحشاءه، ويتّضح في ذهنه حجم خطئه، وإذ بهذا الخطأ يصفعه على وجهه بكلّ قساوته البديهيّة.

توقّف عند عتبة المطبخ.

مصعوقاً، وجد مشقّة في تمالك قهقهةٍ هستيريّة.

ثمّ حكّ مؤخّرته بجنون، دون تفكير، فيما كانت مينوتي تتهاوى على كرسيّ لا يزال مغلّفاً بالبلاستيك.

وكانت ترفع بإصبع، دون توقّف، وعبثاً، نظّارتيها على أنفها بغضب متوحّش.

وكانت ركبتاها تنتفضان بحركة لا إراديّة.

وهتف رودي مذهولاً: يا إلهي! يا إلهي!

كان يشعر آنئذٍ بوهج المهانة يتصاعد إلى عنقه وخدّيه ويلهبهما.

كيف استطاع، هو الذي عمل بجهدٍ كبير، أن يرتكب مثل هذا الخطأ في الحساب؟

كان يعرف نفسه قليل البراعة في هذا المجال لكنّه أراد أن ينمّي غروراً

خفيّاً يعوّض به عن افتقاره للموهبة في تصميم هذه المطابخ التي يمقتها لكنّه أعاق بذلك كلّ تحسّن ملحوظٍ في مهاراته.

لم يكن يريد أن يحسّن أداءه في هذه المهنة.

كان يبدو له أنّ إعراضه ذاك كان يقيه من الاضمحلال الكامل للعِلم الواسع الذي اكتسبه في حياته السابقة، ولتلك المعارف المرهفة والنادرة التي لم تعد لديه القوّة ولا الشّجاعة ولا الرّغبة، منذ زمن طويل، في تنميتها وصيانتها وكانت تفقد بالتالي من رسوخها ودقّتها.

ولكنّه كان يرى مصدوماً أنّ خطأً مماثلاً في الحساب كان مثيراً للسخرية والشفقة ليس إلّا، ولم يكن يفيد بشيءٍ الرجلَ المرهف الذي اعتقد أنّه كانه، آه، لا، هذا لا يعود عليه بأيّ فائدة، إطلاقاً!

تقدّم بخطواتٍ حذرة.

التقت عيناه بعيني مينوتي وتذكّر الوستاريّة فامتلأ قلبه ضغينة من جديد فأشاح بوجهه عنها مع أنّ نظراتها بدت له آنئذٍ مفرغة من الحقد المروّع الذي لمحه فيها منذ قليل.

حتّى إزاء الكارثة، أرفض مساندتها، لو كانت تدعوني إلى ذلك فعلاً.

لأنّه كان يشعر لديها في تلك اللحظة باغتياظ لا شخصيّ يلتمس عوناً، وسنداً، وكأنّهما كانا ينظران كلاهما إلى عواقب خطأ ارتكبه طرف ثالث.

عندئذٍ تجاسر على التقدّم إلى وسط الغرفة وصولاً حتّى طاولة العمل، المربّعة، المجهّزة بصفيحةٍ واسعةٍ للطهي وبشفّاط على شكل جرس، وكانت الطاولة ملبّسة بالرّخام والأردواز، ويفترض بها أن تشكّل جوهر هذا المشهد المتحجّر، المخيف للزوّار، الذي صار يشكّله المطبخ لمينوتي.

كانت طاولة العمل موضوعة في مكانها وكان قسطل شفّاط التهوئة

مكتبة

يمرّ عبر السّقف.

ومع ذلك فإنّ صفيحة الطّهي لم تكن تحت الشفّاط بل على مسافةٍ بعيدة منه، وأدرك رودي في الحال أنّه، إذا حاول أحدهم أن يغيّر الطّاولة لكي يضع الصّفيحة في مكانها الصّحيح، فسيصبح من المستحيل الالتفاف حولها بسهولة.

لم يكن رودي ديسكا بكلّ بساطة قادراً، مع كلّ تلك الحسابات التي تطلّبت استثمار كلّ ذكائه وطاقته الذّهنيّة، على أن يحدّد بدقّةٍ موقع الشفّاط وتحته شعّالات المطبخ الأربع.

قالت مينوتي بلهجةٍ محايدة:

- سيطردونك يا رودي العزيز من عند مانيل.

وتمتم رودي بالقول:

- نعم، أخشى ذلك فعلاً.

- كان عليّ أن أدعو بضعة أصدقاء غداً لأريهم المطبخ. عليّ الآن إلغاء كلّ ذلك.

قال رودي:

- هذا أفضل.

شعر بالإعياء فجذب نحوه كرسيّاً لا يزال في غلافه وتهاوى عليه.

كيف سيتمكّن من إقناع نفسه بأنّ طرده من مؤسّسة مانيل ليس بكارثة؟

ماذا سيصير بحالهم ثلاثتهم؟

كان يشعر بحماقته وبإخلاله بالواجب حيال مينوتي لا سيّما وأنّه لم تكن لديه الشجاعة لاستكشاف هذا الوعي المبهم، السرّيّ، المزعج الذي أحسّ

به منذ بعض الوقت، وإلّا لكان استطاع ربّما استدراك الخطأ وتصحيحه قبل المباشرة بالأعمال.

ولكنّه أخفى عميقاً هذا الشعور لكي لا يزعجه، تماماً كما طمس، لغاية اليوم، معالم الحقيقة المتعلّقة بفتى دار السّلام، وبكلّ قصة دار السلام.

ماذا سيصير بحالهم ثلاثتهم لو خسر معاشه؟

همس:

- ومع ذلك كنت أعرف ذلك، كنت أعرف أنّني أخطأت!

- أحقّاً؟ قالت مينوتي.

- نعم، نعم... كان يجدر بي... أن أجرؤ على مواجهة هذا الاحتمال... احتمال أن أخطئ، لكنّي فضّلت التغاضي عن ذلك.

نظر إلى مينوتي التي نزعت نظّارتيها لتمسح زجاجهما بقميصها، ولاحظ أنّ وجهها كان هادئاً، وكأنّها، إذ قيل كلّ شيء عن المشكلة، لم يعد هناك من داعٍ لبقائها غاضبة.

لاحظ أيضاً أنّ ملامح وجه تلك المرأة كانت مرسومة بشكلٍ متقن خلف الإطارات السميكة لنظّارتيها اللّتين تخفيان عادةً رقّتها.

ولكن ماذا سيصير بحالهم؟

كان يسدّد كلّ شهر خمسمائة يورو قسطاً للمنزل، فماذا سيصنع بهذا المنزل وبحياته مع عائلته؟

سألته مينوتي:

- هل تريد قهوة؟

فوافق على الأمر مندهشاً.

تذكّر رائحة القهوة الدّسمة المنبعثة من أنفاس مانيل.

مكتبة

- منذ وقتٍ طويل وأنا أرغب في فنجان قهوة.

قال ذلك وهو يلاحق بنظراته مينوتي التي كانت تنهض ببطء لتجلب ركوة وتملؤها ماء، ثمّ جثمت بردفها على المنضدة الجديدة لكي تعاير القهوة في المصْفاة.

لم يستطع الامتناع عن القول:

- على أيّة حال لم تكن الوستاريّة لتزعجك وكانت جميلةً جدّاً.

لم تلتفت مينوتي ناحيته ولم تجبه، كانت لا تزال شبه جالسة على طاولة العمل، متنبّهة إلى ما كانت تقوم به.

لم تكن قدماها المنتعلتان حذاء رياضيّاً تلامسان الأرض.

وعادت إلى ذاكرته بقوّةٍ صورة قدميْن أخريْين لا تلامسان الأرض أو تبدوان وكأنّهما لا تلامسانها إلّا قليلاً، قدميْ فانتا الرشيقتين، اللّتين لا تكلّان وهما تطيران فوق أرصفة داكار، وفكّر: قطعْتُ تلك الوستاريّة، وفكّر أيضاً، وجبينه يعرق من الحسرة، إنّها تلك الوستاريّة التي قطعتُها، لم يكن بإمكانها أن تزعجني وكانت في غاية الجمال، وترك في قعر حلقه الكلمات القاسية التي وجّهها إلى مينوتي بخصوص الوستاريّة التي قطعتْ جذعها.

كان جبينه يتصبّب بعرق بارد مرير.

وكان يبدو له مع ذلك، على ضوء الاعترافات التي كان يقبل في أن يجيزها لنفسه أنّه بدأ يخرج من الحلم القديم، من الحلم السابق الذي لا يُطاق الذي خلاله، مهما قال ومهما فعل، فلن يقدر على...

- تفضّل.

قالت مينوتي وهي تقدّم له فنجاناً مترعاً.

وسكبت لنفسها فنجاناً بدورها. وعادت لتجلس على كرسيّها.

كان غلاف البلاستيك يحدث صريراً لدى أدنى حركة.

واحتسيا القهوة بجرعاتٍ قليلة، دون أن يقولا شيئاً، وشعر رودي بنفسه هادئاً، شجاعاً، وكان العرق البارد المرير قد جفّ على جبينه، مع أنّه كان يرى أنّ وضعه، من الناحية الموضوعيّة، لم يكن مزرياً إلى هذا الحدّ.

وقال بصوتٍ هادئ وكأنّه يتكلّم عن شخصٍ آخر:

- لن أبحث عن عملٍ في هذه النواحي.

وأجابته بنفس النبرة الباردة الهادئة، الهانئة وهي تتلمّظ في إشارة منها إلى أنّها أنهت قهوتها واستمتعت بها للغاية:

- لا حظوظ البتّة في إيجاد عملٍ في هذه النواحي.

سألها بشيءٍ من الإحراج:

- هل أستطيع استعمال هاتفك؟

وتقدّمته في الصالون حتّى الهاتف الموضوع على طاولة صغيرة.

ومكثت قربه جامدة (لا تتحرّك إلّا لكي تسوّي عبثاً نظّارتَيها على أنفها) ليس لكي تراقبه، حسب اعتقاده، بل لكي لا تبقى وحيدة في مطبخها المريع.

- ألا تملك هاتفاً محمولاً؟

- لا، أصبح باهظ الكلفة عليّ.

وجّه الشعور بالمذلّة ضربة قاسية إلى إبائه ووعيه اللذين كانا لا يزالان هشّين، لكنّه كان يشعر أنّ هجمات المذلّة نفسها كانت ناتجة عن العادة، وكان يتوجّب عليه، هو رودي، ألّا يستسلم للعذاب الذي تسبّبه، وألا يستسلم أيضاً للارتياح المُفارِق الذي يثيره هذا الإحساس المعهود.

مكتبة

وأصرّ قائلاً:

- كان باهظ الكلفة حقّاً، ولم يكن ضرورياً.

قالت مينوتي:

- حسناً فعلتَ إذن.

وأضاف:

- تماماً كمطبخك، باهظ الثّمن جدّاً وغير ضروريّ.

بقيت جامدة، محدّقة إلى المكان أمامها بنظرةٍ أليمة.

أحسّ أنّ الوقت لا يزال مبكّراً لتتخلّى مينوتي عن آمالها بالسعادة، والراحة، والشعور بالانسجام، والسلام، التي ستتحقّق لدى اكتمال المطبخ المجهّز عند مانيل، وأنّ هذا التخلّي لا يزال يتعدّى حدود قدرتها.

على أيّة حال ألم يكن قد وعدها بذلك ضمناً حين اتّصلت به ذات مساء وكانت في حالة ضياع، وأحسّ بأنها تراجعت عن قرارها في تغيير مطبخها، فراح يقنعها بأنّ فرصة الفوز بحياة منسجمة ممتعة ومرسومة الأهداف لن تكون متاحة أبداً في مطبخ قديم وأثاثه يفتقر إلى التناسق؟

وطلب من جديد رقم منزله.

ترك الهاتف يرنّ طويلاً، طويلاً جدّاً بحيث إنّه لو ردّت فانتا على المخابرة في تلك اللحظة، لشعر فوراً بالقلق أكثر ممّا بالارتياح.

ولكي يتحايل على الانتظار، أمسك دليل هاتف خاصّ بالمنطقة وجده قرب الهاتف، وراح يتصفّحه بيده التي ذهبت توّاً، مطاوعةً إرادتها بالذّات، إلى اسم النحّات غوكلان، ولاحظ بشيء من الانزعاج أنّه يسكن على مسافةٍ قريبة، في حيّ استثمره مؤخّراً سكّان مدن قدامى وأثرياء كانوا يشترون، على غرار جيران مينوتي، أملاكاً زراعيّة ويحوّلونها بإنفاق مبالغ

هائلة إلى منازل فخمة.

لاحقاً، حين أصبح على مدخل الدرج، متهيّئاً لتوديع مينوتي، شعر بأنّه يشمّ رائحة أزهار الوستاريّة.

كان يقف منتصباً في الشمس الحارقة حين فاح العطر الثقيل المُسكر للعناقيد البنفسجيّة، ذاك العطر الذي ملأ أنفه لبضعة أسابيع خلت وغمره بشعور من الامتنان، ليباغته من جديد ويثير فيه الاضطراب.

تساءل في نفسه إن لم تكن تلك النفحات التي ربّما كانت تنبعث من الكومة الهزيلة لبقايا الوستاريّة قرب المنزل، والتي تبثّ أريجها للمرّة الأخيرة، تقول له، على طريقتها: لم تفعل شيئاً من أجلي، ولم تحاول شيئاً، والآن فات الوقت وها أنا أموت ببطء متحلّلة في عطري!

وأقتمَ فيض من الضغينة وجهه.

ولكي يخفي ذلك، خفض رأسه ووضع يده في جيوبه الخلفية.

ومن أحدها انتشل واحداً من كراريس أمّه ثمّ قدّمها لمينوتي بحركة مفاجئة.

وقرأت بصوتٍ عالٍ:

- إنّهم بيننا.

بدت حائرة:

-من هم؟

قال رودي متظاهراً بأنّه على سجيّته:

- ما بالك! الملائكة.

وضحكت وهي تدعك المنشور دون أن تفتحه.

شعر بالإهانة من أجل أمّه وبالغضب يتصاعد في داخله فاجتاز بسرعةٍ

مكتبة

درجات المدخل القليلة، وهرع راكضاً حتّى سيّارته.

كان يقود سيّارته ببطء، لا يلوي على شيء، مفكّراً أنّ من غير المجدي حقّاً أن يعود ثانية إلى مؤسّسة مانيل بعد أن فقد اعتباره على نحوٍ جادّ.

وكان شعور ما بالقهر يصوّر له فكرة فشله أكثر إيلاماً، لأنّه كان سيفضّل أن يرحل من عند مانيل من تلقاء نفسه، لا أن يُطرد بسبب خطأ فادح في الحساب في عملٍ منحه الكثير من نفسه، ولكن، وإزاء الرعب الكبير الذي كان يصوّره له مستقبله كان يعقب ذلك شعور بأنّ كلّ شيء كان مندرجاً في سيرورة طبيعيّة للأشياء، ممّا خفّف ذعره.

لا يجدر به أن يمضي حياته عبثاً عند مانيل.

كان رأسه يدور به قليلاً.

كيف استطاع أن يتحمّل أربع سنوات من حياته على هذا المنوال؟ كان يقرّ بأنّ السؤال لم يكن إلّا نظريّاً، دهشة مصطنعة وشكليّة بحتة، فهو يعرف تماماً كيف يحتمل المرء في الواقع سنوات طويلة من الحياة التافهة.

لكنّ الأمر الذي كان يجهله بالأحرى هو ماذا كان سيحصل لو أنّه لم يحتمل هذه السنوات المريرة التعسة؛ أيّ رجلٍ كان سيكون وماذا كان سيصير بحاله لو أنّه لم يتحمّل مثل هذه التفاهة؟

هل كانت حياته ستصبح أفضل أم أنّه كان سينحدر إلى منزلة أدنى ممّا هو عليه اليوم؟

وماذا كان سيصنع بنفسه؟

آه، لا، لم يكن يصعب عليه كثيراً الاعتياد على العيش في القرف من الذات، وفي المرارة والفوضى.

حتّى أنّه اعتاد على حالة غضبه الدائم، الذي لم يكن يكاد يحتويه،

وانتهى به الأمر إلى الاعتياد أيضاً على العلاقات المتوتّرة والباردة مع فانتا والطفل.

واستولى عليه دوار جديد لدى التفكير في أنّ عليه أن يتصوّر حياته بشكلٍ مختلفٍ تماماً مع أسرته، ومع أنّه طمح منذ وقتٍ طويل لاستعادة الحبّ والعطف اللّذين كانوا عاشوا في كنفهما معاً قبل رحيلهم إلى فرنسا، فإنّ ذلك كان يقلقه، بطريقة غامضة. هل كانت فانتا ستعرفه في الحال التي أصبح عليها؟ ألم تكن من التعب والحذر والارتياب بحيث يصعب عليها موافاته إلى حيث يعتقد أنّه وصل؟

أتيْتَ بعد فوات الأوان وأنا أحتضر.

أين بإمكانها أن تكون في هذه اللّحظة بالذات؟

ها إنّه يخاف العودة إلى منزله بالرغم من رغبته الجامحة في ملاقاة فانتا.

وضع يده على جبينه متحسّساً الجرح الطفيف.

لم يعد هناك من داعٍ يا فانتا لأن ترسلي لي هذا الطائر الرّهيب الديّان.

كان صوت ينعق في روحه: أتيْتَ بعد فوات الأوان وها أنا أحتضر، قدماي مقطوعتان، وسقطتُ على أرض منزلك المعادي لي، أتيت بعد فوات الأوان.

كان يحسّ بالجوع، وكانت قهوة مينوتي تتسبّب له بعطشٍ شديد.

أبطأ القيادة وقد خفض كلّ الشبابيك، على الطريق الساكنة بين أسيجة العفص والتسويرات البيضاء التي كانت تلتمع خلفها أحياناً مياه بركة زرقاء.

كان قد ترك خلفه المحلّة حيث تسكن مينوتي، وإذ رأى أنّ الحيّ الذي وصل إليه كان مؤلّفاً من منازل أرقى، مرمّمة حديثاً بطريقة مترفة، فكّر بأنّه

مكتبة

كذب على نفسه من جديد وهو يتظاهر بقيادة السيّارة دون هدفٍ محدّد. فكّر، مستاءً، غاضباً من رودي ديسكا لأنّه كان يجدر به الاعتراف بأنّ الرغبة في المجيء ليدور حول منزل غوكلان، قد راودته منذ رأى عنوان النحّات في دار مينوتي، لا بل منذ وقتٍ طويل عندما قرأ أنّ غوكلان تلقّى من المدينة حوالى مئة ألف يورو لقاء إنجازه تمثال المستديرة، ذاك الذي يشبه وجهه وجه رودي.

فكّر وقد ألهبه الحرّ والعطش: آه، ألم يكن يعاود الدخول في متاهات هذا الحلم المرير والرّتيب في آن، هذا الحلم العسير والمذلّ الذي كان قد بدأ لتوّه يصحو منه، بفعل الإرادة؟

ألا يجدر به أن ينسى غوكلان ذاك الذي ألهمه غضباً عارماً مليئاً بالحقد والتجنّي والسفاهة؟

لا شكّ أنّه يتوجّب عليه النسيان، وهذا بالضبط ما سيفعله، عليه الكفّ عن التفكير في أنّ هذا الشّخص كان يضطلع بمسؤوليّة غامضة ورمزيّة في انعدام حظّ رودي ديسكا، وأنّه هزئ خفية من رودي ديسكا ومن براءته لكي يزدهر فيما رودي...

آه، كان هذا محالاً، ولكن مجرّد التفكير فيه كان يجعله متجهّماً قلقاً.

كان يستعيد تلك الصّورة في الجريدة المحليّة، صورة غوكلان ذاك بضرسه الناقص، ووجهه العريض، ومظهره المدّعي، وبدا له أكيداً أنّ الرجل سلبه شيئاً ما، على غرار أولئك الأدهياء المتخابثين الذين كانوا يستغلّون عجز جميع أشباه رودي ديسكا لكي يأخذوا حصّتهم من مأدبة الثروة الكبيرة.

نجح غوكلان، ذاك الفنّان الرديء، لأنّ رودي كان يتعفّن في الفقر،

وليس لأنّ الأمر كان عرضيّاً، وكان عقل رودي غير قادر على إغفال هذه العلاقة بين السبب والنتيجة.

كان الآخر يزدهر على حسابه.

وكانت هذه الفكرة تجعله مجنوناً.

وأكثر من ذلك...

كان يبتسم بصعوبة، ابتسامة صفراء تمطّ شفتيه الجافّتين، المتلاصقتين! كم كان عطِشاً!

وأكثر من ذلك... ربّما كان الأمر يبعث على السّخرية ولكن هذا ما كانت عليه الحال، وكان الأمر جليّاً ساطعاً جلاء الحقائق المتعذّر إثباتها: كانت روح رودي المهانة ترفرف دون حقد، فاستولى الآخر عليها ليصنع عمله الرذيل، تمثال رجل يشبه رودي حتّى في وضعيّة خضوعه الغضوب وجزعه.

نعم، يكاد يجنّ لدى تصوّره أنّ غوكلان استغلّه، حتّى لو لم يلتقِ به، وأنّ أشباهه كانوا يستغلّون ثقة أولئك الذين لا يحتاطون لتحصين أنفسهم، ويفيدون من ضعفهم وجهلهم.

أوقف سيّارته أمام بوّابة جديدة من الحديد المطروق الأسود المزيّن بمسامير ذهبيّة.

فكّر وقد شعر بذهول خفيف: هنا إذن يسكن غوكلان، في هذا المنزل الكبير ذي الحجارة النافرة المصقولة المجصَّصة ثغراتها حديثاً.

كان سطح القرميد جديداً، ولامعاً كان طلاء النوافذ الأبيض، والمصاريع، وفسيحة كانت السطيحة التي تضمّ طاولة ومقاعد من الخشب الفاتح اللون، والتي تفيّئها مظلّة صفراء.

مكتبة

كان مستحيلاً، فكّر رودي، أن تكون الحياة تعيسة في منزل مماثل.

كم كان يودّ أن يعيش هنا مع فانتا والطفل!

لم تكن البوابة إلّا صوريّة لأنّها لم تكن تقي من شيءٍ وهذا تفصيل لفت نظره بشكلٍ خاصّ: من كلّ جهة من عمودي الحجارة وحتّى السياج المصنوع من نبات جنبة الرّباط، كان هناك فتحة تسمح بالعبور بسهولة.

نزل من السيّارة وأغلق بهدوء الباب خلفه.

ثمّ انسلّ من الفتحة بالغاً المصطبة ببضع خطوات سريعة.

السكون تامّ.

كيف بالإمكان ملاحظة ما إذا كان ثمّة أحد هناك أم لا في هذه المساكن المجهّزة بمرائب عملاقة؟

هناك حيث كان يعيش رودي أو أمّه، كان وجود سيّارة أمام المنزل يشير بشكلٍ أكيدٍ إلى وجود صاحبه.

انحنى ملتفّاً حول المنزل.

في الخلف، كان هناك باب افترض أنّه يؤدّي إلى المطبخ.

وضغطَ بهدوءٍ على المقبض.

فكّر: وكأنّني أعود إلى منزلي.

وفتح الباب ثمّ دخل وأغلقه وراءه ببساطة.

إلّا أنّه توقّف مترصّداً أيّة حركة.

بعد أن اطمأنّ قبض على قنينة مياه معدنيّة موضوعة على الطاولة، وتأكّد من أنّها لم تكن مفتوحة ثمّ شربها دفعة واحدة مع أنّ الماء لم يكن بارداً.

وفيما هو يشرب، أجال نظره على مطبخ غوكلان الفسيح.

ولاحظ في الحال أنّ تجهيز مطبخ مماثل لا يمكن أن يكون مصدره من عند مانيل، الذي لم يكن لديه شيء بهذه الفخامة، وهذا أغاظه، لكأنّ غوكلان اختار هذه الوسيلة الإضافيّة لكي يمعن في سحقه، هو رودي، من خلال تجهيزه مطبخه على يد منافسٍ أكثر أناقة.

ومع ذلك كان يقدّر ما يراه بصفته خبيراً، كان فعلاً مطبخاً جميلاً ومصمّماً بدقّة ما كان ليستطيع أبداً أن يجاريها.

كان مركز الصدارة في المطبخ تحتلّه قطعة من الرخام الورديّ اللّون تستند إلى مجموعة من الخزائن المطليّة بالأبيض تعانق القطعة البيضويّة بأناقة.

وفوقها، مكعّب من الزجاج، لا بدّ أنّه الشفّاط، ويبدو مثبّتاً في فضاء المطبخ بمعجزة رهافته وحدها.

وكانت الأرض مفروشة ببلاط من الحجر الرمليّ الأصهب على الطريقة القديمة.

وكان البلاط يلمع بخفر في القاعة المشرقة، وقد صُقِلَ مرّات ومرّات.

أجل يا له من مطبخ رائع، هكذا كان يفكّر بغضبٍ مسعور، معدّ ليستقبل كلّ يوم عائلة كبيرة تتجمّع حول أطباق مطهوّة على نارٍ خفيفة، وكان يُخيّل إليه تقريباً سماع غليان قدر من اللّحم في صلصته على الفرن الباذخ المتقن، المزوّد بثمانية مواقد، المصنوع من الحديد الأبيض المصبوب الملمّع البرّاق.

ومع ذلك كان المطبخ يبدو غير مستعمل.

كان الغبار يعلو لوحة الرخام بشكل واضح، وفيما عدا زجاجة الماء، وبضع موزات في الصحن، لا شيء كان يوحي بأنّ طعاماً يُطهى أو أنّ

مكتبة

أدنى وجبة تؤكَل في هذه الغرفة الكبيرة ذات الروافد المبرنقة.

اجتاز رودي المطبخ، ثمّ مدخل المنزل.

كان واعياً مرونتَه، وخفّته، وأناه المتجدّدة التي لا تقهر.

وكان الهواء المكيّف يضاعف ثقته بنفسه لأنّ كل تعرّق فائض فارقه.

وتحسّس على صدره، وفي ظهره، القطنَ شبه الجافّ لقميصه القصير الكمّين.

آهٍ، قال في سرّه مندهشاً، لم أعد خائفاً من شيءٍ الآن.

توقّف على عتبة الصالون الذي كان يطلّ على المدخل في الجهة المقابلة من المطبخ.

كان يسمع بوضوحٍ غطيطاً صاخباً.

وإذ قرّب رأسه، لمحَ كنبة يتكوّم عليها رجل سمين، عجوز، عرف فيه غوكلان الذي كان رآه في الصورة.

كان خدّه متكئاً إلى وسادة الكنبة، وكان الرجل يشخر بتؤدة.

كانت يداه موضوعتين على فخذيه وراحتاه ظاهرتان، وكان يبدو واثقاً هانئاً.

ومن شفتيه المنفرجتين كانت تنبثق أحياناً فقاعة من الريق يجعلها الزفير اللاحق تتلاشى.

قال رودي منقطع الأنفاس: ألم يكن مثيراً للسخرية؟

بنومه هكذا بهناءة فيما...

فيما ماذا؟ تساءل تحت تأثير بهجة شرّيرة، مدوّخة.

فيما يحوم حوله، في منزله المتروك دون حراسة، قاتِلُه ذو القدمين الخفيفتين؟ وذو الذّراع المنتقمة؟

وشعر بأنّه متوقّد الذهن جليُّه.

لا شكّ أنّه يوجد في درجٍ ما من أدراج ذاك المطبخ البديع (درج مزوّد بنابضٍ ويُسحَبُ تلقائيّاً إلى الخارج) مجموعة من سكاكين الجزارة، والأشدّ فتكاً بينها يمكنه النفاذ إلى قلب غوكلان بطعنةٍ واحدة، واختراق الجلد الشَّحيم، والعضل، وطبقة الدّهن القاسية الكثيفة الشبيهة بتلك التي تغلّف القلب الصّغير للأرنب، وتذكّرَ رودي حالاً أحد الأرانب الضخمة التي كان يشتريها أحياناً من السيّدة بولمير وكانت تربيّها في أقفاص تكاد لا تتّسع لها، وكان يفترض به، نظراً لثمنها المؤاتي، أن يسلخها ويفرغها من أحشائها بنفسه مع أنّ ذلك كان يروّعه.

كاد يعود أدراجه ليستولي على هذه السكين الرهيبة ويطعن بها صدر غوكلان.

كم كان يشعر بنفسه هادئاً، جبّاراً، حازماً! كم كان يتذوّق بمتعةٍ هذا الإحساس!

وماذا بعد؟

من سيقدر على اكتشاف الصلة التي تربطه بهذا الشخص؟

كان هو الوحيد الذي يعرف الأسباب التي تدفعه لكره كلّ أمثال غوكلان في هذا العالم.

فكّر في سيّارته النيفادا القديمة المتوقّفة أمام المنزل وكتم ضحكة.

كانت سيّارته المريعة ستشهد على الفور ضدّه، ولكنّه كان أمراً محتملاً جدّاً ألّا يلاحظها أحد في هذا الحيّ الهادئ.

ومع ذلك...

لم يكن يهاب أيّ شيء في هذه اللحظة.

مكتبة

نظر إلى غوكلان بكلّ انتباه، نظر من عتبة الصالون إلى هذا الرجل النائم الذي كان يكسب بوقاحةٍ الكثير من المال.

كانت يداه ترتاحان سمينتين، هانئتين، واثقتين.

وكانت وخزات جديدة تدغدغ إست رودي.

فحكّ مؤخّرته تلقائيّاً.

كان والده آبيل ديسكا معتاداً على الانصراف إلى قيلولته في الغرفة الكبيرة الظلّيلة في منزله في دار السّلام، وكان ينام على الكنبة المصنوعة من السوحر كما ينام غوكلان الآن في أريكته، مستسلماً، واثقاً، غافلاً عن الجرائم التي كانت تدور حوله، غافلاً أيضاً عن الجرائم التي كان يصوغها عقله نفسه المستسلم وقتذاك، المطمئنّ.

مسح رودي ببنطاله يديه اللتين أصبحتا فجأةً رطبتين.

لو أنّ ساليف، شريك أبيه، اغتنم فرصة نوم آبيل، حين كان يخلد بعد الظهر إلى قيلولته مستسلماً مطمئنّاً بكليّته، ليطعنه، لكان ساليف اليوم بالطبع على قيد الحياة، ولما غيّر موت آبيل شيئاً في حتميّة موته لأنّه انتحر بعد بضعة أسابيع من مقتل ساليف.

وتذكّر رودي أنّ ساليف ذاك كان رجلاً طويلاً ناحلاً، بطيء الحركة، حذر الخطى.

هل حدث له أن تأمّل من عتبة القاعة الكبيرة الظلّيلة نوم آبيل، مفكّراً أنّه كان يجهل كلّ شيء عن الجرائم التي تُنسَج في الخيال حوله، وهو مستسلم لأحلام بعد الظُّهر الغريبة؟

هل كره ساليف والد رودي لدرجة أنّه اشتهى قتله بالرغم من راحتيه المفتوحتين على فخذيه، أم أنّه كان يشعر تجاه آبيل بعاطفة لا تتنكّر لها

محاولات الاحتيال نفسها التي كان يقترفها بحقّ آبيل، بما أنّ هاتين النزعتين، المودّة والخيانة، كانتا تتبعان دربَيْهما المختلفين في قلبِ ساليف ونواياه بحيث إنّ إحداهما لم تكن تلغي الأخرى؟

لم يكن رودي يعرف المشاعر التي يكنّها لأبيه شريكه ساليف.

لم يكن يعرف ما إذا كان ساليف قد حاول فعلاً خداع آبيل، أم أنّ آبيل كان مقتنعاً بذلك خطأً، ولكن ها هو يفكّر في ذلك رغماً عنه متذكّراً أباه نائماً في الكنبة المصنوعة من السوحر، وها إنّ فخذيه تصبحان رطبتين ومتلاصقتين، وها إنّ حكاكه يعاوده من جديد فيشدّ ردفيه تارةً ويرخيهما تارةً أخرى مشوّشاً غاضباً مضطرباً.

ظلّ غوكلان ساكناً لا يتحرّك.

عندما يستيقظ، سيدعك يداً باليد الأخرى، يديه اللتين لن تعودا بريئتين مستسلمتين بل نافدتي الصبر، ومتأهّبتين لمعاودة عملهما التافه الذي كان يرد عليهما الكثير من ا لمال، عندما ينهض متثاقلاً عن كنبته المخمليّة المزيّنة بالأخضر الداكن، ويرفع نظراته الماكرة الباردة، سيرى رودي ديسكا جامداً عند عتبة الباب. أتراه سيدرك حينئذٍ أنّ موته، موته الفظيع، الغامض، قد ارتسم في ذهن هذا المجهول، أو أنّه سيظنّ بالأحرى أنّه يرى أمامه وجه صديق غير متوقّع؟ هل سيكون بإمكانه أن يُخدَع بالوجه الحاقد فيحسبه وجهاً سمحاً.

ذات يوم بعد الظّهر، فكّر رودي بشيء من الرّعب، لا بدّ أن والده كان قد أنهى قيلولته، خارجاً من حلمٍ كان يتكرّر رتيباً متجمّداً، وفرك حينها عينيه وخدّيه بيديه اللتين لم تعودا هانئتين بل تهمّان بالقيام بشيء ما، ونهض عن كنبة السوحر بالمرونة الثقيلة للرجل الضخم المفتول العضلات الذي

مكتبة

كانه، ثمّ خرج من الغرفة الظلّيلة والمسكن الهادئ متوجّهاً إلى مكتب ساليف في بنغالو لا يبعد كثيراً عن المنزل، وربّما كانت لا تزال تطفو في أفكاره الضبابيّة بقايا حلم أليم، مهين، غامض، وفيه كان شريكه يحاول أن يسرقه وهو يضع قوائم حسابٍ مضخّمة بشكلٍ مصطنعٍ لبناء قرية العُطَل التي كان آبيل يخطّط لها؛ ربّما لم يطرد من فكره، وهو يمشي باتّجاه بنغالو ساليف، هذه القناعة المضلِّلة المنساقة خلف أحلام تصوّر له أنّ الأفارقة الذين كانوا يحيطون به لم يكن لديهم من هدف آخر إلّا سرقته، حتّى حين كانوا يبادرونه بوجه صدوق أو ودود، حتّى عندما كانوا يشعرون حياله، مثل ساليف، بعاطفة حقيقيّة، لأنّ هاتين الحالتين، الصداقة والخيانة، لم تكونا تمتزجان بل كانتا تتساكنان مستقلّتين تماماً في قلوبهم ونواياهم.

كان رودي يعرف أنّه كان موجوداً في مكانٍ ما بعد الظهر في دارة والده حين بادر والده، مدفوعاً ربّما باليقين الوهميّ لحلمٍ مهين، إلى قتل ساليف أمام البنغالو.

وكان يعرف أيضاً أنّه كان في الثامنة أو التاسعة من عمره تقريباً، وأنّه منذ ثلاث سنوات، مذ ذهب بمعيّة أمّه لموافاة آبيل في دار السلام، كان يخشى أمراً واحداً ينغّص عليه أحياناً سعادته ويحول دون اكتمالها، وهو أن يضطّر، مع أنّ والدته كانت تؤكّد له أنّ ذلك لن يحدث، للعودة يوماً إلى فرنسا، إلى البيت الصغير حيث، كلّ نهار أربعاء، كان صبيّ طويل القامة، ذو ساقين مستقيمتين ملساوين شبيهتين بجذعَي شجرة زان، يستأثر باهتمام والدته، وحبّها، وضحكها، وبحضوره الرائع وحده كان قد دفع رودي ليقبع في تفاهة سنواته الخمس.

أمّا الأمر الذي لم يكن يتوصّل إلى البتّ فيه، فهو...

ودون أن يفكّر، قام بخطوة في الصالون، باتجاه غوكلان.

كان بإمكانه أن يسمع صخب أنفاسه اللاهثة، الذي بدا شخير الآخر وكأنّه يردّ عليه بخفرٍ مليءٍ بالمراعاة، وكأنّه يشجّعه على تهدئة روعه، والتنفّس بشكل أقلّ صخباً.

أمّا الأمر الذي لم يكن يتوصّل إلى تذكّره حتّى اليوم، فهو هل كان حاضراً في مسرح الحادثة التي جرت بين والده وساليف أم أنّ والدته وصفت له المشهد بدقّة متناهية جعلته يظنّ فيما بعد أنّه رأى كلّ شيء.

ولكن لماذا وكيف أمكن لوالدته أن تصف ما نُقِلَ لها هي أيضاً لأنّها لم تكن هناك لحظة وقوع الحادثة؟

لم يكن رودي محتاجاً لأن يغمض عينيه ليرى، وكأنّه لا يزال هناك أو كأنّه كان هناك أبداً، والدَه يصرخ شيئاً في وجه ساليف ثمّ، قبل أن يتسنّى لهذا الأخير الوقت ليجيبه، يطيحه أرضاً بلكمة في ملء وجهه.

كان آبيل ديسكا رجلاً جبّاراً، ذا يدين عريضتين ضخمتين، ومهما بدتا مستسلمتين ومطمئنّتين ورقيقتين أثناء نومهما، كانتا معتادتين على الإمساك بأدوات ثقيلة، والقبض على موادّ صلبة، ونقل أكياس ملأى بالإسمنت، وكانت ضربة وحيدة من قبضته كافية للإطاحة بساليف.

ولكن هل رأى رودي حقّاً الجسد الطويل الناحل لشريك والده ينهار على التراب أم أنّه تصوّر ورأى في حلمه ساليف وهو يسقط على رأسه بشكلٍ مضحكٍ تقريباً تحت تأثير الضربة؟

بدا له فجأةً أنّ جهله بالأمر لا يطاق.

نظر إلى يدي غوكلان، نظر إلى عنقه الثخين وقال في نفسه إنّه سيكون صعباً أن يشعر تحت إبهاميه بحلقات قصبة الرئة تحت اللّحم المكتنز والجلد

مكتبة

المترهّل، لو انصاع لرغبته بخنق هذا الشّخص.

لا بدّ أنّ والده كان قد استمتع مثله أحياناً بفورات الغضب الملتهب الغامر المسكر، لا بدّ أنّ سيطرة فائقة على النفس، وليس الغضب، هي التي دفعت آبيل بالأحرى إلى ركوب سيّارته الرباعيّة الدفع المركونة بالقرب من البنغالو، وبطيئاً هادئاً كأنّه كان منطلقاً للقيام بجولة في القرية، وجّه عجلاتها الهائلة إلى جسد ساليف، إلى الجسد المددّد الفاقد الوعي لشريكه وصديقه الذي كان يفصل تماماً في قلبه بين العاطفة وميله للاختلاس، والذي وإن خدع آبيل فإنّه لم يسئ إلى الصّديق ولا إلى فكرة الصّداقة، بل، ربّما، إلى صورة بسيطة ومحايدة للزميل، إلى وجه أُفرغ من مضمونه.

ودون أن يكفّ عن التحديق بغوكلان، تراجع رودي معاوداً عبور عتبة الباب، ثمّ توقّف ثانية في المدخل.

وغطّى فمه بيده.

ثمّ لحس راحته، وعضّها عضّاً خفيفاً متكرّراً.

كان راغباً في المزاح والصراخ وإطلاق الشتائم.

ماذا بإمكانه أن يفعل لمعرفة ذلك؟

وما الذي يفترض أن يحصل ليعرف ذلك أخيراً؟

وردّد في نفسه: يا إلهي، يا إلهي، يا إله أمّي الحبيب الوديع، كيف بالإمكان معرفة ما جرى وفهمه؟

فالأمّ التي لم تكن هناك، ماذا كانت تعرف حقّاً عن حضور رودي أو غيابه في ذاك اليوم بعد الظهر أمام البنغالو، حين كان والده، بالهدوء التامّ الذي كان ينطلق به لشراء الخبز من القرية، يسحق بسيّارته رأس ساليف؟

أيعقل أنّ تكون أمّه قد حدّثته عن الضجّة المكتومة الخاطفة التي

أحدثتها عجلات السيارة الرباعيّة الدفع لدى مرورها على الجمجمة، وكأنّ حشرة ضخمة سُحِقَتْ، الضجة التي كانت تتناهى إلى رودي في أحلامه مراراً فخال أنّه سمعها بنفسه في الحقيقة؟

فكّر: كانت أمّه قادرة فعلاً على أن تصف له مثل هذه الضجّة، ودم ساليف الذي سال على التراب حتّى بلغ البلاطات الأولى من المصطبة ولطّخ إلى الأبد الحجارة المساميّة.

كانت فعلاً قادرة على وصف ما حدث.

ولكن هل قامت بذلك حقّاً؟

وحكّ مؤخّرته بشدّة، دون جدوى.

كان بإمكانه أن يتمثّل، وعيناه مفتوحتان على مداهما، الباحة أمام البنغالو المصنوع من الخشب والصّفيح، والمصطبة الضيّقة المرصوفة بالبلاط الأبيض، وسيّارة أبيه الرماديّة الضخمة ساحقةً رأس ساليف في السكون الثقيل، الرازح لبعد ظهرٍ حارّ أغبر. كان بإمكانه أن يتمثّل، وهو يلهث ألماً ودهشة، المشهدَ في أدقّ تفاصيله، حيث الألوان والأصوات لم تكن تتغيّر أبداً، وأن يراه في ذهنه من زوايا مختلفة وكأنّه كان حاضراً في عدّة أمكنة في الوقت نفسه.

وكان عارفاً في صميم قلبه نوايا والده.

لأنّ آبيل أنكر فيما بعد تعمّده سحق جمجمة ساليف، وتذرّع بالتوتّر والغضب ليبرّر تصرّفه المجنون، ومعه الحادث، مدّعياً أنّه صعد إلى السيّارة وغايته الوحيدة أن يقوم بجولة ليهدّئ من روعه.

كان رودي يعرف أنّه يكذب.

وكان قد عرف ذلك على الدوام في حين أنّ والده لا بدّ أن يكون سعى

مكتبة

إلى جهل ذلك، وإلى إقناع نفسه بأنّه لم يرد أن ينهي بهذه الطريقة المشينة حياة شريكه وصديقه الذي لم يكن يمزج في قلبه قطّ المودّة و...

كان يعرف أنّ آبيل، بجلوسه على مقعد السيّارة، وتشغيله المحرّك، كان يريد أن ينتقم من ساليف وأن يزيد تأجيج الحمّى المستعرة الهاذية لغضبه بسحقه ذاك الرجل المنطرح أرضاً، كان رودي يعرف هذا كلّه كما لو أنّه أحسّ به بنفسه، لأنّه لم يكن محتاجاً، هو، للسعي إلى نفيه بغية إنقاذ نفسه.

ولكن من أين إذن كانت تأتيه هذه القناعة؟

هل لأنّه كان موجوداً أمام البنغالو، ورأى حركة عجلات السيّارة فأدرك أنّ رغبة محدّدة، مسعورة، جارفة، كانت توجّه المركبة بالتحديد إلى رأس ساليف؟

اجتاز رودي المطبخ وهو يركض.

وخرج منه من الباب الخلفيّ، وجرى حتّى البوابة وارتمى عبر الفتحة فعلق قميصه بأشواك السياج فانتزعه بعنفٍ.

لم يسمح لنفسه بالتقاط أنفاسه إلّا حين تهاوى على مقعد النيفادا.

وتشبّث بالمقود مسنداً إليه رأسه.

كان ينتحب بهدوء.

وتمتم وهو يبتلع ريقه مع الفواق:

- لا يهمّني ذلك، لا يهمّني ذلك.

لأنّ المهمّ لا يكمن في تلك النقطة تحديداً، أليس كذلك؟

كيف سمح لنفسه بأن تعميه فكرة أنّ المسألة الأساسيّة كانت في معرفة ما إذا كان حاضراً أم لا بعد ظهر ذاك اليوم المرعب؟

لأنّ المهمّ لم يكن في هذا تحديداً.

كان يبدو له اليوم أنّ هذا السّؤال لم يأتِ ليحتلّ قائمة أفكاره إلّا ليلهيه، حتّى في العذاب، ويحجب عنه التطوّر الخبيث للكذب والجريمة، واللذّة الشّريرة، والجنون.

مرتجفاً، أقلع بالسيّارة، وعند مفترق الطرق التالي استدار إلى اليمين ليبتعد بأكبر سرعة ممكنة عن منزل غوكلان.

لماذا سيكون عليه، حتّى في الأسوأ، أن يشبه أباه؟

مَن كان يتوقّع منه ذلك؟

كان يستعيد وجه غوكلان النائم ويديه العزلاوين، ويستعيد صورته هو عند عتبة الباب، وكان باستطاعته أن يرى وجهه بالذات، الهادئ بشكل زائف، وأن يتذكّر أفكاره الواضحة بشكل زائف لدى تساؤله في أيّ درجٍ سيجد السّلاح القادر على قتل غوكلان بضربةٍ واحدة، هو، رودي، بتوقه إلى الشفقة، والطيبة، واقفاً على عتبة صالون ذاك الرجل المجهول، وتحت المظهر المخادع لوجهه العذب والهادئ، وجه رجلٍ مثقّف، مخطِّطاً لفعلة لا تغتفر من وجهة نظر الشفقة والطيبة.

كانت أسنانه تصطكّ.

من كان سيتوقّع منه أن يكون بعنف أبيه ونذالته، وما شأنه، هو، بآبيل ديسكا؟

كان مختصّاً بالأدب القروسطيّ وأستاذاً نزيهاً.

كانت فكرة كسب المال وحدها من خلال بناء منتجع سياحيّ تملؤه نفوراً وانزعاجاً.

ثمّ إنّه (متشبّثاً بمقوده، كان واعياً لقيادة سيّارته بسرعة كبيرة وعلى غير هدىً على الطريق التي كانت تتوغّل في الرّيف، بعيداً عن الحيّ الذي

مكتبة

يسكنه غوكلان)، عن أيّ ميراث كان يشعر أنّه مسؤول؟

ولماذا كان سيكون لزاماً عليه أن يمنع غوكلان من النّهوض عن كنبته بعد أن رفع هذا الأخير صوب وجهه يديه اللّتين لم تعودا فجأة هشّتين وطفوليّتين؟

آه، فكّر رودي وهو يزيد بشكلٍ مفاجئ سرعته في المنعطفات، ليس غوكلان من كان يفترض به هو أن يحول إلى الأبد دون نهوضه من القيلولة، ورأسه لا يزال مليئاً بالأحلام المخادعة التي لا يطردها فرك العينين باليدين، بل كان حريّاً به أن يمنع أباه من ذلك، هو، رودي، صاحب النوايا المجرمة التي ينضح بها قلبه المتعنّت وحيث كانت تمتزج دون توقّفٍ مشاعر الصداقة والغضب، التعلّق بالآخرين والرغبة في القتل...

أفلم يكن الابن الجدير بذلك الرجل هو الذي وجد لذّة في الضغط على عنق فتى دار السّلام، ثمّ منذ قليل، في التلصّص على النوم المتوحّد لغريب؟

فكّر ونفسه تفيض قرفاً: هو الذي كان قد بكى على الوستاريّة القتيلة، تذكّر أنّ أباه أعرب عن عاطفة جيّاشة تجاه الحيوانات، وكان يقول بعد وجبات طعام معيّنة إنّه سيصير نباتيّاً، أو كان يهرب علانيّة بعيداً عن صراخ الدّجاجات التي كانت أمّه تذبحها بانتظام خلف البيت.

أبطأ لدى دخوله إحدى القرى، وتوقّف أمام محلّ سمانة كان يتردّد إليه قليلاً.

رنّ الجرس عند دفعه الباب المزجّج.

تصاعدت رائحة اللحم البارد، والخبز، والحلويات التي تلفحها الشّمس في الواجهة، وجعلته يشعر إلى أيّ حدّ كان جائعاً.

كانت ضحكات وصيحات تعجّب صادرة عن التلفاز تتسلّل عبر ستار الشرائط البلاستيكيّة الذي يفصل الدكّان عن مسكن أصحاب محلّ السّمانة، وتزايدت الصرخات عندما باعدت المرأة بين الشرائط بأقلّ قدر ممكن لكي تتجنّب مرور الذباب.

تنحنح رودي. مكتبة الرمحي أحمد

كانت المرأة تنتظر الزّبون ورأسها شبه مستدير إلى مسكنها لكي تتسنّى لها مشاهدة البرنامج التلفزيونيّ ولو قليلاً.

طلب منها، بصوتٍ أبحّ، قطعة لحم مقدّد ورغيفَ خبزٍ مستطيلاً.

رفعت بيديها الإثنتين كتلة اللّحم المقدّد اللامعة ووضعتها على الآلة، وقصّت قطعة رمتها فيما بعد على الميزان، بيديها البارعتين الواثقتين واللتين كان يرى تلقائيّاً أنّها لم تغسلهما، ثمّ أمسكت بالرغيف اللّدن الموضوع في كيس كبير من الورق أرضاً، وتلمّسته وأرجعته إلى مكانه لتتناول واحداً آخر.

كان يرى شارد النظرة أنّها لديها، بالرغم من دقّة الحركات الأليفة، طريقة تبقي معها أذناً صاغية لجلبة التلفاز، مع أنّ أيّاً من الكلمات لم تكن مفهومة، وكأنّها تستطيع أن تتبع سير البرامج وفقاً لتغيّر حدّة الصراخ والجلبة فقط.

قالت دون أن تنظر إليه:

– أربعة يوروات وستّون سنتيماً.

وفجأةً شعر بالتعب من فرنسا الريفيّة هذه التي كان يعرفها جيّداً، آه، شعر بتعبٍ مريع، من الخبز السيّئ الموضوع أرضاً، من اللّحم المقدّد الشاحب الرطب، من الأيادي التي، كهاتين اليدين، تمسكان مداورةً

مكتبة

الطعام والمال، الخبز والأوراق الماليّة.

وتساءل في نفسه هل أنّ هاتيْن اليدين اللّامباليتيْن بتلويث الخبز كانتا تستقرّان أحياناً سائبتيْن وهشّتين، وراحتاهما مبسوطتان...

ثمّ تلاشى قرفُه.

ولكن بقيت في قلبه لدغة حنين لتلك السنوات التي أمضاها في دار السّلام، أو لاحقاً، في العاصمة، في «تلّة داكار»، كان يتذكّر أنّه لم يشعر بأيّ نفورٍ عندما كانت الأيدي التي تخدمه تلامس اللحم والقطع النقديّة.

في الواقع، لم يشعر هناك بأيّ نفور قطّ من أيّ نوعٍ كان، وكأنّ فرحه وامتنانه للأمكنة وراحته طهّرت بنارٍ مبهرةٍ الحركات اليوميّة.

فيما هنا، في مسقط رأسه...

لدى خروجه من الدّكان سمع حفيف الشرائط البلاستيكيّة خلفه ورنين الجرس، ثمّ غمره صمت الظهيرة الثّقيل والقيظ المرهق الجافّ في آنٍ معاً.

كانت الأرصفة ضيّقة من جانبي الطريق، وكانت مصاريع البيوت الضاربة إلى الرماديّ مقفلة.

صعد إلى سيّارته مجدّداً.

دوّخته حرارة السيّارة قليلاً.

شعر بداخل رأسه حارّاً واهناً ولكنّ هذا الشعور كان مشوباً بشيءٍ من اللذّة، لا يشبه في تأثيره ذاك الأتون الذي اشتعل داخل رأسه، حين كان في باحة المدرسة مطروحاً أرضاً ووجهه مهشّم على الإسفلت، حين شعر بيديْن حذرتيْن، خرقاويْن، جافلتيْن تحاولان إنهاضه، وتمسكانه من تحت إبطيه ثمّ من خصره بمشقّة، وفكّر آنذاك مشوّش الذّهن: «لست ثقيلاً

جدّاً على أيّة حال»، ثمّ أدرك أنّ هاتيْن اليدين الناعمتيْن المرتاعتيْن كانتا يدي مديرة المدرسة، السيدة بلات.

عندئذٍ حاول أن يساعدها بالرّغم من الألم الشديد في كتفيه، وشعر بالانزعاج إزاء نفسه وإزاءها، وكأنّ بلات باغتته في وضعٍ حميم لم يكن أيّ شيء في علاقاتهما يجيز أن يتقاسماه.

كان الفتيان الثلاثة لا يزالون هناك، منتصبي القامات، متضامنين، صامتين، ينتظرون بهدوء أن يُنصَفوا، واثقين تماماً من صحّة قضيّتهم لدرجة أنّ أحداً منهم لم يشعر بالحاجة للإسراع في توضيح ما جرى.

التقت نظرات رودي بنظرات فتى دار السّلام.

وحدّق إليه الفتى بحيادٍ وبرودة وقلّة اهتمام.

كان يلامس بنعومةٍ عنقَه في إشارة منه، دون شكّ، إلى أنّه لا يزال يشعر بألمٍ شديد.

سألت بلات رودي:

- هل تريدُ أن أستدعي الممرّضة؟

لكنّه رفض.

ومع أنّ الحرارة داخل رأسه كانت من الشدّة بحيث إنّه لم يكن يعرف تحديداً بأيّ كلمات سينطق، إلّا عند تلفّظها، انطلق في خطاب مشوّش، محموم، يهدف إلى تبرئة الفتيان تماماً.

كانت نظرة بلات الحائرة المشمئزّة تحدّق إلى جسد رودي وصدغيه المدمّييْن.

كانت امرأة هادئة شابّة، ومعها كان يتواصل دوماً بشكلٍ جيّد.

لكنّها تنظر إليه الآن بارتياب وبشيءٍ من الجزع، وكلّما تحدّث رودي

مكتبة

شعر أنّ دفاعه المرتاع عن الفتيان الثلاثة لا يعمل لصالحه ولا لصالحهم. كان يشعر أنّ بلات تشتمّ بينهم جميعاً رائحة تواطؤ كريهة، غامضة، لا بل أسوأ من ذلك، بارتكاسة هلعٍ لدى رودي حيال تلاميذٍ ربّما كان يخشى انتقامهم.

ومنذ تلك اللحظة، كتم في داخله ما حصل فعلاً.

وظلّ غافلاً عن الحقيقة إلى أن تقبّل اكتشافها منذ بعض الوقت في الموقف التابع لمؤسّسة مانيل.

وهكذا كان مقتنعاً بأنّه كان يكذب حين برّأ الفتيان من كلّ مسؤوليّة في ابتداء المواجهة.

فكّر: كانوا هم من اعتدوا عليّ، لأنّ أصابعه نسيت آنذاك حرارة عنق ذاك الفتى من دار السّلام. لكنّ ما قاله لبلات كان مخالفاً لذلك، على سبيل التحفّظ، ولخجله من أن يبدو ضحيّة.

لاحقاً، في مكتب بلات لم يكذّب ما قاله: طرحه الفتيان أرضاً لأنّه أهانهم بوجهٍ غير معقول وعن قصد.

فكّر: هذا غير صحيح، غير صحيح، لم أوذِ أحداً بشيء، وكان الدم يخفق في رأسه المحموم، وكانت كتفاه تؤلمانه بشكلٍ فظيع.

سألت بلات حائرة:

- ولكن لماذا فعلوا ذلك؟ ماذا قلت لهم؟

لم يجب.

أعادت طرح سؤالها.

وظلّ على صمته.

وحين تفوّه بالكلام مجدّداً، كان ذلك ليؤكّد أنّ الفتيان كانوا محقّين في

ضربه لأنّ ما قاله لهم لا يغتفر.

والفتيان، الذين استُجوبُوا بدورهم، لم يقولوا شيئاً.

لا أحد تحدّث عن الأستاذ رودي ديسكا الذي انقضّ على فتى دار السّلام.

ولم يتبقّ من القصّة إلّا رواية رودي متذرّعاً بشتيمته التي استتبعتها ردّة فعل قاسية.

نصحت بلات رودي بأن يطلب إجازة مرضيّة.

تمّ التباحث في وضعه في الأكاديميّة، ولم يعرف إطلاقاً من أين جاءت عبارة «يا أولاد العاهرة الزنوج!» التي تداولوها على أنّها الشتيمة التي وجّهها رودي إلى الفتيان الثلاثة.

أحدهم تذكّر أنّ والد ديسكا تهجّم منذ خمسة وعشرين عاماً على شريكه الأفريقيّ وقتله.

وهكذا قرّر المجلس التأديبيّ إيقاف رودي عن التعليم.

كان يلهث وكأنّه تحت تأثير ضربة.

بات بإمكانه، للمرّة الأولى، أن يتذكّر تلك الحقبة، أن يتذكّر رائحة الإسفلت وضغط أصابعه على قصبة الصبيّ، لكنّ الألم القديم استفاق.

منتظراً حكم المجلس، أمضى شهراً في الشقّة في تلّ داكار.

هذه الشقّة الجميلة المؤلّفة من ثلاث غرف في مبنىً جديد، الواقعة على طول جادّة تظلّلها أشجار البونسيانة، آل به الأمر إلى أن يكرهها.

ولم يكن يخرج منها إلّا ليُنزّه الطّفل ويقوم بالمشتريات في أقرب متجر لاقتناعه بأنّ الجميع كان يعرف عاره، وفضيحته.

مكتبة

فكّر: ألا يعود نفوره من الطّفل إلى تلك الفترة مع أنّه لم يعترف به قطّ لا بل إنّه استبعد حينذاك الفكرة تماماً؟

أقلع بسيّارته وقادها حتّى خروجه من القرية.

ثمّ ركنها على طريقٍ ترابيّ بين حقليْ ذرة، ودون أن ينزل من السيّارة بدأ يلتهم الخبز واللّحم المقدّد، ناهشاً فيهما بالتعاقب.

ومع أنّ اللحم المقدّد كان سائغ المذاق رطباً، ومع أنّ الخبز لم يكن طازجاً، إلّا أنّه ألفى تناوله الطعام أخيراً أمراً في غاية المتعة إلى حدّ أنّ عينيه اغرورقتا بالدّموع.

ولكن لماذا، لماذا لم يشعر قطّ حيال جبريل بالحبّ البديهيّ، الجارف، الفرح، الفخور، الذي يشعر به سائر الآباء تجاه أطفالهم؟

ثابر دوماً على محبّة ولده، وهذه الجهود المتستّرة بالإرادة الطّيّبة والوقت القليل الذي كان يقضيه برفقة الصّغير، تبدّت على حقيقتها خلال تلك الأسابيع الطويلة التي أمضاها منعزلاً في الشقّة.

كان يودّ أن يحتجب عن عيون الآخرين جميعاً، وجبريل كان هنا بشكلٍ متواصل، شاهداً على عار رودي وانحطاطه وتبدّد سعيه في سبيل أن يغدو رجلاً محترماً ومحبوباً.

أن يكون عمر الطفل سنتين، فهذا لم يكن يغيّر شيئاً في الوضع.

غدا هذا الملاك الصّغير حارسه المرعب المتحرّي، والمُدين الأخرس الماكر لانعدام حظوته.

انتزع رودي ورقة التغليف عن اللّحم المقدّد ورماها خلفه.

ثمّ التهم آخِرَ ما بقيَ من رغيف الخبز المستطيل.

ثمّ خرج من سيّارته واقترب من حقل للّذرة ليتبوّل.

سمع أعلاه رفّات أجنحة، وحفيف أرياشٍ خافتاً في الهواء الحارّ فرفع عينيه.

انقضّ الصقر الجرّاح عليه كما لو كان ممتثلاً لإشارة متّفق عليها.

فرفع ذراعيه ليحمي رأسه.

وارتفع الصقر في السماء بالضبط قبل أن يلمسه.

ثمّ أطلق صرخة وحيدة مليئة غضباً.

وأسرع رودي إلى سيّارته ليغادر الدرب راجعاً القهقرى، ثمّ استقلّ الطريق الرئيسيّ من جديد بسرعة خفيفة.

وفيما كان يشعر، بعد أن أنهى طعامه، بالاستعداد للعودة إلى المنزل، وموافاة فانتا، تعمّد انتهاج الوجهة المعاكسة، وقد تجمّدت أوصاله خوفاً وحنقاً.

خطرت له هنيهة فكرة أنّ الطائر ربّما أراد أن يُنبئه بأنّه يجدر به العودة إلى منزله بأقصى سرعة لكنّه رفض الفكرة، مقتنعاً تماماً بأنّ الصّقر المسعور كان يبتغي بالعكس منعه من دخول عتبة منزله مجدّداً.

شعر بالدم يخفق في صدغيه.

وغمغم قائلاً:

- ما جدوى ذلك، ما جدوى ذلك، يا فانتا؟

أفلم يُصبح، بمعنى ما، أكثر جدارة بالحبّ من ذاك الصباح؟

ونظراً للموقع الرفيع الذي تحتلّه والذي يخوّلها بأن ترسل طائراً يناصرها فينقضّ عليه، ألم تكن قادرة على فهم ذلك؟

وكما أنّه لن يعود مطلقاً إلى التفوّه ببعض الكلمات السخيفة القاسية

مكتبة

التي كان الغضب وحده يدفعه إلى قولها، وكما أنّه لن يعود فريسة ذاك الصنف الخاصّ من الغضب المهان، العاجز، المواسي، فإنّه لن يحاول مجدّداً إغواءها، هي، فانتا، بعبارات جذّابة زائفة، لأنّ الكلام الذي قاله أيضاً في شقّة تلّ دكار لم يسعَ إلى بلوغ أيّ حقيقة كانت بل فقط إلى إقناعها بالمجيء معه إلى فرنسا، مجازفاً (لم يكن يفكّر في ذلك آنذاك، لا بل كان يهزأ من الفكرة تقريباً) بخطر سقوطها هي، وانهيار طموحاتها الأكثر شرعيّة.

كان يتذكّر النبرات المقنِعة اللطيفة التي عرف كيف يضفيها من جديد على صوته، هو الذي، بعد شهر من الوحدة برفقة جبريل، كان يتكلّم بصوتٍ أشبه بالنعيق المكتوم.

حتّى عندما كانت فانتا تعود مساءً، لم يكن يتحدّث إلّا باقتضاب، واستياء.

أمّا هي فكانت خفرة، نشيطة، مفعمة بفرحٍ ملجوم للقاء الطّفل، وكانت تنوب عنه في العناية بالصبيّ وكأنّها تريد أن تعتق رودي أخيراً مع أنّهما كانا يعرفان كلاهما أنّه لم يكن هناك ما يُعمل، وكانت تولي الصغير فائق اهتمامها، ما كان يسمح لرودي بالتظاهر بأنّه لم تتسنّ له الفرصة للكلام لأنّ الظرف لم يكن مناسباً.

كان هذا يعتقه من عبء الكلام.

كان يذهب للاتّكاء على الشرفة متأمّلاً المساء وهو يهبط على الجادّة الوادعة.

كانت سيّارات ضخمة رماديّة أو سوداء تعيد رجال الأعمال والدّبلوماسيّين إلى بيوتهم، متقاطعةً مع بعض الخادمات العائدات إلى المنازل مشياً على القدمين، محمّلات بأكياس بلاستيكيّة، ومع هؤلاء اللواتي

لم يكنّ يتقدّمن ببطء تحت وطأة الإرهاق، بل كنّ يطرْن فوق الرّصيف كما كانت فانتا آنذاك تسير وكأنّها لا تلامس الأرض بل تستخدمها مجرّد نقطة انطلاق لتحليقها.

ثمّ كانا يتناولان، الواحد قبالة الآخر، الوجبة التي كان رودي قد حضّرها. وبما أنّ الطّفل كان نائماً في تلك الأثناء، فإنّ صوت المذياع، ورغبتهما المزعومة في متابعة الأخبار كانا يسوّغان لهما التزام الصّمت.

كان يختلس النظر أحياناً إليها: رأسها الصّغير الحليق، والاستدارة المتناسقة لرأسها، والسّحْر الطّلق لحركاتها، وخصوصاً يداها الرّشيقتان الطّويلتان، اللتان، في لحظات الاستراحة، كانتا تتدلّيان بزاوية مستقيمة عند المعصم وكأنّ فائض نعومتها قد ثناهما، وهيئتها الجديّة، الحالمة، المثابرة.

كان دفق من الحبّ يغمر كيانه.

ولكنّه كان يشعر أنّه من التّعب والإحباط بحيث أنّه لا شيء كان يبين من هذا الحبّ.

وربّما كان حاقداً عليها قليلاً أيضاً، وبطريقة غامضة، لأنّها كانت تحمل معها حيويّة نهارها ومشاهد المدرسة التي بات يجهل كلّ شيءٍ عنها، ولأنّها لا تزال تتحرّك في مكان أُقصيَ هو منه.

وربّما، وبطريقة غامضة، كانت غيرته منها تكاد تميته.

في الفترات الأولى من إبعاده عن المدرسة، وفيما كان يفترض أنّ الأمر لا يزال مجرّد توقّف عن العمل بسبب المرض، كان يستمع بهيئةٍ كئيبةٍ إلى الأخبار القليلة عن الزّملاء والتّلامذة التي كانت تنقلها إليه فانتا ظنّاً منها أنّها حسناً تفعل، ثمّ أخذ يدرج على مغادرة الغرفة في تلك اللحظة، مقاطعاً

مكتبة

إيّاها، بانسحابه هذا الذي كان أشبه بلطمة قويّة على فمها.

ألم يكن انسحابه تفادياً لتوجيه مثل هذه اللطمة إليها؟

ولكنّه، عندما تلقّى خبر إدانته، وطرده من المدرسة الثانويّة ومنعه من التعليم، عاودته حلاوة الكلام، كأنّما لمُداراة انعدام صراحته، وما يختلج في قلبه من مراوغة، وحسد، وتعاسة.

وراح يؤكّد لها أنْ لا مستقبل لهما إلّا في فرنسا، وأنّها كانت محظوظة لتمكّنها، بفضل زواجها، من الذّهاب للعيش هناك.

أمّا في ما يتعلّق بما يمكنها أن تفعله في فرنسا فالأمر بسيط: سيهتمّ بأن يجد لها عملاً في كليّة أو في مدرسة ثانويّة.

وكان يعرف أنْ لا شيء أقلّ ضمانة من ذلك، إلّا أنّ نبرة صوته كانت تزداد عذوبة كلّما راودته الشكوك، وفانتا، النزيهة بطبيعتها، لم تكن ترتاب في الأمر، ربّما لأنّه كان يعود من جديد الشابّ ذا الوجه الطلق العاشق الملفوح بالسمرة الذي كانت خصلته الشقراء الباهرة تنزلق على جبينه دوماً، ويرفعها إمّا بنفخة من فمه أو بثني عنقه بقوّة. ولئن كانت فانتا تعرف وجوهاً كثيرة ماهرة في إخفاء الكذب وتقدر على تجنّبها، إلّا أنّها لم تكن قادرة على تبيّن الكذب في ذاك الوجه العاشق، المسمرّ، الطلق، وتينك العينين الصافيتين الشاحبتين العاجزتين عن إخفاء شيءٍ وراءهما.

وأمضيا نهارات طويلة في زيارة أقرباء فانتا الكثيرين.

يومذاك بقي رودي واقفاً على عتبة الشقّة ذات الجدران الخضراء حيث التقى للمرّة الأولى، منذ سنوات، بالخال والخالة اللذين سهرا على تربية فانتا.

وتذرّع، تجنّباً للدّخول، بالشعور بضيقٍ ما، لكنّ الحقيقة كانت أنّه لا

يستطيع تحمّل نظرات هذين العجوزين، ليس لأنّه يخشى أن ينكشف وجهه الكاذب بل بالأحرى لأنّه كان يخاف أن يفضح أمره بنفسه، في الغرفة بنورها المعتم، بالقرب من فانتا التي كانت ستعلن، بفخر وثقة وحزم، كلّ ما كان ينتظرهما من خير في فرنسا، ويخشى أن تسوّل له نفسه أن يقول لها، لكي تنسى الأمر: اسمعي، لن يسمحوا لك بالتعليم هناك، وأن يروي لها أخيراً ما ارتكبه والده آبيل ديسكا فيما مضى وطريقة وفاته، ولِمَ طرحه الفتيان أرضاً، هو، رودي، لأنّ فانتا، مع أنّها لم تكن تصدّق فرضيّة إهانته للتلامذة كما كان يُشاع، إلّا أنّها لا بدّ أن تكون فكّرت بأنّه قلّل من احترامهم، بطريقة أو بأخرى.

ومكث هناك لا يجسر على اجتياز عتبة المسكن.

لم يهرب لكنّه لم يدخل.

واكتفى بحماية مصالحه محتفظاً بنفسه في مأمن من كلّ مجازفة بالصّدق.

رازحاً تحت وطأة تعبٍ مفاجئ، انحرف عن الطريق الرئيسيّ متوغّلاً في مغرسة لأشجار الحور.

ركن سيّارته على درب معشب، هناك حيث يخلي آخر صفٍّ لأشجار الحور المكان للغابة.

telegram @ktabpdf

شعر بحرّ شديد في السيّارة، بحيث كاد يُغمى عليه.

وكان اللّحم المقدّد والخبز البائت يثقلان على معدته.

خرج من السيّارة وارتمى على العشب.

كانت الأرض نديّة، مثقلة برائحة الطين.

وتدحرج قليلاً على العشب منتشياً فرحاً.

مكتبة

ثمّ تمدّد على ظهره شابكاً ذراعيه فوق رأسه، وكان يمنح وجهه للشمس، مغضّناً أجفانه ناظراً إلى الجذوع البيضاء والأوراق الصّغيرة الفضيّة لأشجار الحور التي أصبحت متوهّجة بين رموشه.

لم يعد هناك من داعٍ يا فانتا.

لم يكن بادئ الأمر سوى بقعة سوداء وسط بقع أخرى، بعيداً فوقه في السّماءالحليبية ثمّ تعرّف إلى زعيقه الحاقد، المسعور، وأدرك، لدى رؤيته ينقضّ عليه أنّه عرفه هو أيضاً.

ونهض على قدميه بوثبة واحدة.

ثمّ قفز مرتمياً في السيّارة، وأغلق الباب في اللحظة التي كان فيها الصقر يحطّ على سقفها.

وسمع صوت احتكاك مخالبه بالمعدن.

ثمّ طار الصقر، ورآه يجثم على غصن في منتصف شجرة حور.

كان يراقبه من جانب وجهه، حازماً مستقيماً، بعينه اليشَبيّة اللّون، المتوعّدة.

قام بنصف استدارة وغادر الدرب بأقصى سرعة ممكنة.

كان القلق والحرّ يرهقانه.

تساءل هل سيكون بإمكانه الخروج ثانيةً من سيّارته دون أن ينقضّ عليه الطّائر الحاقد المنتقم ويجعله يدفع ثمن أخطائه القديمة؟

وماذا كان سيحصل لو أنّه لم يدرك اليوم تحديداً أخطاء ماضيه؟

هل كان الصقر سيظهر، هل كان سيعلن عن نفسه؟

قال في نفسه وهو على حافّة البكاء: «هذا ظلم فعلاً».

حين وصل أمام المدرسة الصّغيرة، كان التلامذة يخرجون من صفوفهم

الموجودة كلّها في الطابق الأرضيّ.

كانت الأبواب كلّها، الواحد تلو الآخر، تنفتح على الباحة، وكان الأطفال، وكأنّهم التصقوا بدرفة الباب ليفتحوه عنوة، يتدفّقون مترنّحين، منذهلين قليلاً، طارفين بعيونهم في الضوء الذهبيّ لنهاية بعد الظّهر.

غادر رودي السيّارة ورفع نظره نحو السماء.

اقترب من البوّابة وقد سكن روعه.

وسط جمهرة الأطفال الذين كانوا يلوحون من بعيد متشابهين إلى حدّ الالتباس، وكأنّهم جسم واحد متعدّدة وجوهه بطريقة مذهلة، عرف طفله، الذي كان مع ذلك شبيهاً بالآخرين، بشعره الكستنائيّ وقميصه المرقّش وحذائه الرياضيّ. كان ذاك طفله، وقد عرفه من بين الجميع.

ناداه:

- هاي، جبريل!

وتوقّف الطّفل بغتةً في سعيه وفمه المفتوح على ضحكةٍ انطبق في الحال.

شعر رودي بألم واستياء لدى رؤيته الخشية تجمّد ملامح وجه ابنه الحيويّ اليقظ حالما لمحه خلف البوّابة، وكلّ أمله بألّا يكون ذلك الصوت عائداً لأبيه قد تلاشى.

رفع رودي يده، ولوّح بها باتّجاه الطّفل.

وفي الوقت نفسه كان يتفحّص السّماء، ويرهف السمع ليتبيّن ما إذا كان هناك، فيما يتعدّى جلبة الملعب، زعيق لعين محتمل.

حدّق إليه جبريل.

وتعمّد إشاحة بصره عنه مستأنفاً سيره.

ناداه رودي من جديد لكنّ الطّفل لم يكن يكترث به وكأنّه رأى شخصاً

مكتبة

غريباً خلف البوابة.

كان منكبّاً في آخر الملعب على لعبة بالكرة لم يكن رودي يعرفها.

أفلم يكن يفترض به، في الواقع، أن يعرف ألعاب ابنه؟

وفكّر رودي أنّه يستطيع أسوةً بكلّ أب أن يدخل إلى الملعب، ويمشي بخطى عجلى حتّى يدرك ابنه فيمسكه من ذراعه ويصطحبه بكلّ بساطة إلى السيّارة.

ولكنّه، علاوةً على أنّه كان يخشى أن يبدأ جبريل بالبكاء ويريد أن يتجنّب بكاءه بأيّ ثمنٍ، كان يخشى بالقدر ذاته مساحة الملعب المكشوفة.

فلو أنّ الصّقر المشؤوم انقضّ عليه بقسوةٍ، فأين سيختبئ؟

وعاد للجلوس أمام مقود سيّارته النيفادا.

رأى الباص المدرسيّ يصل والأطفال يصطفّون في الباحة مستعدّين للصعود إليه.

وحالما خرج جبريل من الملعب، اندفع رودي خارج السيّارة وعدا باتّجاه الباص.

وهتف بصوت مرح ولجوج في الوقت نفسه:

- تعال جبريل! ثمّ قال أيضاً للمرأة التي كانت تهتمّ بمراقبة الأطفال في الباص، والتي يفترض بها أن تعرفه، بالنظر على الأقلّ: «سيأتي اليوم مع أبيه»؛ ولكن ألم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يذهب فيها ليصطحب جبريل من المدرسة؟

انفصل الطّفل عن جماعة الأولاد، مطرق الرأس، ولحق برودي وكأنّه يشعر بالخجل، متظاهراً بالتهاون، غير ناظرٍ إلى شيء أو إلى أحد.

كان يتأبّط حقيبته المدرسيّة ويداه تتشبّثان بِسيورها، ولاحظ رودي

أنّهما كانتا ترتجفان قليلاً.

كان يتأهّب لوضع ذراعه على كتف جبريل، في حركةٍ لم يعتد قطّ عليها وكان عليه أن يفكّر فيها قبل تنفيذها لكي تبدو، بصورة مفارِقة، بمنتهى العفويّة الممكنة، حين لمح بطرف عينه شيئاً داكناً ناحية أشجار السنط التي تحفّ بالرّصيف.

أدار رأسه بحذر.

لمح الصقر الجارح جاثماً هناك، في أعلى الشّجرة، هادئاً، منتظراً.

جمّده الرّعب ونسي من جرّاء ذلك أن يعانق جبريل وظلّت ذراعاه متصلّبتين خرقاوين على طول خاصرتيه.

بذل جهداً لكي يبلغ السيّارة.

ثمّ ارتمى فيها منتحباً.

ماذا تريد منّي، ماذا تريد منّي بعد؟

صعد الطّفل على المقعد الخلفيّ وصفق الباب قربه بفظاظة متعمّدة.

سأله:

- لماذا جئت لاصطحابي؟

وأدرك رودي أنّه على وشك أن ينفجر باكياً.

لم يجبه على الفور.

كان ينظر إلى الصّقر عبر الزّجاج غير متيقّن من أنّه رآه.

هدأ روعه قليلاً.

انطلق بتؤدة لكي لا يلفت انتباه الطائر، الذي ربّما بات يميّز الهدير الخاصّ لمحرّك النيفادا.

وعندما ابتعدا عن نطاق المدرسة، قام باستدارة شبه كاملة نحو ابنه،

مكتبة

وهو يقود السيّارة بيده اليسرى.

كان وجه الطّفل مكفهرّاً يعلوه القلق وعدم الفهم.

ما أشدّ شبهه بفانتا عندما كانت تضع على وجهها قناع اللّامبالاة وتفصح عن كلّ ما كانت تحسّ به غالباً تجاه رودي وحياتهما في فرنسا، أي القلق وعدم الفهم. شعر بغضبٍ عابرٍ لدى الطفل، وكأنّ الصبيّ لم يكن لديه من هدف آخر سوى مقاضاة أبيه، واستعاد رودي الانفعالات القديمة العدوانيّة الغامضة، تلك التي تفتّحت في داخله لدى طرده من المدرسة الثانوية، وتمضيته مع جبريل شهراً من الخزي، والأسى، والذلّ.

كان يبدو له في تلك اللحظة أنّه، مهما فعل، فلن يردّ ابنه عن ملامته أو عن الشعور أمامه بذعر شديد.

قال له بصوته الأرقّ:

- رغبْتُ اليوم بالمجيء لاصطحابك. هذا كلّ شيء.

وهتف الطّفل شبه صارخ:

- وماما؟

- ما بها، ماما؟

- هل هي على ما يرام؟

- أجل، بالتأكيد.

انفرجت ملامح الصبيّ رغم بعضٍ من نفورٍ لازمه.

واستدار رودي كليّاً نحو الطّريق ليخفي وجهه.

ماذا كان يعرف عن فانتا في تلك اللحظة؟

قال:

- نحن ذاهبان إلى بيت جدّتك. يمكنك قضاء اللّيلة هناك. منذ وقتٍ

طويلٍ لم ترها، أليس كذلك؟ هل هذا يناسبك؟

همهم جبريل ممتعضاً.

أدرك رودي والغصّة تعتصر حلقه فجأةً أنّ الطّفل قد أراحه جوابُ رودي بالنسبة لفانتا وأنّ كلّ ما تبقّى، وماذا سيصير بحاله، كان قلّما يهمّه.

سأل الطّفل ثانيةً:

- هل أنت أكيد من أنّ ماما بخير؟

فهزّ رودي رأسه إيجاباً دون أن ينظر إليه.

كان يرى في مرآة السيّارة الوجه الصّغير الأسمر الذي يعلوه شحوب شديد، والعينين السوداوين والأنف المسطّح ذا المنخرين المرتعشين مثل منخرَي عِجلةٍ صغيرة، والفم المكتنز، كان يعاين كلّ ذلك قائلاً في نفسه: «هذا هو ابني جبريل». ومع أنّ هذا القول لم يثر فيه أيّ صدى، وسقط في داخله كما يسقط حجر في الوحل، بدأ يلاحظ ويروز ما كان هناك من براءة واستقلال لدى الصبيّ، الذي لم تكن جميع أفكاره ونواياه مرتبطة برودي، والذي كان مستغرقاً بكليّته في عالم حميم سريّ لم يكن لرودي أيّ ضلع فيه.

أكان معنى الوجود لدى جبريل لا يُختصر في إدانة والده؟ أم بلى؟

آه من ذاك الحكم بالإعدام الذي بدا طفل العاميْن ذو النظرات الصارمة وكأنّه أصدره بحقّه هو المنبوذ المهان آنذاك!

ولكن الطّفل الذي كان يلمحه في مرآة السيّارة لم يكن إلّا تلميذاً مستغرقاً في أفكاره، هادئ الرّوع مؤقّتاً، مستسلماً في تلك اللحظة إلى أحلام طفوليّة، بعيداً جدّاً عن اهتمامات رودي، وكان هو ابنه، جبريل، وكان في السابعة من عمره فقط.

مكتبة

- قل لي هل أنت جائع؟

كان هو نفسه منزعجاً من سماع صوته، الذي كان متهدّجاً.

وعلى غرار فانتا، أخذ جبريل وقته ليروز جوابه.

ولم يكن متريّثاً ليتبيّن فعلاً ما كان يريده حقّاً، بل بقصد عدم تمكين الآخر من معرفة أيّ شيءٍ يخصّه، وكأنّ كلّ ما سيقوله يمكن أن يؤخذ عليه.

كيف وصل الأمر بنا إلى هذا الحدّ؟

أيّ نوعٍ من الرّجال أنا لكي أوحي لهما بتوجّس وحيطة مماثلين؟

أقلع عن معاودة سؤاله لشعوره بالحزن، وبقي جبريل صامتاً.

كان وجهه متجهّماً، واجماً.

وكان رودي يشعر بإحراج كبير بينهما.

ماذا يجدر به أن يقول؟

ماذا يقول الآباء الآخرون لأطفالهم ذوي السنوات السّبع؟

منذ زمنٍ طويل، طويلٍ جدّاً، لم يلقَ نفسه وحيداً معه.

هل كان ضروريّاً أن يتحدّث إليه؟

هل يجد الآباء الآخرون الحديث مع أولادهم ضروريّاً؟

- ما هي اللعبة التي كنت تمارسها في الملعب منذ قليل؟

- ما اسمها؟ سأل الطفل بعد ثوانٍ معدودات.

- أجل تلك اللعبة بالكرة. لا أعرفها.

كانت عينا جبريل تنتقلان من زاوية لأخرى في السيّارة، حائرتين قلقتين.

كان فاغر الفم.

إنّه يتساءل عن الهدف الخفيّ لفضولي المفاجئ، فكّر رودي، فضولي غير المعتاد، وبما أنّ هذا الهدف لا يتّضح له، فما هي الاستراتيجيّة التي يجدر اتّباعها، وبأيّ اتّجاه تحديداً ينبغي أن يصوّب ارتيابه؟

قال الطفل بصوت بطيء، خفيض:

- إنّها مجرّد لعبة.

- ولكن ما الذي يجدر بنا فعله فيها؟ إلامَ ترتكز قوانينها؟

كان رودي يجهد لإعطاء نبرته لطافة مطمئنة.

واشرأبّ قليلاً ليرسل ابتسامةً في المرآة.

ولكنّ الطّفل كان يبدو غاضباً في تلك اللحظة.

اعتراه خوف شديد من أن يفقد كلّ فطنة وكلّ قدرة على التفكير.

وقال جبريل، صارخاً تقريباً:

- أنا لا أعرف القوانين! إنّها مجرّد لعبة وهذا كلّ شيء.

- حسناً، هذا ليس بالأمر المهمّ. على كلّ حال كنت تتسلّى جيّداً، أليس كذلك؟

غمغم الصبيّ كلاماً مقتضباً غير مفهوم، ولم يبدُ عليه الارتياح.

كان رودي يجده في تلك اللحظة على شيءٍ من الغباء، ما جعله حزيناً ومستاءً.

لماذا كان الطفل غير قادر على فهم أنّ والده لم يكن يسعى إلّا للتقرّب منه؟

والذّكاء المتوثّب الذي كان رودي يتوسّمه فيه دائماً، هل لا يزال موجوداً وهل وُجِد فعلاً؟

أم أنّ هذا الذكاء الذي يفتقر إلى تحفيزه في مدرسة القرية تلك التي

مكتبة

كان رودي، في سريرة نفسه، لا يقدّر معلّميها البتّة ويجد وجوههم تنمّ عن ضيق أفق، والذي يعيقه في البيت جوّ الحزن والحقد والقلق السائد، قد هزل وشحّ، ومن دونه لن يعود ابنه إلّا صبيّاً بين صبيان آخرين قلّما يثيرون الاهتمام؟

لئن لم يكن رودي ليتمنّى أيّ شرّ للأطفال التافهين، إلّا إنّه لم يكن يجد مبرّراً لأنّ يحبّهم، أو حتّى قدرة استثنائيّة لديه على أن يفعل.

وانشقّت في داخله هاوية حزن أليم.

إذا كان عاجزاً عن محبّة ابنه رغم كلّ شيء، وكما هو، فلأنّه إذن لم يكن يحبّه.

كان يحتاج إلى أسبابٍ وجيهة كافية ليحبّه، فهل كان هذا هو الحبّ الأبويّ؟

لم يسمع قطّ أحداً يقول إنّ ذاك الحبّ منوط بالصفات التي يتميّز بها الطفل أو لا.

عاود النظر إليه في مرآة السيّارة، متفرّساً به، بشغفٍ، مترقّباً في داخله بزوغ انفعالٍ فريد.

كان هذا ابنه جبريل، وكان يعرفه من بين جميع الأطفال.

بحكم العادة؟

لم يكن قلبه إلّا بركة وحل وكلّ شيءٍ كان يغرق في داخلها محدثاً نشيشاً مريعاً.

كانت أمّه تسكن بيتاً صغيراً مكعّباً، سقفه خفيض، يقع في آخر قرية تتجمّع منازلها على جهتي الشارع، في أرضٍ مفروزة حديثاً.

لدى عودتها إلى فرنسا برفقة رودي، بعد وفاة آبيل بالضبط، عاودت

الأمّ السكن في منزلهم القديم وسط الرّيف، وكان لا بدّ لرودي أن يلتحق كتلميذ داخليّ بالمدرسة الأقرب.

تابع دروسه العليا في بوردو (كان يتذكّر الوحشة اللّامتناهية للشوارع السوداء، والمجمّع البعيد عن المدينة، التائه في الضواحي الكئيبة) وفي ذاك البيت القديم المنعزل كان يذهب لزيارة أمّه من وقتٍ لآخر.

ثمّ ما إن تخرّج حتى عاد إلى السنغال ليعمل أستاذاً في مدرسة ميرموز الثانوية.

ثمّ لدى عودته القسريّة إلى فرنسا، منذ خمس سنوات، برفقة الطّفل وفانتا، اكتشف أنّ والدته غادرت منزلها لكي تقيم في هذا البيت الصّغير ذي النوافذ الصّغيرة المربّعة والذي يضفي عليه سقفه المنخفض هيئة متعنّتة غبيّة.

كم شعر بالاستياء، منذ البداية، في هذا الحيّ الحافل بالمساكن التي كانت جميعها متشابهة والمبنيّة على قطع أرض مستطيلة جرداء كانت تزيّنها بطريقة تفتقر إلى الذّوق بعض أشجار التنوب التي أعيد غرسها بعد عيد الميلاد أو أجمات من عشبة البامبا!

تحرّق رودي لأن يقول لها: أكان ضروريّاً حقّاً إظهار الفشل؟ ألم يكن العيش في وسط الرّيف أكثر وقاراً؟

ولكنّه، كالعادة، لم يقل شيئاً لأمّه.

كان وضعه بالذات يبدو له مفتقراً تماماً إلى الاعتبار.

وفي الواقع، لم يلبث أن أدرك أنّ والدته كانت معجبة بحيّها وكان الجوار الذي يعجّ بالنساء يسمح لها بأن تروّج بسهولة أكبر لكراريسها عن الملائكة.

مكتبة

وعقدت أواصر صداقة مع نساء كان مظهرهنّ وحده يبعث في رودي حزناً وضيقاً يفوقان الوصف.

كانت أجسادهنّ ووجوههنّ موسومة بندوب حياة مرعبة (آثار جراح أو تعنيف أو سقوط، أو تورّد من جرّاء الكحول). كنّ في معظمهنّ متبّطلات ويفتحْنَ طوعاً أبوابهنّ لأمّه التي كانت تسعى لتكتشف بمساعدتهنّ أسماء حرّاس أرواحهنّ، ثمّ كانت تجهد لتحديد موقع ذاك الملاك الذي لم يكن قد ظهر لهنّ قطّ، والذي لعدم مناداته بشكلٍ صحيح، لم يأتِ قطّ لمساعدتهنّ.

وباختصار فكّر رودي في آخر الأمر، ليس من دون تذمّر، أنّ والدته كانت تجد نفسها مرتاحة فعلاً في حيّها المشؤوم.

دار قليلاً في الحيّ، وكما في كلّ مرّة لم يهتدِ إلى العنوان، فراح يجول تكراراً، دون علمٍ منه، الشوارع نفسها.

كانت حديقةُ الوالدة الصّغيرة إحدى الحدائق القليلة النادرة التي لا تزدحم بألعاب بلاستيكيّة وكراسيّ وطاولات مخلّعة، وقطع سيّارات.

كان العشب ينمو فيها عالياً ويعلوه الاصفرار لأنّ أمّه، حسب زعمها، لم يكن لديها الوقت لتهتمّ بها بسبب انصرافها الكليّ لعملها التبشيريّ.

غادر جبريل السيّارة ممتعضاً.

كان قد ترك حقيبته على المقعد، فأمسكها رودي وهو ينزل من السيّارة.

رأى في نظرة الطّفل الجفلة أنّ هذا الأخير كان متيّقناً تماماً من أنّه لن يعاود الخروج مع والده.

ومع ذلك كان يجب فعلاً أن يرى جدّته من وقتٍ لآخر، فكّر رودي مستاءً.

كم بدت له بعيدة صبيحة هذا النهار بالذات، حين أبلغ فانتا أنّه سيذهب لاصطحاب جبريل ويأخذه لينام عند جدّته، لكنّه لم يكن يرغب في إسعاد والدته بقدر ما كان يريد منع فانتا من الرّحيل!

إذ ما الذي جعله فجأةً يرغب في إرضاء أمّه على هذا النحو؟

لئن لم يكن يستطيع أن يؤيّد كليّاً موقف فانتا التي كانت تؤكّد له أنّ أمّه لا تحبّ جبريل، لأنّه كان من الخطأ اعتبار أمّه شخصاً عاديّاً يحبّ أو لا يحبّ ببساطة، فإنّه، منذ ولادة الصبيّ، ومنذ انحنت والدته على مهده متفحّصةً ملامح الصّغير، بدا له بديهيّاً أنّ جبريل لا يتطابق إطلاقاً، ولم يكن هناك أيّ أمل بأن يتطابق فعلاً مع الفكرة التي كانت أمّه تكوّنها عن المرسَل الإلهيّ، ومذ ذاك لم تجشّم نفسها عناء التعلّق بالطّفل، وكانت هذه اللّامبالاة اللّطيفة هي التي كانت فانتا تحسبها كراهية.

وضع رودي يده على كتف جبريل.

كان بإمكانه أن يحسّ تحت أصابعه بعظامه الصّغيرة الحادّة.

ألصق جبريل رأسه ببطن أبيه، وغرز رودي أصابعه في الشعر المتموّج الناعم، متلمّساً قحف رأسه الأملس المكتمل البديع.

اغرورقت عيناه فجأةً بدموع حارقة.

وعندئذٍ سمع زعيقاً فوقهما، زعقة واحدة غاضبة مفعمة تهديداً.

فانتزع يده من شعر جبريل وسارع إلى دفعه بقوّة أمامه باتّجاه بوّابة الحديقة الصّغيرة، ما جعل الصبيّ يتعثّر.

أمسكه رودي من ذراعه واجتازا بقعة العشب اليابس حتّى باب المنزل وفكّر رودي أنّه كان يبدو وكأنّه يقود الطّفل عنوة.

ولكن، مرتاعاً، منذهلاً، غير جاسر على رفع نظره إلى السّماء، لم يكن

مكتبة

يفكّر في إفلات الصبيّ من قبضته المطبقة على ذراعه كملزمة.

انتحب جبريل منتفضاً.

فأفلت رودي جبريل من قبضته.

كان الصبيّ ينظر إليه بحيرة مذعورة.

فابتسم رودي على مضض، ثمّ قرع بقبضته على الباب عدّة مرّات.

ماذا لو أنّ الصّقر الجارح انقضّ عليه قبل أن تفتح له أمّه، فماذا سيصير بمحاولات رأب صدع شرفه؟

آه عندئذٍ سيضيع كلّ شيء هباءً!

وانفتح الباب على الفور.

دفع رودي جبريل إلى الداخل وأغلق الباب.

قالت الأمّ بصوتٍ مرحٍ:

- آه! يا للمفاجأة!

همس رودي وكان لا يزال تحت تأثير الصدمة:

- جئتكِ بالصّغير.

لأنّه لم يعد هناك داعٍ يا فانتا، لم يعد هناك داعٍ الآن...

حنتِ الأمّ رأسها نحو جبريل وتفحّصته بانتباه ثمّ طبعت قبلة صغيرة على جبين الطفل.

راح جبريل يتململ منزعجاً.

ثمّ رفعت هامتها لتقبّل رودي، وأحسّ من ارتجافة فمها أنّها كانت سعيدة وتفيض حماساً.

ما أقلقه بعض الشيء.

كان يظنّ أنّ اضطرابها البهيج لم يكن مردّه إلى وجودهما بل إلى أمر آخر

سابق على وجودهما، هو والصبيّ، وأنّ زيارتها لن تفسد شيئاً لأنّها كانت قليلة الأهميّة، لا بل تافهة بالمقارنة مع مصدر حماسها الغامض.

وأحسّ بغيرة نيابةً عنه وعن جبريل في آن.

ألقى بثقلِ يديه الاثنتين على كتفَي ابنه.

- فكّرتُ أنّكِ ستكونين سعيدة بإبقائه عندكِ ليلاً.

- آه!

كتّفت الأمّ ذراعيها، وهزّت رأسها، ثمّ استقرّ نظرها المتفحّص من جديد على وجه الطّفل وكأنّها تحاول أن تروزه.

- كانَ عليكَ أن تُعلمني بذلك مسبقاً، ولكن لا بأس، ما من مشكلة.

كان رودي يلاحظ، على شيء من الامتعاض، أنّها كانت تبدو في ذلك النهار ممتلئة شباباً وجمالاً بشكلٍ غريب.

كان شعرها القصير مصبوغاً حديثاً بلونٍ أشقرَ جميلٍ ضارب إلى الرماديّ، وكان جِلدها الشديد البياض، المكسوّ بالمساحيق، مشدوداً فعلاً عند الخدّين.

كانت ترتدي بنطال جينز وقميصاً رياضيّاً زهريّاً، وحين استدارت للذّهاب إلى المطبخ، رأى أنّ بنطال الجينز كان مشدوداً ويظهر حقويها الضامرين وعجيزتها الصّغيرة وركبتيها النحيلتين.

في المطبخ الصّغير المصنوع من الخشب الداكن، كان هناك فتىً جالساً على الطّاولة الضيّقة.

وكان منصرفاً إلى تناول لمجة.

كان يغمس في فنجان حليب كعكة صغيرة محلّاة ولاحظ رودي أنّها كانت من تلك التي تعدّها الأمّ في المناسبات الخاصّة.

مكتبة

كان الفتى بعمر جبريل تقريباً.

كان طفلاً جميلاً ذا عينين فاتحتين، وشعرٍ بخصلات متموّجة شقراء.

شعر رودي بنوعٍ من الغثيان.

وأحسّ في فمه بطعم اللّحم المقدّد والخبز الأبيض البائت.

قالت الأمّ لجبريل وهي تشير إليه ليجلس على الكرسيّ الآخر أمام الطّاولة الصّغيرة:

- اجلس هناك. هل أنت جائع؟

كانت تسأل بنبرة من يتمنّى أن يكون الجواب سلباً، وهزّ جبريل رأسه نفياً ورفض أيضاً أن يجلس.

- إنّه جار صغير، جعلتُه صديقاً لي، قالت الأمّ.

لم يكن الطّفل الأشقر ينظر إلى أحد.

كان منكبّاً على طعامه منفرج الأسارير، واثقاً من نفسه، فخوراً، وشفتاه لا تزالان مبلّلتين بالحليب.

عندئذٍ أيقن رودي أنْ لا سبب آخر لغبطة أمّه الغريبة، وألق وجهها وانشراحه إلّا وجود هذا الصبيّ في مطبخها، متنعّماً بقطع الحلوى التي أعدّتها له.

ليس هناك أيّ سبب آخر لاختلاج الجلد هذا والشفتين إلّا وجود الصبيّ نفسه.

وأيقن أيضاً بشكلٍ حاسم أنّه لن يترك جبريل مع والدته هذا المساء ولا في أيّ مساء آخر، وإذ اتّخذ هذا القرار شعر براحة هائلة.

وضمّ ابنه إلى صدره هامساً في أذنه:

- سنعود كلانا، أنتَ لن تبقى هنا، اتّفقنا؟

ثمّ، ولأنّ جبريل كان يحسّ على الأرجح بالجوع، وكان يُستحسَنُ فعلاً، ولو لوقتٍ قصير، أن يجلس إلى مائدة الأمّ، سكب له رودي فنجان حليب وقدّم له الكرسيّ ليجلس عليه.

قالت الأمّ لرودي.

- تعال، لديّ ما أريكَ إيّاه.

ولحقها إلى الصّالون المليء بالأثاث الضخم، الذي لا طائل منه، ولا يخلي المكان إلّا لفسحات ضيّقة يصعب المرور في زواياها.

سألت الأمّ بصوتٍ يصطنع البرودة.

- كيف تجده؟

هذا الصوت، كان يشعر به يلهج شوقاً ونفاد صبر وجذلاً.

- إنّه بمثابة «موديل» لي وهو يتقن عمله. لن أدعه يفلت منّي، هذا الفتى.

وانطلقت بضحكة عالية وجيزة.

- على أيّة حال، لا يلقى الرعاية والاهتمام في بيته. يا إلهي كم هو جميل! أليس كذلك؟

ومن طاولتها المملوءة بالأوراق والأقلام ورزم الكراريس المحزومة، أخذت بطاقة وقدّمتها لرودي.

كان ذلك رسماً أوّلياً.

كان جار الأمّ الصّغير يرتدي ثوباً أبيض، ويطير بشكلٍ مضحكٍ فوق جماعة من البالغين وتعابيرهم الجامدة يفترض بها أن تمثّل قبوعهم في الخشية أو الجهل.

كانت الأمّ تشرح بصوتها المتوتّر، المفتون، الحازم:

مكتبة

- إنّه هنا، فوقهم، ولم يتعرّفوا إليه بعد، لم يُعطَ لهم أن يروا الضوء، ولكن في الرسم التالي سينير الله عقولهم، وتتفتّح أعينهم على الحقيقة، ويكون بإمكان الملاك أن يأخذ مكانه بينهم.

كان رودي يشعر بقرف يجتاح كيانه وكان هذا القرف يفيض سأماً.

إنّها مجنونة، وبأغبى طريقة ممكنة، لا أريد بعد اليوم أن أدافع عمّا تفعله ولا يتوجّب بي أن افعل. يا صغيري جبريل المسكين! آه لن نعود إلى هذا المكان ثانية.

في هذه اللحظة، خال رودي أنّها خمّنت أفكاره. داعبت الأمّ خدّه ولاطفت رقبته وهي تبتسم له بحنان، وكانت لمسة يدها الباردة، الرطبة تنفّره.

كان يرى، بما أنّها قصيرة القامة، ثدييها الثقيلين قليلاً في تقويرة قميصها البارزة.

بدوا له مليئين بالحليب أو باللذّة.

أشاح بنظره عنهما، وتراجع قليلاً لكي تنزع يدها.

إنّها لا تسألُني أبداً عمّا يزعجني أو يغضبني، وما يجدر بي أن أعرفه لغاية اليوم لن تعلمني إيّاه من تلقاء ذاتها، لأنّ ذلك لم يعد يهمّها منذ وقتٍ طويل.

قال بلهجة بطيئة متصلّبة:

- هل عُرِفَ من مرّر السلاح لأبي؟

تجمّدت دهشةً، مع أنّ ذلك لم يبدُ عليها إلّا عندما تمهّلت لكي تضع بطاقتها على الطّاولة ثمّ تلفّتت إليه بابتسامة ممتعضة، نكدة، ثمّ راحت تمطّ شفتيها اليابستين.

قالت:

- ما لك وتلك القصص القديمة!

فأصرّ قائلاً:

- هل عُرِفَ من؟

فأطلقت تنهيدة وقد بدت متكلّفة، منزعجة، مغناجاً.

ثمّ تهاوت على إحدى الكنبات وبدت وكأنّها تختفي في سماكة الوسائد الرخوة غير المتناسقة، المصنوعة من جلد اصطناعيّ ضارب إلى الورديّ.

- لا، بالطّبع، ولم أعرف لغاية الآن ولست متأكّدة من قيامهم بتحرّيات في هذا الشأن، تعرف تلك البلاد، ويمكنك أن تتخيّل كيف تجري الأمور هناك. ولكن أيّة أهميّة لذلك بعد كلّ حساب! بالإمكان الحصول على كلّ شيء في السجون شرط أن تدفع.

وكان صوت الأمّ يُكتَنف من جديد بتلك النبرة الحادّة الحاقدة، الغامضة الفظّة، الصوت نفسه الذي سمعه رودي لدى عودتها إلى فرنسا منذ ثلاثين عاماً، ثمّ جعلها شغفها بالملائكة وذيوع تبشيرها شبه الاحترافيّ تفقده تدريجاً.

تذكّر تلك النبرة الحادّة المماثلة التي لم تتغيّر، وكأنّ ذكرى تلك الحقبة عليها أن تترافق بالصوت والمشاعر التي ارتبطت بها.

- كان والدكَ يملك المال ليدفع ثمن السّلاح. ما من مشكلة. لم تكن قد مضت على حبسه في سجن روبوس ستّة أسابيع عندما وجد الوسيلة ليوصي على مسدّس. كان لديه طرقه، وكان يعرف الناس والبلاد، تعرف ذلك جيّداً. فضّل الموت على التعفّن في سجن روبوس ثمّ الدّخول في محاكمة ما كانت ستدَع له، في جميع الأحوال، أيّ حظّ بالخروج من السّجن.

مكتبة

- هل قال لكِ ذلك؟ هل قال لك إنّه كان يُفضّل الموت؟

- نعم، تقريباً، في النهاية هنالك طريقة في أن تفصح عن مرادك دون أن تقوله صراحة، لكنّي لم أكن لأتخيّل مطلقاً آنذاك أنّه سيبلغ به الأمر ذلك الحدّ، أي أن يحصل على سلاح في الزنزانة. هذا، لا، لم أكن لأتخيّله.

ودوماً، في صوت الأمّ، تلك المرارة الكئيبة، الناحبة المشوبة بالغموض، التي كانت فيما مضى تُحزن رودي وتجعله يشعر بأنّه مَحطّ لوم لأنّه لا ينجح في إرضاء والدته بمجرّد حضوره اللّطيف والودود قربها، بمجرّد وجوده نفسه، هو، رودي، الابن الوحيد لهذه المرأة الغامضة.

- لم تكن هنالك زنازين إفراديّة ولا حتّى تلك التي تتّسع لستّة أشخاص أو ثمانية. رموه في قاعة برفقة ستّين سجيناً آخرين، وكان الطقس حارّاً لا يطاق، وكان يقول لي عندما كنت أذهب للقائه في غرفة المحادثة، إنّه يُمضي قسماً من نهاراته شبه غائب عن الوعي. كنت أفعل كلّ ما كنت قادرة عليه، حاولت أن أعرف ملاكه الخاصّ به، ولكن أيّ نتيجة كان بإمكاني الحصول عليها رغماً عن إرادته، وبمواجهة روحه الشريرة، وشكّه.

كان رودي يريد أن يسألها، لا بل أوشك أن يسألها: هل كنتُ موجوداً عندما داس والدي على ساليف؟ هل شاهدتُ ما جرى بأمّ عيني؟

ولكنّ نفوراً وحقداً عارماً حارقاً لجماه عن الكلام.

كم كانت كراهيته شديدة لوالده لإرغامه على أن يصوغ في فكره كلمات بهذه الفظاعة!

أيّاً يكن ما جرى حقّاً ذاك اليوم بعد الظّهر بين ساليف وأبيه بدا له

أنّ هذا الأخير كان مذنباً على الأقلّ لمجرّد أنّه أتاح لمثل تلك الكلمات أن تلتصق به، حتّى لو اتّخذت شكل سؤال.

ولكنّه، إذ تولّاه القرف، أعرض عن السؤال.

كانت هي من تحدّث مجدّداً عن الأب، ربّما لأنّها شعرت بكلّ الامتعاض الذي كان صمته يضمره.

وأردفت بنبرتها المريرة، الشاكيَة، الرتيبة:

- اقتنع وحده بأنّ أمره انتهى، وأنّ التحقيق أو ما يقوم مقامه لن يكون إلّا على سبيل التجريم، في حين أنّه كان بالإمكان الإثبات بأنّ ذاك الشّخص، ساليف، خدعه فعلاً. سرعان ما أدركتُ ذلك وأنا أعيد ترتيب أوراقه، وعلى أيّة حال، كانت مسألة الخداع هذه حجّة قادرة على أن تبرّر، لا أقول الضربات أو ما تبقّى، بل الغضب والمشاحنة، لأنّ ساليف ذاك، كان من المفترض به أن يكون أفضل صديق لوالدك هناك، فوالدك هو من آواه واتّخذه شريكاً، وها قد بدأ يقوم بالشيء الوحيد الذي لا يمكن لآبيل أن يغفره ولا حتّى أن يفهمه، بدأ يخدعه، وبشكلٍ وقح، دون أن يُلمَحَ أيّ تبدّل في تصرّفاته، دون أن يكون هناك أدنى مشكلة بينهما، دون أن يغيّر في ابتسامته ولا في دفء صوته عندما كان يلتقي أباك. كان بالإمكان التحدّث عن كلّ هذا أثناء المحاكمة. واستعدت في ذاكرتي كلّ العروض التي أوصى عليها ساليف لأعمالِ بناءٍ ونجارة وسباكة، وذهبت لأرى المتعهّدين، وحدث أنّهم كلهم كانوا مرتبطين بساليف بطريقة أو بأخرى، أو بزوجة ساليف، أو لا أعرف ماذا أيضاً، وكان واضحاً أنّ تلك العروض كانت مضخّمة، وأنّ ساليف قد خطّط لأن يملأ

مكتبة

جيوبه منها في طريقه. أنا لم أفهم قطّ كيف استطاع أبوك أن يولي ثقته لذاك الشّخص. يجب الارتياب بالجميع هناك، فلا يفكّر الناس إلّا بسرقتك واستغلالك. لا وجود للصداقة هناك. يستطيعون الإيمان بالله ولكنّهم يكرهون الملائكة، ويسخرون منها. عندما سافرتَ مجدّداً لتدبّر حياتكَ هناك، كنت واثقة أنّ ذلك لن ينجح، كنت أكيدة من ذلك.

قال رودي:

- لئن لم أنجح هناك، فهذا ليس بسبب البلاد، بل بسبب أبي.

فضحكت ضحكة ظافرة لاذعة.

- هذا ما تظنّه. أنت شديد البياض والشقرة، وهذا ما استغلّوه، وانكبّوا بشراسة على تدميرك. حتّى الحبّ، لا وجود له هناك. زوجتك اقترنت بك بدافع المصلحة. لا يعرفون معنى الحبّ، لا يفكّرون إلّا في المنفعة والمال.

غادر الغرفة متوجّهاً إلى المطبخ، وكان يشعر بغضبه يتضاءل، لا بل يتبدّد، فقد اتّخذ قراراً مذهلاً، مُحيياً: لن يعود أبداً لزيارة أمّه. وفكّر: ستأتي، هي، إن أرادت ذلك. وفكّر أيضاً: وانتهى الأمر أيضاً بالنسبة لمطابخ مانيل، يا للسعادة! كان يشعر بنفسه خفيفاً فتيّاً كما لم يكن من قبل، منذ فترة لقائه بفانتا، عندما كان ينحدر من جادّة الجمهوريّة في الهواء الدافئ، الشاحب، المشعّ للصباح، مدركاً بوضوح وبساطة نزاهته بالذات.

كان جبريل جالساً على كرسيّه، ولم يقرب لا كوب الحليب ولا الحلوى.

كان الصبيّ الآخر منكبّاً على طعامه بدأبٍ واستمتاعٍ، وكان جبريل ينظر إليه بنفور كئيب.

قالت الأمّ خلف رودي:

- أرأيت، لم يكن جائعاً.

في الخارج، وفيما كانا يتقدّمان نحو السيّارة، وكانت ذراع رودي موضوعة على كتف جبريل، تساءل عمّا إذا كان شيء ما استرعى انتباهه، كتلة مطروحة أرضاً، بالضبط أمام سيّارة النيفادا، كتلة غير واضحة لم يحدث أن وجدت هناك من قبل.

لكنّ الفكرة عبرت في خاطره خطفاً، وكانت دون أهميّة تذكر. ثمّ إنّه كان فخوراً جدّاً وسعيداً باصطحاب الطفل إلى فانتا، إلى درجة أنّه نسي ما رأته عيناه منذ قليل فتساءل إن لم يكن ما رآه وهماً حقّاً.

وأصعد جبريل إلى السيّارة ورمى الحقيبة عند قدميه وابتسم الطفل له، ابتسامة عريضة، مشعّة، للمرّة الأولى، منذ وقت طويل جدّاً، فكّر رودي متأثّراً.

وجلس بدوره في السيّارة، وأدار المحرّك.

وهتف بحماس:

- إلى البيت!

ارتجّت السيّارة.

وعبرت على شيء ضخم، كثيف، رخو، ما أخلّ بتوازنها قليلاً.

سأل جبريل:

- ما هذا؟

وعلى مسافة بضعة أمتار، توقّف رودي. ثمّ تمتم:

- يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي.

واستدار الطفل إلى الزجاج الخلفيّ.

مكتبة

قال بصوته النضر:

- لقد دهسنا طائراً.

همس رودي:

ليس هذا بشيء. لا أهميّة لذلك الآن.

طِباق

مستيقظةً من قيلولتها اليوميّة، ومن أحلامها الضبابيّة الراضية، تأمّلت السيّدة بولمير هنيهةً يديها اللتين كانتا ترتاحان مغتبطتين على فخذيها، ثمّ نقلت نظرها إلى نافذة الصّالون قبالة الكنبة، ورأت في الجهة الأخرى من السياج العنقَ الطويل والرأس الصّغير المتناسق لجارتها. كانا يبدوان أشبه بغصنٍ عجيب منبثقٍ من شجرة الغار، أو فسيلة نبتت صدفةً بعينين كبيرتين مفتوحتين على حديقة بولمير، وبفم ينفرج عن ابتسامة هادئة عريضة أدهشت كثيراً بولمير لأنّها لم تكن تتذكّر أنّها رأت فانتا هذه منشرحة راضية. تردّدت لوجلها، ورفعت يداً متصلّبة قليلاً، يدها الذابلة، المكتسية ببقع الشيخوخة، ولوّحت بها ببطء من اليمين إلى اليسار. والمرأة الشابّة في الجانب الآخر من السياج، هذه الجارة الفريدة التي كانت تُدعى فانتا والتي لم توجّه إلى بولمير إلّا نظرات خالية من أيّ تعبير، رفعت يدها أيضاً. وحيّت بولمير، بلطف، عن عزم وتصميم، أجل، وجّهت إليها التحيّة.

3

حين قال لها أهل زوجها وأخوات زوجها ما كنّ يتوقّعنه منها، حين قالوا لها ما كانت مجبرة على فعله، كانت خادي تدرك ذلك منذ وقتٍ طويل.

كانت جاهلة بالشكل الذي ستتّخذه رغبتهم في التخلّص منها، ولكن أن يأتي اليوم الذي سيُوعز فيه إليها بالرحيل فهذا أمر عرفته أو أدركته أو شعرت به (أي أنّ الفهم الصامت والمشاعر التي لم يُعبَّر عنها قطّ قد عزّزت لديها شيئاً فشيئاً المعرفة واليقين) منذ الأشهر الأولى لإقامتها في عائلة زوجها بعد وفاته.

كانت تتذكّر السنوات الثلاث لزواجهما ليس بوصفها فترة هانئة، لأنّ الانتظار والرغبة الهائلة في الحبل جعلا من كلّ شهر جديد سباقاً محموماً لبلوغ سعادة ممكنة، ثمّ، عندما تأتي العادة الشهرية كانت تشعر بانهيار يعقبه إحباط كئيب، ومن ثمّ يعود الأمل، ومعه هذا السباق المتتابع، المنبهر، اللّاهث طوال الأيّام، على مدى الساعات حتّى اللحظة القاضية حين كان يُعلمها ألم خفيّ في أسفل بطنها بأنّ هذه المرّة ستكون أيضاً كسابقاتها -لا، بالطبع، تلك الحقبة لم تكن بالهانئة ولا بالسعيدة، لأنّ خادي لم تحبل قطّ.

مكتبة

ولكنّها آنذاك كانت ترى نفسها وكأنّها حبل مشدود إلى أقصى حدّ، مضطرمة، قويّة، ضمن المدّة المحدودة لهذا الانتظار المحموم.

لم يكن يبدو لها أنّها شُغِلَتْ بأيّ شيءٍ آخر على مدى السنوات الثلاث إلّا بتطويع روحها لإيقاع الأمل، والخيبة (أي الألم في أسفل العانة) التي سرعان ما تعقبها الغلبة المتجدّدة للثقة المعاندة، العبثيّة تقريباً.

كانت تقول لزوجها:

- لننتظر، ربّما سأحبل في الشهر القادم.

وكان يُجيب بلطف: «نعم، بالتأكيد »محاذراً أن يُظهر لها شيئاً من خيبته.

لأنّ ذاك الزوج الذي اقترنت به كان من اللّطف بمكان.

وتركها، في عقر حياتهما المشتركة، تصير ذاك الحبل المشدود إلى حدّ القطع الذي كان يجعله أدنى انفعال يهتزّ، وكان قد شملها بملاطفاته وكلماته اللبقة، المرهفة، بالضبط كما لو أنّها، لانشغالها بالخلق، كانت تحتاج حتّى يكتمل صنيعها ويتحقّق هاجسها، لجوّ من الاحترام والمراعاة الصامتة حولها.

أبداً لم يعترض على تسلّط هذا الحبَل، الذي لم يكن ليتمّ، على حياتهما.

كان قد أدّى دوره بشيء من نكران الذّات، هكذا ستقول في نفسها لاحقاً.

ألم يكن يحقّ لزوجها أن يتذمّر من قليلِ مراعاتها حين كانت تجذبه في الليل صوبها أو تصدّه وفق ما كانت تعتقد بجدوى مَنْيِه أو عدم جدواه في تلك الفترة، ومن قليلِ احتراسٍ كانت تظهره لتُفهِمَه أنّها لا تريد مُطارحته الغرام لأنّها لم تكن في فترة الخصوبة، كما لو أنّ مثل ذاك الاستنفاد غير المجديَ للطّاقة كان يمكنه وحده أن يخلّ بالمخطّط الذي كانت ترسمه

آنذاك، أو كأنّ مَنْيَ زوجها يشكّل مخزناً وحيداً، فريداً، وكانت هي حارسته، ولا يجوز في أيّ حال من الأحوال أن تغرف منه من أجل اللذّة، اللذّة فقط؟

لم يتذمّر زوجها من ذلك يوماً.

وخادي، آنذاك، لم تكن قد رأت في تصرّفه هذا أيّة شهامة لأنّها لم تكن لتفهم أنّه كان قادراً على التذمّر، أو ببساطة، على عدم اعتبار هذا الزهد الذي كان يرغمها عليه هوس الإنجاب هذا شرعيّاً وملزماً وجديراً بالحماسة، علماً أنّه، وبمعنى ما، كان عدد المرّات التي تجامَعا فيها مرتفعاً.

لا، بالتأكيد لم تكن لتدرك تلك الأمور آنذاك.

ولاحقاً، فقط بعد وفاة ذاك الرجل الفائق الطيبة، المسالم إلى أقصى حدّ الذي كان زوجها طيلة ثلاث سنوات، عندها فقط أدركت مقدار صبر ذاك الرجل، حين انسلخت عن هاجسها، وعادت إلى نفسها من جديد، عادت ما كانته قبل الزّواج، واستطاعت أن تعرف تحديداً تقدير الصفات التي تحلّى بها ذاك الرّجل من مروءة وتفانٍ.

وعندئذٍ شعرت بألمٍ وندمٍ كبيرَيْن، لا بل بحقدٍ على رغبتها الهاذية تلك في الحمل التي جعلتها غافلةً عن كلّ ما لا يخدم هذه الرغبة، وتحديداً عن الألم الذي كابده زوجها.

أتراه كان مريضاً منذ فترة، وإلّا فما الذي جعله يموت هكذا فجأةً في صبيحة نهار شتائيٍّ كامد حين استيقظ من نومه كالعادة ليذهب ويفتح الخمّارة التي كانا يديرانها، هو وخادي، في أحد أزقّة المدينة؟

استيقظ، ثمّ، في تنهيدة مخنوقة، أشبه بشهقة خافتة ملجومة كما كان هذا الرجل نفسه، تهاوى عند أسفل السّرير.

مكتبة

كانت قد استيقظت للتوّ، وظلت مستلقية، لم تتخيّل خادي بادئ الأمر، ولا حتّى لثانية واحدة، أنّ زوجها توفّي.

ولامت نفسها طويلاً على فكرة راودتها، آه والحقّ يقال، لقد ازدرت نفسها أكثر بعد مرورِ عام: حين تولّاها شديد الأسى لأنّ حالته كانت على هذا السوء في تلك اللّحظة بالذات، فالعادة الشهريّة لخادي كانت وافتها منذ أسبوعين بالتّمام، وكانت تشعر بألم في ثدييها وبأنّهما أشدّ تصلّباً، ويفترض إذن أن تكون أحشاؤها خصبة، ولكن، إذا كان ذاك الرجل متوعّكاً لدرجة أنّه لم يستطع في ذاك المساء أن يجامعها، فأيّ خسارة ومضيعة للوقت وأيّ خيبة فظيعة!

ثمّ نهضت واقتربت منه، وحين أدركت أنّه لم يعد يتنفّس، وأنّه كان متكوّماً على نفسه، وركبتاه تقريباً عند ذقنه، وذراعه ملتوية تحت رأسه فاتحاً يده وباسطاً راحته ببراءة، هشّاً، شبيهاً آنذاك، قالت في نفسها، بالطفل الذي لا بدّ أنّه كانه، رقيقاً وشجاعاً، لا يعرف المناكدة، واضحاً ومستقيماً، متوحّداً وغامضاً خلف دماثته الظاهرة، أمسكت راحة اليد البريئة تلك، وضغطت بها على شفتيها، وجبينها، كان هذا القدْر من النزاهة يدمّرها؛ ولكن حينها أيضاً، كان الألم المصدوم يتنازع في قلبها مع الحماسة التي لم تهدأ ولم تستوعب بعد ما جرى، والتي كانت تغمرها بكليّتها حين كانت تظنّ أنّها في فترة الإباضة، وفيما كانت تهبّ لتبحث عن النجدة داخلةً إلى منزل إحدى الجارات، والدّموع تنهمر من عينيها دون أن تشعر بها، كان هذا الجزء منها الذي لا يشغله إلّا هاجس الحَبَل قد بدأ يتساءل في غمرة اضطرابه عن الرجل الذي بإمكانه أن يحلّ هذه المرّة مكان زوجها، فتتفادى تضييع الفرصة التي ستحظى بها ربّما الشّهرَ ذاتَه وتُلفي نفسها

حبلى، وتقطع بذلك الإيقاع المرهق للأمل واليأس الذي كانت تتمثّله أيضاً وهي تهتف صارخةً بأنّ زوجها قد مات، وعمّا إذا كان يتوجّب عليها إفلات هذه الفرصة من يدها.

ثمّ بدأت تصغي لصوت العقل، وتدرك أنّ ذلك الشهر الخصب سيذهب هدراً، ومثله الأشهر الآتية، وكان شعورها الكبير بالخيبة، بأنّها تحمّلت كلّ هذا الأمل واليأس طيلة ثلاث سنوات عبثاً، يفسد حزنها على موت هذا الرّجل مضيفاً عليه مرارة مشوبة بالحقد.

ألم يكن بإمكانه أن يموت، بعد غد، أو بعد ثلاثة أيام؟

كانت مثل هذه الأفكار تبعث اليوم في نفس خادي الندم لأنّها خطرت لها.

بعد وفاة زوجها، صرفها مالك الخمّارة ليوظّف ثنائيّاً آخر، وخادي لم يعد لديها من ملجأ أفضل سوى الذهاب للعيش مع عائلة زوجها.

كان والداها بالذات قد عهدا لجدّتها بتربيتها، وقد توفّيت جدّتها منذ وقت طويل، وكانت خادي قد فقدت كلّ أثر لوالديها، وفي طفولتها لم تكن تراهما إلّا نادراً.

ومع أنّها أصبحت امرأة شابّة رشيقة طويلة القامة، مرهفة العظام، مكتنزة الجسد، ذات وجه بيضاويّ أملس، ومع أنّها عاشت ثلاث سنوات مع هذا الرّجل الذي لم يبادرها إلّا بكلمات لطيفة، وعرفت كذلك كيف تفرض الاحترام في الخمّارة من خلال تصرّفها المتعالي، على غير قصدٍ منها، الحذر، البارد قليلاً، الذي يوصد الباب في وجه التلميحات الساخرة أو الفظّة إلى عجزها عن الإنجاب، فإنّ طفولتها القلقة والخالية من الحنان، ثمّ جهودها اللّامجدية للحبَل، وإن أبقتها في حالة من الانفعال الحادّ، شبه

مكتبة

المتعنّت، كلّ ذلك وجّه ضربات، قلّما كانت محسوسة في الظاهر ولكنّها كانت كافية لتقضي على ثقتها المهتزّة اجتماعيّاً، وكلّ ذلك هيّأها أيضاً لأن تحسب إهانتها أمراً عاديّاً.

بحيث إنّها، حين وجدت نفسها في عائلة زوجها التي لم تكن تستطيع أن تغفر لها أنّها لا تملك أيّ سند، ولا أيّ مهر، والتي كانت تحتقرها بصراحة وكانت ناقمة عليها لعدم إنجابها، قبلت بأن تصير شيئاً تعساً، وبألّا يفطن لوجودها أحد، مكتفيةً فقط بأفكار غامضة لا شخصيّة، وأحلام واهية شاحبة تلوذ إليها بخطوات متثاقلة آليّة، لا مبالية بنفسها، وكانت تظنّ أنّها لا تتألّم البتّة.

كانت تعيش مع أهل زوجها واثنتين من بنات حميها، والأطفال اليافعين لإحداهما، في الغرف الثلاث لمنزل بائس.

في الخلف، كان المنزل يطلّ على باحة من الأرض المطروقة يتقاسمها سكّان المنازل المجاورة.

وكانت خادي تتجنّب الظّهور في الباحة لأنّها كانت تخاف أيضاً من الكلمات الهازئة التي تتناول تفاهة حياتها كأرملة لا مال لديها ولا أولاد. وعندما كانت مرغمة على البقاء في الباحة لتقشّر الخضار أو تعدّ السّمك، كانت تنتحي زاوية ولا تدع يبين من قامتها النحيلة المقرفصة في مئزرها، الملتفّة حول نفسها، إلّا أصابعها الرشيقة، ومن وجهها المخفض، إلّا النتوءات العالية من خدّيها، لدرجة أنّ الآخرين سرعان ما كانوا يكفّون عن إيلائها انتباهاً، إلى حدّ نسيانها، وكأنّ هذه الكتلة من الصّمت والهوان لم تعد تستحقّ عناء أن تُنادى أو أن يُسخَرَ منها.

ومن دون أن تكفّ عن العمل، كانت تنزلق إلى حالة من الذّهول

الذّهنيّ تمنعها من فهم ما يدور حولها من أحاديث.

كانت عندئذٍ تشعر أنّها في حالٍ جيّدة.

وتشعر أنّها تنام نوماً بريئاً، خفيفاً، مجرّداً من الفرح ومن القلق على حدٍّ سواء.

وباكراً، كلّ صباح، كانت تغادر المنزل برفقة أختَي زوجها، ويحملْنَ ثلاثتهنّ على رأسهنّ الطُّسوت البلاستيكيّة من أحجامٍ مختلفة لبيعها في السوق.

كنّ ينتحين هناك زاويتهنّ المعهودة.

كانت خادي تقرفص، على مسافة بعيدة من أختَي زوجها اللّتين تتظاهران، من جهتهما، بتجاهل حضورها، وكانت تبقى ساعات طوالاً على هذا النحو، مجيبةً بثلاث أصابع أو أربع مرفوعة لدى تحرّي المارّة عن أسعار الطّسوت، جامدةً وسط الحيويّة الصاخبة للشارع، التي، إذ تصيبها بالذهول بشكلٍ غامض، كانت تساعدها على استعادة هذا الإحساس بالخدر الذي تجوله أحلام ضبابيّة، غير مؤذية، مسلّية، شبيهة بأوشحة طويلة تحرّكها الرّيح، ويتراءى لها من وقتٍ لآخر وجه زوجها الغامض الذي كان يبتسم لها ابتسامة ودّ أبديّة، أو أحياناً، وبوتيرة أقلّ، وجه الجدّة التي ربّتها ورعَتْها، واعترفت، مع أنّها عاملتها بقسوة، بأنّها كانت فتاة صغيرة مميّزة غنيّة بما تملك من مزايا، ولم تكن مجرّد طفلة بين طفلات أخريات.

هكذا بحيث شعرت دوماً بأنّها فريدة من نوعها بوصفها شخصاً، وبأنّها، وبشاكلة لا يمكن إثباتها ولكنّها واضحة للعيان، لا يمكن استبدالها، هي خادي دمبا، تحديداً، حتّى لو هجرها والداها، وحتّى لو

مكتبة

احتضنتها جدّتها على سبيل الواجب، وحتّى لو لم يكن هناك كائن واحد على الأرض محتاج لأن تكون هي على وجه الأرض أو راغباً في ذلك.

كانت راضية بأنّها خادي، ولم يكن هناك أيّ فاصل بينها وبين الحقيقة التي لا تُدحَض لشخصيّة خادي دمبا.

حتّى أنّها كان يخامرها الشعور أحياناً بأنّها فخورٌ بأن تكون خادي دمبا، لأنّها فكّرت غالباً، بدهشة، بأنّ الأطفال الذين كانت تبدو حياتهم سعيدة، والذين كانوا يأكلون كلّ يومٍ حصّتهم الكافية من الدجاج أو السّمك، والذين كانوا يرتدون في المدرسة ملابس نظيفة غير ممزّقة، هؤلاء الأطفال كانوا بشراً مثلهم مثل خادي دمبا، التي لم يكن لديها، هي، إلّا حصّة هزيلة جدّاً من الحياة الحلوة.

وكان ثمّة أمر أيضاً لم تكن تشكّ به يوماً وهو أنّها كانت غير قابلة للتجزئة، وثمينة، وأنّها لا يمكنها أن تكون إلّا نفسها.

كانت تشعر فقط أنّها تعبة من الوجود ومرهقة من المضايقات حتّى لو كانت لا تسبّب لها ألماً حقيقيّاً.

لم تكن أختا زوجها توجّهان إليها الكلام طيلة الوقت الذي يمضينَه سويّة أمام بسطتهنّ.

وعلى طريق العودة، كانتا تلهجان بالإثارة التي تبثّها السوق، وكأنّ كلّ الحماس والهرج والمرج المحتدم للحشد كان يتغلغل في جسديهما وعليهما أن تتحرّرا منه قبل العودة، ولم تكونا تكفّان عن مضايقة خادي وعن دفعها وقرصها، تغيظهما وتبهجهما صلابة لحمها غير المتأثّر، والبرودة المتجهّمة لتعابير وجهها، وكانتا تدركان أو تخمّنان أنّها كانت تمحو كلّ قدرة على الفهم ما إن يجري تعذيبها؛ كانتا تدركان أو تخمّنان أنّ الكلمات الأكثر

لذعاً كانت تتحوّل في ذهنها إلى أوشحة حمراء تأتي لتشوّش جزئيّاً ولكن بشكلٍ عابرٍ أحلامها الشاحبة، المبلسِمة؛ كانتا تدركان أو تخمّنان كلّ تلك الأمور التي تغيظهما خفية.

فجأةً كانت خادي تنعزل آنئذٍ عنهما قليلاً، أو تأخذ في السير ببطء واهن، وكانت الأختان لا تكترثان بها في آخر الأمر.

وذات مرّة صرخت إحداهما ملتفتةً إليها إذ لاحظت المسافة التي تفصل بينهما وبين خادي:

- ماذا دهاكِ أيّتها الخرساء؟

وكانت تلك كلمة لم يتسنّ لخادي الوقت لتمنع ذهنها من فهمها، وهذه الكلمة باغتتها كاشفةً لها عمّا كانت تعرفه دون أن تنتبه إليه، وهو أنّها لم تنبس بكلمة منذ وقت طويل جدّاً.

كانت الدمدمة الغامضة التي تزيّن أحلامها مؤلّفة من صوت زوجها وصوتها وبضعة أصوات أخرى مجهولة، آتية من الماضي وقد أوهمتها أنّها كانت تتكلّم من وقتٍ لآخر.

وتولّاها رعب خاطف ولكن شديد.

ماذا لو نسيت كيف تتكوّن الكلمات والطريقة التي تخرج فيها من الحلق، فأيّ مستقبل ينتظرها، وإن يكن أليماً؟

واستسلمت من جديد للخدر واللّامبالاة.

ومع ذلك لم تحاول أن تتلفّظ بأيّ كلمة خشية أن تخونها قدرتها على الكلام، أو أن يتناهى إلى أذنها صوت مقلق أو غريب.

وعندما أبلغها حمواها، وبحضور ابنتيهما اللّتين اكتفتا هذه المرّة بالاستماع صامتتين، بأنّ عليها الرّحيل، لم ينتظرا منها أيّ جواب لأنّ الأمر

مكتبة

لم يكن سؤالاً يطرحانه عليها بل أمراً عليها الامتثال له، ومع أنّ القلق جاء ليعكّر من جديدٍ صفو سباتها، لم تتكلّم خادي، ولم تطلب شيئاً، ظنّاً منها أنّها بذلك تقي نفسها خطر أن تتوضّح النوايا التي تبيّت ضدّها، وأن يصبح رحيلها واقعاً متحقّقاً، لكأنّ والدَي زوجها، فكّرت لاحقاً، كانا بحاجة لأن تردّ على كلماتهما لكي تترسّخ صحّة ما كانا يقولانه أو حقيقته.

كانا بغنىً عن أيّ شيء من هذا القبيل.

كانت خادي تعرف أنّها لم تكن موجودة بالنسبة إليهما.

والسبب أنّ ابنهما الوحيد تزوّجها على الرغم من اعتراضهما، ثمّ إنّها لم تنجب، ولم تكن تتمتّع بأيّ حماية. كانا قد أبعداها ضمنيّاً وببساطة، دون حقد أو قصدٍ خفيّ، عن جماعة البشر، وكانت نظراتهما القاسية وهما يزمّان أعينهما، نظراتهما كعجوزَيْن، تحدّق بها دون أن تميّز بين هذا الشّكل الذي يُدعى خادي، وبين الأشكال التي لا تُحصى، للبهائم والأشياء التي يصدف أنّها هي أيضاً تسكن العالم.

كانت خادي تعرف أنّهما مخطئان، ولكنّها لم تكن تملك أيّ وسيلة لتثبت لهما ذلك، سوى أن تكون هنا، في بداهة تشابهها معهما، وإذ أدركت أنّ هذا لم يكن كافياً، ما عاد يهمّها أن تثبت لهما إنسانيّتها.

استمعت إذن إليهما دون أن تنبس بكلمة، مطيلةً النظر تباعاً إلى التنّورتين المطبعّتين لشقيقتَي زوجها الجالستين على الكنبة العتيقة، من جهتي والديهما، وكانت أيديهما ترتاح بين أفخادهما وراحات أيديهما بادية للعيان، تسِمها براءة وهشاشة لم تعهدهما في طبع هاتين المرأتين، ولكنّ هذه الراحات كانت تكشف فجأةً لخادي براءة وهشاشة موتهما، وتستبقان الانكسار الوداع لوجهيهما عندما ستوافيهما المنيّة، وكانت هذه الأيدي

العزلاء شبيهة جدّاً بيدَي زوجها، شقيق هاتين المرأتين، عندما فارقته الحياة فجأةً، ما جعل خادي تشعر بغصّة في حلقها.

كان صوت حماتها جافّاً، مهدِّداً، يواصل ما يفترض أن يكون، فكّرت خادي وهي في عالمها البعيد، توصيات مملّة، ولكنّها لم تعد تبذل الجهد لتفهمها.

لا تكاد تكون سمعت باسم فانتا، قريبة لها اقترنت برجلٍ أبيض وأصبحت تعيش في فرنسا.

كانت تستسلم من جديدٍ للأوهام الشاحبة التي تنوب عن أفكارها منذ كانت تسكن عند هؤلاء الناس، ناسيةً، أو عاجزةً حتّى عن تذكّر ما شعرت به، ذاك الخوف الرّهيب الذي اجتاح كيانها منذ بضع دقائق لدى التفكير في أنّ عليها الرّحيل، ليس لأنّ لديها أدنى رغبة في البقاء (لم تكن ترغب في شيء) بل لأنّها شعرت أنّ هذه الأحلام لن تقاوم تغيّراً مماثلاً لوضعها، وأنّه سيكون عليها أن تفكّر وتبادر وتقرّر، ولو كان الأمر يتعلّق بالاتّجاه الذي ستتّخذه خطواتها، وفي حالة الإحباط التي كانت تعيشها، لم يكن شيء أكثر هولاً من تفكيرها هذا.

كانت الأفاعي الرماديّة المرقّطة بالأصفر، العاضّة أذنابها، والوجوه النسائيّة الفرحة، السمراء على خلفيّة حمراء تعلو عبارة: «عام المرأة الأفريقيّة»، التي تزيّن القماش الذي اتّخذته أختا زوجها تنّورتين لهما، أفاعٍ ووجوه متعدّدة بالعشرات، مسحوقة بطريقة مشوّهة بين ثنيات القماش، هذا كلّه كان يرقص ضمن حلقة شريرة في فكرها، حاجباً صورة زوجها اللّطيفة الضبابيّة.

بدا لها أنّ الأختين، اللّتين تتجنّبان عادةً النظر إليها، كانتا ترمقانها

مكتبة

بنظرات ساخرة.

إحداهما سوّت تنورتها على فخذيها دون أن تفارق بنظراتها خادي، وكانت يداها اللّتان تملّسان القماش بإصرارٍ تبدوان لخادي خطرتين، مستفزّتين، كما حين رأتهما منذ قليل تستريحان متبطّلتين، مبسوطتين، عزلاوين، بريئتين.

عميقاً كان ارتياحها عندما كشحت حماتها الهواء بأصابعها مشيرةً لخادي أنّها أنهت حديثها وأنّ بإمكانها مغادرة الغرفة.

لم تكن تملك أيّ فكرة عمّا قيل لها للتوّ في ما يتعلّق بظروف رحيلها؛ متى عليها أن ترحل؟ في أيّ اتّجاه، لأيّ هدف، بأيّ وسيلة؟ وبما أنّ أحداً، في الأيّام التالية، لم يكلّمها عن الموضوع مجدّداً، وبما أنّها ذهبت إلى السّوق كالعادة دون أن يعير أحدٌ شخصها اهتماماً، فإنّ القلق الذي كان يبعثه في نفسها الانقلاب المحتمل لحياتها امتزج في ذاكرتها بالأفاعي والوجوه المطبوعة، مستعيراً منها طابعها الخياليّ العبثيّ، وغارقاً في النسيان حيث كانت الأحلام المبتورة تضمحلّ.

ذات مساء، لكزتها حماتها في حقويها وقالت لها:

- حضّري أمتعتكِ.

ثمّ، وإذ خشيت أن تأخذ خادي ما ليس لها، بسطت على أرض الغرفة المشتركة أحد مآزر خادي، ووضعت فوقه المئزر الآخر الذي كانت تملكه وقميصاً عتيقاً أزرق شحب لونه وقطعة من الخبز الملفوف في ورقة جريدة.

وصرّت المئزر بعناية موثقةً الأطراف الأربعة سويّة.

ثمّ سحبت من حمّالة صدرها، ببطء وبمهابة مليئة أسىً وتأفّفاً، لفّة من الأوراق المالية ودسّتها (هل كانت تعرف أنّ خادي ليس لديها حمّالة

صدر؟) في أعلى سروال خادي، ممرّرةً أصابعها بفظاظة في حزام المئزر، مدخلةً الأوراق بين جلدها، الذي خدشته بأظافرها الصفراء، وتكّة السروال.

وألحقتها بورقة صغيرة مطويّة إلى أربع كانت تحتوي، حسب قولها، عنوان القريبة.

- عندما تصلين عند فانتا، ترسلين لنا المال. لا بدّ أنّ فانتا ثريّة الآن فهي أستاذة.

اضطجعت خادي على الفراش الذي كانت تتقاسمه مع أبناء ابنة حميها.

كان جزعها من الشدّة بحيث شعرت بالغثيان.

أغمضت عينيها وحاولت أن تستدعي الأحلام البيضاء المتموّجة، التي كانت تحميها من التماسّ الذي لا يطاق مع الواقع الذي كانت تؤلّف جزءاً منه هي وقلبها الحزين، القلق، المليء بالندم والشكّ، حاولت يائسةً أن تنفصل عن شخصها الخائف والضّعيف، ولكنّ الأحلام في ذاك المساء لم تكن قادرة على إبعاد تسلّلات الحياة، وظلّت خادي في مواجهة مع رعبها ولم يستطع أيّ ركون للّامبالاة تحريرها منه.

جاءت أمّ زوجها تبحث عنها منذ الفجر، وأمرَتها بصمتٍ بأن تنهض.

قفزت خادي فوق جسدي أختَي زوجها المضطجعتين على الفراش الآخر. ومع أنّها لم تتمنّ أن تسمع صوتيهما الهازئين القاسيَين ولا أن ترى أعينهما تلتمع في الفجر الرماديّ دون رحمة إلّا أنّ تظاهر المرأتين بالنوم في اللحظة التي كانت تتهيّأ فيها للذّهاب إلى المجهول بدا لها وكأنّه رسالة مشؤومة.

مكتبة

هل لأنّهما كانتا متيقّنتين من عدم رؤية خادي ثانيةً فضّلتا تجنّب عناء إلقاء التحيّة عليها، ورميها بنظرة، وتوديعها ملوّحتين لها بِحركة بريئة سخيّة من يديهما؟

لا شكّ أنّهما كانتا تفضّلان، بما أنّ خادي كانت متّجهة إلى موتها، أن تقطعا منذ تلك اللحظة أيّ علاقة بها، مدفوعتين بالتوجّس المبرَّر طبعاً من أن تجدا نفسيهما متّحدتين، ولو هنيهة، بمصيرها المشؤوم.

كتمت خادي تأوّهاً.

في الشارع كان رجل في انتظارها.

كان يرتدي ملابس على الطريقة الغربيّة، بنطال جينز وقميصاً بمربّعات، ويحمل نظّارات شمسيّة لامعة، مع أنّ النّهار لم يكد يطلع. وعندما ظهرت خادي أمامه، وحماتها تدفعها بيدها نافدة الصّبر، مغتاظة، متوتّرة، لم تستطع أن تتبيّن ما إذا كان ينظر إليها وهي تشدّ صرّتها إلى صدرها، هزيلة شقيّة، كما رأت نفسها معكوسة في مرآتَي نظّارتيه.

لاحظت طريقتها في عضعضة شفتها السفلى، حتّى أنّ أسفل وجهها كان متحرّكاً دائماً مثل فكّ حيوانٍ قاضم.

أسرعت حماتها بإعطائه بضع أوراق ماليّة.

فدسّها في جيبه حتّى دون أن ينظر إليها.

وهمست بالقرب من أذن خادي:

– لا يجدر بكِ العودة إلى هنا. عليكِ أن ترسلي لنا مالاً ما إن تصلين إلى هناك. إذا عجزت عن ذلك فلا يجدر بكِ العودة إلى هنا.

همّت خادي بأن تتشبّث بذراع المرأة العجوز لكنّ هذه الأخيرة انسلّت بسرعة إلى داخل المنزل وأغلقت الباب خلفها.

قال الرجل بلهجةٍ محايدة، خفيضة: تعالي، الطريق من هنا.

وأخذ ينحدر باتّجاه الشارع دون أن يكلّف نفسه عناء التأكّد ممّا إذا كانت خادي تتبعه فعلاً، كما لو أنّه، قالت في نفسها، بجعلها تسير خلفه مقتفيةً أثره خرقاء متعثّرة في شبشبَيها البلاستيكيّين الورديّين فيما هو يثب على نعلَي حذائه الرياضيّ السميكَين الخفيفَين، لم يكن يشكّ لحظة بالنفع الذي ستعود به رفقته عليها، أو كما لو أنّه لم يكن يبالي، وقد نال أجره، بمعرفة ماذا كانت تريد أن تفعل.

هذا التهاون حيالها طمأن خادي قليلاً.

وما لبثت أن حرّرت ذهنها من الأفكار مصمّمةً فقط على البقاء قريبة من الرجل قدر الإمكان، ومحاذرةً أن تفقد أثناء السير الطريق أحد شبشبَيها. شعرت أنّ مخيّلتها كانت تستسلم للضّباب الأليف الذي يغمرها، لكن ليس ذلك الذي يعبره الوجهان الميتان لزوجها أو جدّتها، بل وجوه تلتقطها عيناها خلال المسير، في الشوارع التي كان يجرّها فيها ذاك الرجل، والتي لم تكن تذكّر أنّها ذهبت إليها، أو تراءى لها فجأةً أنّها ربّما عبرتها ولكن في حالتها المعهودة من الذهول والوهن الذهنيّ، ولا تستطيع بالتالي تذكّرها؛ في حين أنّ المشاهد الأكثر دعة التي تتوالى كحبّات مسبحة على طول الطّريق كانت تبدو لها في ذاك الصباح وكأنّها تعاند برهافة لترْسخ شفافة خلف شاشة أحلامها.

هل كانت قوّة تحميها آنئذٍ رغماً عنها وقد انتُزعت من غفلتها الخطيرة وألفت نفسها نهب المجهول؟

وأكثر من ذلك باغتها نوع الألم والحرقة اللذين شعرت بهما لدى مرورها أمام امرأة حبلى جالسة في أسفل شجرة مانغا، تطعم طفلاً صغيراً

مكتبة

مغليّ الأرز.

هذا الأسى العميق لعدم إنجابها طفلاً، هذا الألم الهائل المرير، بغضّ النظر عن أيّ شعور تلقائيّ بالعار حيال محيطها، لم يعترِها منذ زمن طويل، مذ آوتها عائلة زوجها وتجمّد كلّ شيءٍ في داخلها وغزاه الصقيع.

وها هي تعاين تلك المرأة بدلاً من أن تنظر إليها بطرف عينها، تعاين بطنها المنتفخ والشفتين المتّسختين للصبيّ الصّغير، وها هي تفكّر بحزن: ألن يكون لي أنا خادي طفلٌ أبداً؟ ومع ذلك كانت تعجب لشعورها بالحزن أكثر من حزنها نفسه، ولكونها تقدر على تحديد هذا الشعور الذي كان يحرّك بطريقة غامضة تشوبها العذوبة جزءاً من كيانها كان قد اعتاد إمّا على الخدر أو على الارتياع.

حثّت الخطى لأنّ الرجل أمامها كان يمشي مسرعاً.

كانت امرأة شابّة تخرج على الرّصيف وتسحب لوح الخشب الذي يسدّ النافذة الوحيدة لخمّارتها، امرأة كان بإمكان خادي أن تكونها فيما مضى. رأت هذا الجسد الطويل الأهيف، بوركَيه الضامرين ضمور الكتفين، وبينهما الخصر مرتسم برهافة، والذي يبدو مكتظّاً صلباً رغم نحوله وكأنّه جسد أفعى، فتعرّفت إلى قوام يشبه قوامها، وأدركت الجهد الذي تؤدّيه عضلاتها لتسير بهذه الخطى الرّشيقة، وأيضاً قوّتها، وحضورها السّرمديّ الذي أغفلته، وجسدها الفتيّ المشدود بكلّيّته الذي لم تكن تعيره أيّة أهميّة، والذي راحت تتذكّره من جديدٍ وتستعيده في مشية هذه المرأة المجهولة التي كانت في هذه اللحظة ترصف على الطاولة الخارجيّة لخمّارتها زجاجات الصودا لتعرضها للبيع، والتي بهيئتها المستغرقة، الهانئة، الخفرة، كان بإمكانها أن تكون خادي، فيما مضى.

ها هو الرّجل يسير بها في جادّة الاستقلال.

كان تلامذة في سراويلهم القصيرة الزرقاء وقمصانهم البيضاء يتقدّمون ببطء على الرّصيف، يحمل كلٌّ منهم بين أصابعه قطعة من الخبز ينهشها من وقت لآخر، والفتات يتناثر غزيراً حولهم.

والغربان تكاد تتعقبّهم.

جدّت خادي في سيرها، والتحقت بدليلها ثمّ راحت تعدو بخطى صغيرة لكي تبقى قريبة منه جاعلةً شبشبَيها يصطفقان بقوّة على الإسفلت ما جعل الغربان تفرّ جافلة.

قال الرّجل بصوته المحايد: «نوشك أن نصل»، ولم يكن قصده طمأنة خادي أو تشجيعها بل استدراك سؤالٍ محتمل.

تساءلت حينئذٍ عمّا إذا كان منزعجاً من أن يرى المارّة هذه المرأة بمئزرها الباهت، وشعرها المجرّد من الزينة، المقصوص قصيراً، وقدميها المبيضّتين من جرّاء الغبار، تمشي إلى جانبه بقميصه القصير الكُمّين الملتصق بجسمه، ونظّارتيه، وحذائه الرياضيّ الأخضر، وحرصه الواضح على العناية بمظهره، وإعجاب كلّ ناظرٍ إليه بشخصه.

اجتاز جادة الجمهوريّة ثمّ انعطف منها باتّجاه البحر.

كانت خادي ترى طيور الزاغ والنورس تحوّم في السّماء ذات الزرقة الصافية والعذبة. كانت مدركةً لرؤيتها تطير ومندهشة، لا بل خائفة تقريباً من هذا الإدراك، وكانت تقول في نفسها بشكلٍ مكنون لا بل ملتبس واهن، وضبابات الأحلام لا تزال تغشى تفكيرها: منذ زمن طويل لم أذهب في هذه الناحية، إلى شاطئ البحر، حيث كانت جدّتها ترسلها وهي طفلة لتشتري السمك من الصيّادين النازلين من مراكبهم للتوّ.

مكتبة

وأدركت آنذاك بكلّ كيانها الحقيقة التي لا تُدحض وهي أنّ الفتاة الصّغيرة النحيلة الشّرسة القويّة التي كانت تساوم بحماسٍ في سعر سمك البوريّ، والمرأة التي كانتها في هذه اللّحظة تلحق بغريبٍ إلى شاطئ مُشابه، تؤلّفان شخصاً واحداً ذا مصير متماسك فريد، ما جعلها تشعر بانفعال ورضىً وامتلاء، وبوخزٍ في عينيها أنساها هشاشة وضعها أو بالأحرى لم يعد الخوف من الغد يبدو لها بهذه الخطورة وقد انجلى في النور المبهر لحقيقة مماثلة.

وأحسّت على شفتيها بظلّ ابتسامة أشبه بذكرى.

مرحباً خادي، قالت في نفسها.

وكانت تتذكّر كم أحبّت، وهي طفلة صغيرة، رفقة نفسها، وحين كانت العزلة تضنيها، فذلك لم يكن حين تنفرد بنفسها، بل وسط الأطفال الآخرين أو لدى العائلات العديدة التي عملت لديها كخادمة.

كانت تتذكّر أيضاً أنّ زوجها، الطيّب الصموت بطبعه، المسالم، المنزوي قليلاً، قد بثّ فيها الاعتقاد المطمْن في أنّها ليست مضطّرة إلى التضحية بوحدتها مهما يكن الأمر، فهو لم يكن يطلب منها مثل هذه التضحية، وعليها بالمقابل ألّا تسعى إلى إخراجه من عزلته.

وللمرّة الأولى ربّما، منذ وفاته التي ترقى إلى بضع سنوات، وفي حين كانت تسير لاهثة شبه مهرولة على الجادّة، وأصابع قدميها تقلّصت لإبقاء شبشبَيها في قدميها ثابتَين، وفي حين كانت تشعر بالدفء اللّطيف للسّماء الزرقاء على جبينها، وتسمع طيور الزاغ وهي تصرخ في غضبِ جوعَها الأبديّ، وتتبيّن على مدى ما يرى نظرها النقاط القاتمة التي لا تُحصى لحلقاتها المتقطّعة، للمرّة الأولى منذ وقتٍ طويل، مذ توفّي زوجها أحسّت

بشوقٍ إليه، لذاك الرّجل تحديداً ولما كان عليه من مزايا.

وشعرت بضيق في صدرها.

لأنّ ذلك كان شعوراً جديداً تماماً بالنسبة إليها.

بالرّغم من أنّها باتت بعيدة كلّ البعد عن الخيبة الحاقدة المسبّبة للدّوار، التي أوقعها فيها تيقّنها المرير بأنّها لن تنجب أطفالاً عقب هذه الوفاة غير المتوقّعة، وبأنّ جهودها ذهبت أدراج الرياح، وبعيدة أيضاً عن الحسرة التي لا تقلّ مرارة لأنّها فقدت حياة كانت تلائمها على جميع الأصعدة، كان ألم ذاك الفقدان يتولّاها بغتةً ويضنيها، وبيدها الطليقة، لأنّ الأخرى كانت تمسك بصرّة الثياب، أخذت تقرع صدرها قرعات خفيفة، كما لو أنّها تريد إيهام نفسها بأنّها تعاني من ألمٍ جسديّ.

ولكن، آهٍ، كان هذا ما تشعر به: كانت تودّ أن يكون زوجها هنا، بالقرب منها، أو ببساطة في مكان ما من البلاد الواسعة التي لم تكن تعرف، هي، منها إلّا هذه المدينة، أو بالأحرى جزءاً من هذه المدينة، والتي كانت تتمثّل بشكلٍ مبهم حدودها وامتدادها ومناظرها، وأخيراً تمنّت أن يكون باستطاعتها أن تتذكّر وجه زوجها بهدوئه ونعومته ودكنته، وأن تعرف أنّ هذا الوجه لم تكن تشوبه شائبة، وأنّه كان دافئاً وحيّاً ومتموّجاً كزهرة ثقيلة تنوء بساقها في مكان ما على هذه الأرض، تماماً كوجهها، هي، خادي، الذي كانت تميل به تلقائيّاً ناحية وجه الغريب ("هنا بالذات سنستقلّ السيّارة، وستصل عمّا قريب")، ذاك الوجه المجهول الذي يعلوه الازدراء وتنتابه تشنّجات منفّرة، والذي كان يفترض بخادي فعلاً الاعتراف مع ذلك بحضوره الحيّ قربها، بحرارته التي تشعر بها قرب خدّها بالذات، ورائحة عرقه الخفيفة، ولم تكن تريد أن تتخيّل ماذا يشبه الآن وجه

مكتبة

زوجها، ولم يكن باستطاعتها تصوّره.

ذاك الوجه الحبيب، كانت سترضى بألّا تراه مجدّداً أبداً لو أنّها عرفت أنّه كان، وإنْ يكن بعيداً عنها، سالماً، دافئاً، نديّاً.

ولكن ألّا يعود موجوداً، إلى الأبد، إلّا في ذاكرة حفنة من الناس، هذا التصوّر غمرها فجأةً بحزنٍ وإشفاق على زوجها، ومع أنّها كانت تتألّم وتوجّه قرعات أخرى إلى صدرها، لم تكن تستطيع الامتناع عن الشعور بأنّها محظوظة.

توقّف الرّجل في أسفل الجادّة، بالقرب من جماعة صغيرة من الناس المحمّلين بالرّزم.

ووضعت خادي صرّة ثيابها أرضاً وجلست فوقها.

ارتخت عضلاتها وكذلك أصابع قدميها على النعل البلاستيكيّ الرّقيق.

شمّرت وزرتها قليلاً حتّى ركبتيها لتعرّض للشمس البشرةَ الجافّة، المغبّرة، المتشقّقة لقصبتَي ساقَيْها وربلتيْها.

قلّما كان يهمّها ألّا يقيم لها أحد اعتباراً، وألّا تخطر على بال أحد.

كانت هادئة، حيّة، لا تزال شابّة، كانت هي نفسها وكان جسدها في صحّة تامّة ويتنعّم بكلّ خلاياه بدفء الصبيحة العذب، وكان منخراها يتنشّقان بامتنانٍ الروائح اللّاذعة الآتية من البحر الذي لم تكن تستطيع رؤيته ولكنّها كانت تسمع هديره يتناهى إلى أسفل الجادّة، وكان يلوح لها كمثْل تدفّق أخضر للضوء في النهار الصّباحيّ، كانعكاس برونزيّ على زرقة السّماء النديّة.

أغمضت عينيها قليلاً بحيث تستطيع عبر شقَّيها أن ترى الرّجل المكلّف بمرافقتها يروح ويجيء بخطواتٍ متوتّرة.

إلى أيّ وجهة؟

لن تجرؤ أبداً على توجيه السؤال إليه ولم تكن تريد على أيّة حال معرفة الوجهة، ليس بعد. كانت تفكّر: ماذا سيصنع دماغها المسكين بمثل هذه المعلومة، هو الذي كان يعرف القليل من الناس، والذي لم يكن يعرف إلّا عدداً قليلاً من الأسماء، وهذه الأسماء كانت تتعلّق بالأشياء التي تستخدمها كلّ يوم، وليس إطلاقاً تلك التي لا تستطيع لا رؤيتها ولا استخدامها ولا فهمها.

وعندما كانت ذكريات المدرسة التي أرسلتها إليها جدّتها لبعض الوقت تتداخل في أحلامها، لم تكن إلّا جلبة واستهزاء وشجاراً وتنافر أصوات وبعض صور غامضة لفتاة حذرة في غاية النحول، مستعدّة لنشب أظافرها دفاعاً عن نفسها، مقرفصة على بلاط الأرضيّة لقلّة الكراسي الموجودة، تستمع إلى الكلمات السّريعة، الجافّة، النافدة الصبر، المزعجة دون أن تقدر على التفريق بينها، تنطق بها معلّمة لم تكن، لحسن الحظّ، توليها أدنى اهتمام، وكانت نظرتها الشّاعرة بالإهانة باستمرار أو المتهيّئة للإهانة تلامس الفتاة دون أن تراها، وإذا كانت الفتاة تفضّل أن تترك بسلام، فإنّها لم تكن لديها أدنى خشية من هذه المرأة ولا من الأطفال الآخرين، ورغم تقبّلها الإهانات لم تكن تخشى أحداً.

ابتسمت خادي في سرّها.

كانت هي الفتاة الصّغيرة والشكسة.

لامست سهواً أذنها اليمنى، وابتسمت من جديد وهي تحسّ تحت أصابعها بشحمة أذنها المشرومة: كان طفل قد هاجمها في الصفّ وانتزع منها حلقة أذنها.

مكتبة

آه، لا، لم تفهم شيئاً من المدرسة ولم تتعلّم شيئاً.

اللّائحة المملّة للكلمات الغامضة التي تتلوها المرأة ذات الوجه القاسي المتبرّم بصوتٍ لا نبرة فيه، كانت تتركها تطفو فوقها، غير مالكةٍ أيّ فكرة عن نظام الأشياء الذي ترتبط به هذه الكلمات، عارفةً جيّداً أنّ الأمر يتعلّق بلغةٍ هي الفرنسيّة، التي كانت تقدر على التحدّث بها قليلاً وسماعها ولكنّها تعجز عن التعرّف إليها في تلك التلاوة المستعجلة، الغاضبة، موجِّهةً دوماً من ناحية أخرى جزءاً من انتباهها إلى جماعة الأطفال الآخرين الذين يمكن أن يصدر عنهم في أيّ لحظة هجوم خبيث، رفسة أو صفعة، ما إن تستدير المعلّمة نحو اللوح.

هو ذا السبب في أنّها اليوم لا تعرف عن الحياة إلّا ما عاشته.

وهكذا كانت تفضّل ألّا تسأل الرجل الذي فُرض عليها كدليل أو رفيق أو حارس عن وجهتهما، وذلك لكي لا يكبّد ذهنَها العذاب اللّامجدي لاسمٍ يجهله ذلك الذهن الجاهل بشكلٍ حتميّ لأنّها، عند سماعها هذا الاسمَ الغامض، لا بل الغريب، والمستحيل حفظه، لن تستطيع مع ذلك أن تتجاهل أنّ مصيرها مرتبط به تحديداً.

ولكنها لم تكن منشغلة فقط بمصيرها إلى هذا الحدّ، لا، لأنّه ماذا ينفع إفساد هذا الإحساس الجديد واللطيف بالمتعة في الجوّ الدافئ (أن تتنشّق رائحة تخمّر خفيفٍ أو تعفّن غير مؤذٍ تتصاعد من الرصيف، وتشعر بقدميها مرتاحتين، منشرحتين، وبجسدها كلّه مستغرقاً هانئاً في حالة الجمود الكاملة التي كانت تعرف بلوغها)، لمَ تجازف بإفساد هذه المتعة عبثاً؟

كان الناس ينتظرون على غرارها، جالسين على أكياس بلاستيكيّة

ضخمة مزدانة بمربّعات من مختلف الألوان أو على صناديق كرتونيّة محزومة بخيوط مشدودة، ومع أنّ خادي كانت تنظر أمامها مباشرةً عبر أجفانها شبه المطبقة إلّا أنّها كانت تستطيع أن تخمّن، من اختفاء اهتزازات الهواء، أو من ركوده حولها، أنّ الرّجل، راعياً كان أم سجّاناً، حامياً أم صانع أحابيل خفيّة، كان الوحيد المتحرّك، ذارعاً بتوتّرٍ الإسفلت الرمليّ المليء بالفجوات، متراقصاً، منطنطاً اضطراراً في حذائه الرياضيّ الأخضر، تماماً كما تنطنط، فكّرت خادي، على مسافة ليست بعيدة، الغربانُ السوداء والبيضاء، أو السوداء ذات العنق المزيّن ببياضٍ عريض، التي ربّما كان الرجل شقيقها وقد تحوّل بلباقة إلى رجلٍ خلال الوقت الذي عليه أن يصطحب فيه خادي.

عكّرت ارتعاشة قلقٍ هناءتها.

وفيما بعد، عندما أصبحت الحرارة من الشدّة بحيث غطّت خادي رأسها وجذعها بالوزرة التي وضعتها أمس في رزمتها، وتحوّلت الجماعة الصغيرة من الأفراد إلى حشد مدمدم، أمسكها الرجل من ذراعها، وأنهضها على قدميها وقذفها في مؤخّرة سيّارة حافلة بالركّاب، وارتمى فيها بدوره وهو يعترض صارخاً بلهجة يعروها الاشمئزاز والحقد، وبدا لخادي أنّه كان غاضباً لإيجاده هذا العدد من الركاب في السيّارة فيما أكّدوا له أنّ الأمر لن يكون كذلك، وأنّه دفع المال لهذا الهدف.

كفّت عن سماعه، مستاءة، وهي تشعر منذ تلك اللحظة بحرارة ذاك الرجل المستعرة غضباً لصق خاصرتها، وارتعاشات عضلاته القلقة، الغاضبة.

هل كان يخفي خلف نظّارتيه العاكستين للضّوء عينيه الصغيرتين،

مكتبة

المستديرتين، القاسيتين، الشاخصتين، كعيني الغربان، وهل كان يخفي خلف قميصه ذي المربّعات، والياقة العالية، طوقَ الأرياش الأبيضَ ذاكَ الذي يزنّر أعناق الغربان جميعاً من الأمام؟

نظرت إليه بطرف عينها فيما السيّارة تقلع تاركةً بثقلٍ متباطئٍ الساحة المزدحمة بالباصات الصغيرة والسيّارات الأخرى الضخمة والمحمّلة بالركّاب الشبيهة بسيّارتهم التي كان يصعد إليها أو يهمّ بالصعود أشخاص كثرٌ كانت كلماتهم أحياناً وصيحاتهم تمتزج بالزعيق المشاكس للغربان المحلّقة على علوٍّ منخفض، فوق الطّريق، ثمّ نظرت إلى فم الرجل الذي لم يكن يكفّ عن الانقباض، وإلى الارتعاشات المحمومة لعنقه، وفكرّت أنّ الغربان مثله تفتح وتغلق مناقيرها السّود دون توقّف، وأنّ النبض المتقطّع نفْسه يحرّك أعناقها السوداء والبيضاء، أو السوداء المزيّنة بالأبيض، وكأنّ الحياة الهشّة التي تدبّ داخلها يجب أن تشير إلى رهافتها وسرعة عطبها وتنبئ بهما.

لا شيء في العالم يمكنه أن يدفعها لأن تسأله عن أيّ شيءٍ كان.

لأنّها كانت تخشى لحظتها، لا أن يرمي في وجهها كلمة لا تتعلّق بالقليل الذي كانت تعرفه، بل على العكس، أن يذكرَ إخوانه الغربان والمكانَ المعتم البعيد الذي سيعود إليه بصحبتها ربّما، هي، خادي، التي لم تكن تكسب في عائلة زوجها ما يغطّي كلفة طعامها، والتي تخلّصوا منها لهذا السبب، ولكن، كيف نسيت: ترى هل ستتيح لها الأوراق الماليّة التي دُسّت في تكّة سروالها الداخليّ دفع ثمن عبورها إلى هذا المكان الرهيب المشؤوم حتماً؟

كان فكرها يتخبّط، ثمّ لم يلبث أن عاد إلى الفوضى المتلاشية التي كان

يسبح فيها ولكن من دون العذوبة والتباطؤ اللّذين عادةً ما كان يحتمي بهما.

بمَ كان يتوجّب عليها أن تفكّر؟ ماذا كان عليها أن تفهم؟

كيف السبيل إلى تهجئة علامات سوء الحظّ؟

تذكّرت بغموضٍ كبيرٍ قصّة أفعى أخبرتها إيّاها جدّتها، أفعى متوحّشة لا مرئيّة حاولت غير مرّة أن تختطف جدّة خادي، واستطاع أحد الجيران قتلها مع أنّه لم يستطع أحد رؤيتها، ولكنّها لم تكن تتذكّر أيّ شيءٍ يتعلّق بالغربان، وهذا ما كان يخيفها.

هل كان كان عليها أن تتذكّر شيئاً ما؟

هل جرى تحذيرها من خطرها فيما مضى؟

حاولت أن تبتعد قليلاً عن مُرافقها ملتصقةً بالمرأتين العجوزتين الجالستين عن يسارها لكنّ الأقرب إليها وكزتها بكوعها وكزة ذات مغزى، حتّى من دون أن تحرّك رأسها.

حاولت خادي عندئذٍ أن تختزل من حجم جسدها وهي تشدّ صرّة ثيابها إلى حضنها بقوّة.

شخصت إلى رقبة السائق الحليقة المتغضّنة وجهدت ألّا تفكّر في شيء، سامحةً لنفسها فقط بأن تلاحظ أنّها جائعة وعطشى وترغب في قطعة الخبز التي وضّبتها لها حماتها والتي كانت تشعر بحوافّها القاسية لصق صدرها. وكان رأسها يروح ويجيء يميناً ويساراً، مترنّحاً على إيقاع هزّات السيّارة التي كانت تتوغّل في طريق عريضة، مليئة بالأخاديد، وكانت خادي تستطيع أن تلمح بين رأس السائق ورأس الراكب في المقعد الأماميّ، عبر زجاج السيّارة الأماميّ المتصدّع، تتابعها السريع، المهدهِد بالرغم

مكتبة

من الارتجاج، وكانت هذه الطريق تحفّ بمنازل مبنيّة بالطّوب وسقوفها من الصّفيح وأمامها دجاجات صغيرة بيضاء كانت تنقر الحبوب وأطفال نشيطون يلعبون، كانت خادي قد حلمت بأن يكون لها من زوجها اللّطيف الوجه أطفال مثلهم ومنزل سقفه من الصفيح اللّامع وجدرانه مبنيّة من كتل الإسمنت المتينة، وأمامه باحة نظيفة محدّدة المعالم وأطفال ذوو عيون يقظة وبشرات سليمة هم أطفالها، يتلّهون باللّعب في أسفل الطريق دون خوف بالرّغم من أنّ غطاء السيّارة بدا لخادي وكأنّه سيلتهم أطفالها وهو يزدرد الطريق السريعة والعريضة، المحفّرة بالأخاديد، وشيء ما داخلها كان يريد أن يصرخ منبّهاً السائق من الخطر المحدق بهم ويتوسّل إليه كي لا يلتهم أطفالها الذين كانوا جميعاً لطفاء الوجوه كزوجها، ولكن في اللحظة التي أوشكت فيها أن تخرج الكلمات من فمها، عادت ولجمتها، وهي تشعر بخجلٍ واضطراب عظيمَين لأنّها كانت تدرك أنّ أطفالها لم يكونوا إلّا غرباناً منفوشة الرّيش تنقر الحبّ أمام المنازل وتطير أحياناً جفلة لدى مرور السيارات، غرباناً سوداً وبيضاً مشاكسة، تطير نحو الغصن الخفيض لشجرة جبنٍ[1]، لكن ماذا سيقال لو أنّها ارتأت أن تحافظ على أطفالها الغربان، هي، التي، على سبيل الصدفة، كانت لا تزال تملك وجه خادي دمبا واسمها، والتي ستحتفظ بوجهها الانسانيّ ما دامت في هذه السيّارة، وما دامت تواصل التحديق إلى رقبة السائق الحليقة السمينة وبذلك تجعل نفسها خارج قبضة هذا الرجل الجالس إلى جانبها، هذا

(1) شجرة ضخمة نشأت في المكسيك وباتت منتشرة في المناطق الاستوائيّة، تُسمّى أيضاً «كابوكيا» لأنّها تهب ليفاً نباتيّاً يُسمّى «الكابوك» kapok. أمّا اسمها الفرنسيّ «شجرة الجبن» formager فمختلَف في أصله، ويردّه بعضهم إلى كون خشبها يخدم في صناعة علب الأجبان (المُراجِع).

الطائر المتوحّش ذي القدم الرشيقة، ماذا سيقال عن خادي دمبا، خادي دمبا.

وانتفضت بعنفٍ لدى ملامسة يد الرجل لكتفها.

ما إن خرج من السيّارة حتّى جذبها صوبه ليُنزلها فيما النساء يدفعنها دون مراعاة.

وإحداهنّ كانت تصرخ قائلةً إنّ باب السيّارة من جهتهنّ كان عالقاً.

ترجّلت خادي وهي لا تزال مخدّرة، متبلّدة، تاركةً حرارة السيّارة الخانقة من أجل الجوّ المتلبّد الرّطب لمكانٍ لم يكن يذكّرها بشيءٍ محدّد، لكنّه كان يشبه إلى حدّ بعيد الحيّ الذي عاشت فيه، بشوارعه الرمليّة وجدرانه الورديّة أو الزرقاء، الفاتحة أو الإسمنتيّة الخام، وذاك الشبه كان كافياً لكي يبتعد الخوف الذي اكتنفها بعدما اقتيدت إلى عرين الغربان.

وبحركةٍ نافدة الصبر أشار إليها الرجل بأن تلحق به.

كان هناك محالٌّ تحيط بالساحة الصّغيرة حيث رُكنت السيّارة إلى جانب سيّارات أخرى من الصنف نفسه، طويلة، مبعوجة، وكان هناك رجال ونساء يسيرون بين السيّارات ويساومون في أسعار المواصلات.

رأت خادي في إحدى الزوايا كلمة «مرحاض» مكتوبة على أحد الجدران.

فأشارت للرّجل إلى المكان، وكان هو قد التفت لحينه بغية التأكّد من أنّها كانت هناك قربه، ثمّ هرعت إلى المرحاض لتقضي حاجتها.

ولدى خروجها منه، كان الرجل قد اختفى.

انتظرت بالضبط في المكان الذي وقف فيه منذ بضع دقائق.

ثمّ فكّت صرّتها بحذر، وانتزعت منها قطعة الخبز، وحاولت أن تأكلها

مكتبة

بقضمات صغيرة.

وتركت كلّ لقمة تذوب طويلاً في فمها لكي تستخرج كلّ مذاقها، طعم باهت ولاذع قليلاً لأنّ الخبز كان قديماً، ووجدت أنّ تناول الطعام شيء لذيذ، وفي الوقت نفسه كانت عيناها تجولان الساحة هنا وهناك على أمل أن تلمح الرجل الذي يتعلّق به مصيرها.

لأنّه بعدما اختفت الغربان (وحدها كانت تطير هنا وهناك يمائم وعصافير دوريّ رماديّة)، كانت خشيتها من قرابة محتملة للرّجل مع تلك الغربان أقلّ من خوفها من أن تبقى متروكة هناك، هي، خادي دمبا التي كانت تجهل مكان وجودها وترفض أن تسأل عنه.

كانت السماء كامدة، غائمة.

ومن بريق النور المحجوب، وانخفاض الهالة الورديّة خلف السماء الرماديّة الشاحبة، كانت خادي تشعر، بدهشة، أنّ النهار كان يُشارف على نهايته، وأنّ رحلتهما في السيّارة استغرقت عدّة ساعات.

وفجأةً ظهر الرجل أمامها مجدّداً.

ناولها بغتةً زجاجة صودا بالبرتقال.

وهمس بصوته الغاضب العجول: «هيّا تعالي، تعالي»، وراحت خادي تعدو خلفه وهي تكشط الغبار بشبشبَيها، شاربةً الصودا بجرعات كبيرة، مسجّلةً باختصار، وفي حالة من الذعر المتنبّه الواعي، الروائحَ البعيدة للنتانة البحريّة، والواجهات المنهارة، التي لم ترَ مثلها من قبل، واجهات المنازل الهائلة ذات الشرفات المتداعية، المزيّنة بالأعمدة الصغيرة القديمة التي بدت لها في النهار الغارب، والغسق البنفسجيّ، وكأنّها هيكل عظميّ قديم يرتكز إليه جسد حيوان ضخم هرم، ثمّ ازدادت النتانة الخفيفة

للسمك المتعفّن شدّةً حين انحرف الرجل نحو أحد تلك المسوخ شبه الصريعة، ودفع باباً، آمراً خادي بالدخول منه ووجدت نفسها في باحة لم ترَ فيها بادئ الأمر إلّا كومة من الحقائب والحزَم أكثر قتامة من النهار الغارب والغسق البنفسجيّ.

ثمّ انبثقت من تكدّس الأمتعة الوجوه التي يمحوها المساء، التي لا عمر لها ولا ملامح، نساء ورجال وأطفال يجلسون وسط الصمت الذي يقطعه من حين لآخر سعال أو تنهيدة.

همس لها الرجل بأن تجلس لكنّ خادي مكثت واقفة أقرب ما يمكن من باب كانا اجتازاه للتوّ، ليس لأنّها أرادت أن تخالف أوامره، بل من جرّاء الجهد الرهيب الذي كانت تقوم به لترغم فكرها الشكس، المبعثر، الجزع، على تسجيل ما تراه عيناها، ثمّ السعي إلى تحليله بوسائلها الزهيدة، والمراجع الضئيلة التي كانت في حوزتها، ومن جرّاء هذا الجهد الرهيب لإرادتها وذكائها، تجمّد جسدها، وتصلّبت ساقاها، واستحالت ركبتاها إلى كرتين متقلّصتين قاسيتين وجامدتين مثل عقدتَي عصاة.

كانت تجمعها بأولئك الناس صلة بسيطة وهي وجودها معهم في نفس الوقت في تلك الباحة.

ولكن ماذا كانت طبيعة تلك الصلة ودافعها، وهل ذاك الوضع كان جيّداً بالنسبة إليهم كما بالنسبة إليها، وكيف بإمكانها أن تميّز وضعاً سيّئاً؟ وهل بإمكانها أن تتصرّف بشخصها بحريّة؟

كانت تفاجئها قدرتها على صياغة مثل هذه الأسئلة في دخيلتها وتلقي في نفسها الاضطراب.

كان ذهنها يعمل، ويبحث، ويتعذّب من جرّاء التفكير، ولكنّ تنامي

مكتبة

هذا الجهد داخلها لم يكن ينفّرها بل يسحرها.

لم يصرّ الرجل على إلزامها بالجلوس.

كانت تستطيع أن تشمّ رائحة عرَقه الحديديّة، وأن تشعر أيضاً بالاهتزازات شبه الكهربائيّة لإثارته القلقة.

للمرّة الأولى رفع نظارتيه الشمسيّتين ووضعهما على جبينه.

في العتمة، بدت عيناه بسوادهما الحادق مستديرتين جدّاً ولامعتين.

وعاودت الخشية القديمة خادي من أنّ للرّجل علاقة بالغربان.

رنت بنظرة إلى الجماعة الغامضة المؤلّفة من الرزم والكائنات الجالسة أو الممدّدة التي رأت ترتفع من بينها، بدهشة قليلة، أجنحة يمكن معاينتها في اللّيل بفضل حواشيها البيضاء أو تسمع تلك الأجنحة المهدّبة بالبياض تخفق لصق الخواصر غير المرئيّة. لكنّها إذ شعرت أنّه في هذا الخوف نفسه يدبّر فكرها مكيدة للهروب، والفرار نحو النواحي الشاحبة، الحالمة، الموحشة التي تركتها للتوّ، فقط منذ الصباح، سعت إلى طرد خشيتها وعدم الاهتمام إلّا بذلك الواقع التلقائيّ، بذلك الخطر الوشيك الذي كانت تستشفّه عبر التماعات نظرة الرجل البرّاقة، وفي الصفير المتوحّش لصوته الذي كان يسألها لا بل يطالبها بالمال.

- ادفعي الآن، يجب أن تدفعي لي.

أن يكون قد عزا سبب جمود خادي وانعدام ردّ الفعل لديها إلى رفضها إعطاءه ما يريد، فهذا ما أدركته في الحال بغتة، وتركت ركبتيها تخوران، ووجهها ينصاع وفمها ينفرج قليلاً عن ابتسامة مصالحة لم يكن على الأرجح ليستطيع مع ذلك تمييزها.

وسمعت صوتها، وكأنّه آتٍ من مكانٍ سحيقٍ، ينعق؛ أفَلم تكن تحاكي

بعض الشيء صوت ذلك الرجل؟

- أدفع... لَمَ عليّ أن أدفع لك؟

- أوه... هذا ما كان متّفقاً عليه، اصطحبتك إلى هنا!

وفجأةً أدارت له ظهرها، ودسّت يدها على طول بطنها، تلمّست خمسة أوراق دافئة ورطبة ثمّ انتزعتها مهلهلة وناعمة جدّاً وكأنّها قطع قماش صغيرة.

استدارت على قدميها ودسّت الأوراق المالية بين أصابع الرجل.

عدّها دون أن ينظر إليها.

ندّت عنه همهمة راضية وهو يدسّ الأوراق في جيب بنطاله الجينز، وفي الحال ندمت خادي، لدى رؤيته مستعيداً هدوءه بهذه السرعة، على إعطائه هذا القدر من المال.

كانت تشعر بطريقة غامضة بأنّها باتت مستعدّة لأن تسأله ليس فقط عن اسم المدينة التي اصطحبها إليها، ولا حتّى عن اسم المكان الذي كانوا موجودين فيه، بل عن سبب الرحلة، وأنّها باتت قادرة على سماعه والسعي لأن تستخلص عبرة من ذلك، لكنّ شعوراً بالاشمئزاز منعها من التحدّث إليه ثانيةً، ومن سماع صوتها بالذات ثمّ صوته هو الموسوم بهذا الصريف في حلقه المترهّل الذي كان يذكّرها بأصوات الطيور الفظّة، السوداء والبيضاء، ذات الأجنحة المهدّبة بالأبيض.

لكنّه ما لبث أن استدار على عقبيه وغادر الباحة.

وفيما صعب عليها طوال النهار أن تعرف ما إذا كان ذلك الرجل سجّاناً أم ملاكاً حارساً، رهيباً أم رحوماً، وفيما دهمها خوف من رؤية نظرته، فإنّ اختفاءه أعاق مجرى فكرها الهادئ، المنساب، المستغرق في انسيابه، المذعن

مكتبة

حديثاً والموجَّه، وعادت خادي لتسقط من جديد في كتل الضباب القلقة الغامضة لأحلامها الرتيبة.

ثمّ تهاوت أرضاً متكوّمة على رزمتها.

بين اليقظة والنعاس، مكثت هكذا خائرة القوى، شبه غافلة عمّا كان يحيط بها، متقبّلة فقط أحاسيس الحرّ، ثمّ الجوع والعطش التي كانت تدركها من عمق جمودها المقطوع باختلاجات قلقة، إلى أن أجبرتها بلبلة مفاجئة على رفع رأسها والنهوض على قدميها واقفة.

استنتجت خادي بسرعة أنّ جميع محتلّي الباحة وقفوا لدى دخول جماعة صغيرة من الناس.

وأثارت همساتٌ الاضطرابَ في الحشد الذي كان ساكناً.

كانت العتمة مطبقة ثقيلة.

وكان في مستطاع خادي أن تحسّ بخطوط العرق تنساب تحت إبطيها، وبين نهديها، وفي فجوتَي ركبتيها اللتين أبقتهما مطويّتين.

تناهت إلى سمعها أصوات آمرة ما لبثت أن كُتمَتْ عمداً وكانت صادرة عن ثلاثة أفراد أو أربعة دخلوا لتوّهم، ومع أنّها لم تفهم ما كانوا يقولونه، إمّا لأنّها كانت بعيدة جدّاً عنهم، وإمّا لأنّهم تكلّموا بلغة تجهلها، أدركت خادي من الجلبة الصاخبة التي كانت تُحْدثها جموع الناس وانهماكهم، وانشغالهم، أنّه كان يحدث أخيراً ما كان الناس في الباحة في انتظاره.

وملأ رأسَها هديرٌ.

أمسكت بصرّتها وتبعت مترنّحة قليلاً حركة الجموع البطيئة باتّجاه الباب.

ما كادت الجموع تبلغ الطريق الرمليّة التي يضيئها هلال هزيل، حتّى

انقضّ الصمت من جديد على العابرين الذين كانوا يسيرون في صفّ خفر منتظم بشكلٍ عفويّ، حتّى الأطفال الصغار كانوا يمكثون هادئين على ظهور أمّهاتهم، خلف هؤلاء الرجال السائرين في الطليعة والذين قطعوا بمجيئهم حبل الانتظار الطويل في الباحة.

في البعيد كانت كلاب تنبح.

وكان نباح الكلاب مع حفيف الأقمشة واحتكاك الشباشب على الرمل، الجلبة الوحيدة في الليل.

اختفت آخر البيوت عن الأنظار.

عندئذٍ أحسّت بنعليها البلاستيكيّين الرقيقين يغوصان في الرمل الذي كان لا يزال ساخناً على السطح لكنّه كان بارداً في الأسفل، وتباطأت مشية من كانوا حولها، بسبب كتل الرمل الناعم التي تثقل حركة الشباشب والأحذية القديمة وتجعل فجأةً أصابع الأقدام والكواحل متجمّدة فيما كان العرق لا يزال يتصبّب من الأصداغ.

أحسّت أيضاً، وكأنّه استباق لما سيجري، حتّى قبل حدوثه، بنهاية الصمت الحذر، الضمنيّ، الذي كان في الشارع مهيمناً على الجميع؛ ومن الارتجافة الخفيّة والأنفاس اللّاهثة التي كانت تعبر الموجة المنتظمة للحشد المتحرّك أحسّت بأنّ هذا الأخير قد تجاوزَ الخطر الكامن في أن يُسمَع ويُرى، مهما تكن طبيعة ذلك الخطر، أو ربّما بأنّ التوتّر الذي بلغ ذروته لدى اقترابهم من البحر قد جعل مسألة الانضباط أمراً منسيّاً ومرذولاً.

وتصاعدت صيحات لم تفهم منها خادي شيئاً إلّا القلق الكبير الذي كان يشوّه نبراتها.

أخذ طفل يبكي، ثمّ تبعه آخر.

مكتبة

في الأمام، توقّف الرجال الذين كانوا يقودون الجماعة، وأصدروا أوامرهم صارخين بصوت محموم، بشع.

كانوا قد أضاؤوا كشّافات وأخذوا يسلّطونها على الوجوه تباعاً وكأنّهم يبحثون عن ملامح معيّنة، وعندئذٍ رأت شذرات هاربة من الوجوه المنبهرة بأعينها شبه المغمضة تتوالى مشعّةً فجأةً بضوء أبيض قويّ، الوجوه الفريدة لأولئك الذين لم تستطع حتّى تلك اللحظة أن تراهم إلّا بشكلٍ عامّ.

كانوا جميعاً شبّاناً، تقريباً مثلها.

وذكّرها رجل بزوجها بشكلٍ عابرٍ، بهيئته الهادئة الحزينة قليلاً.

مرّ وجهها في حزمة الضوء المبهر وفكّرتْ: نعم، أنا خادي دمبا، هي السعيدة دوماً بتلفّظ اسمها في سرّها وبالشعور به متلائماً مع صورة وجهها التي كانت تراها بوضوح ورضىً، ومع قلبها، قلب خادي، كلّ ما كان يحتجب داخلها ولا أحد يستطيع بلوغه سواها.

لكنّها كانت خائفة في تلك اللحظة.

كان بإمكانها سماع صوت تكسّر الأمواج قربها، وكانت تلمح أنواراً أخرى أقلّ فجاجة، أكثر صفرة وترنّحاً، من جهة البحر.

آه، كانت خائفة حقّاً.

وكدّت ذاكرتها بجهدٍ تسبّب لها بالدوار محاولةً وسع طاقتها أن تربط بين ما كانت تراه وتحسّه من أضواء مترنّحة، وهدير أمواج، ورجال ونساء متجمّعين على الرمل، وشيء ما سمعته في عائلة زوجها، أو في السوق، أو في باحة المنزل الذي عاشت فيه، وقبل ذلك أيضاً حين كانت تدير الخمّارة هاجِسةً طيلة النهار بالطفل الذي كانت تريده وترغب في إنجابه.

كان يبدو لها أنّ بإمكانها أن تتذكّر شذرة من حديث، وبضع كلمات

خارجة من مذياع، سمعتها عَرَضاً وسجّلتها بغموض في دخيلتها إلى جانب الأخبار المجرّدة من الأهميّة لكن القادرة هي على اكتسابها يوماً، كان يبدو لها أنّها كانت، في فترة معيّنة من حياتها، دون أن تعير الأمر انتباهاً أو تعلّق عليه أهميّة، قد فهمت ماذا يعني مثل هذا التجمّع للعناصر (اللّيل، والمصابيح المرتعشة، والرمل البارد، والوجوه القلقة) وكان يبدو لها أيضاً أنّها لا تزال تدرك ذلك ولكنّ تبلّد ذهنها المعاند كان يمنعها من بلوغ هذه المنطقة من المعارف المشوّشة والضئيلة التي كان يتعلّق بها، ربّما، لا بل بشكلٍ أكيد، المشهد الذي كانت تعيشه للتوّ.

آه، كانت خائفة حقّاً.

أحسّت بقوّة تدفعها في ظهرها وتجذبها وسط تدافع مفاجئ للحشد باتّجاه هدير الأمواج.

كان الرجال الذين يمسكون الكشّافات يطلقون صرخات تزداد إلحاحاً وتوتّراً بمقدار اقتراب الناس من البحر.

أحسّت خادي بالماء يغمر شبشبَيها.

ثمّ ميّزت بوضوحٍ الأنوار المتحرّكة أمامها، وأدركت أنّها آتية لا بدّ من المصابيح المعلّقة في مقدّمة أحد المراكب، وتبيّنت عندئذٍ، وكأنّه كان يتوجّب عليها بدايةً أن تكتشف الأشياء لتراها، هيئة قارب كبير شبيه بذاك الذي كانت تنتظر عودته حين كانت جدّتها ترسلها وهي طفلة صغيرة إلى الشاطئ لتشتري لها سمكاً.

كان الناس أمامها يدخلون في الماء رافعين أمتعتهم على رؤوسهم، ثمّ يصعدون إلى القارب بمساعدة هؤلاء الذين كانوا على متنه، والذين استطاعت خادي أن تستشفّ في الضوء الشاحب، الهزيل، المتحرّك،

مكتبة

وجوههم الهادئة، الواجمة، ثمّ وجدت نفسها هي أيضاً متقدّمة بشكل أخرق في الماء البارد، راميةً بحزمتها في القارب، مستسلمةً لأذرع ترفعها إلى داخله.

كان قعر القارب ممتلئاً ماءً.

تشبّثت برزمتها، وتجمّعت ملتصقةً بأحد جوانب المركب.

كان هناك رائحة كريهة، نتنة، تتصاعد من الخشب.

ومكثت هكذا متبلّدة، ذاهلة، فيما كان يتوالى إلى المركب عدد كبير من الأشخاص لدرجة أنّها خشيت أن تختنق، وأن يُقضى عليها سحقاً.

انتصبت واقفة وهي تترنّح.

أخذت تلهث وقد تولّاها الرعب.

واجتذبت وزرتها المبلّلة، ثمّ وضعت ساقاً خارج حافة المركب، وأمسكت بصرّتها رافعةً الساق الأخرى.

كان هنالك ألم مرعب ينهش ربلة ساقها اليمنى.

ثمّ قفزت في الماء.

وبلغت الشاطئ متخبّطةً في الماء، وراحت تركض في الرمل، في العتمة التي تزداد كثافة بمقدار ما كان المركب يبتعد، ومع أنّ ربلة ساقها كانت تؤلمها كثيراً وقلبها يرتطم بقوّة في صدرها إلى حدّ شعورها بالغثيان، كانت مدركة ومتيقّنة تماماً من أنّها أنجزت للتوّ خطوة أملاها عليها فقط تصميمها، وأيضاً الفكرة التي صاغتها خطفاً في ذهنها عن الضرورة الحيويّة التي توجب عليها الهروب من المركب، وملأها هروبها هذا بفرح عارم، متوحّش، جنونيّ، كاشفاً لها في الوقت نفسه أنّه لم يسبق لها أن اتّخذت من قبل قراراً بهذه الأهميّة بكامل إرادتها، فزواجها نفسه دُفعت إليه دفعاً

لتوافق على طلب ذاك الرجل اللطيف والهادئ يدها، وكان جارها آنذاك، متيحاً لها بذلك الابتعاد عن جدّتها. ولكنّها بالتأكيد لم يكن لديها الشعور بأنّ حياتها تنتمي إليها، آه، لا بالتأكيد، ولا بأنّ حياتها منوطة بالخيارات التي بإمكانها هي، خادي دمبا، القيام بها، لأنّها كانت قد اختيرت من قبَل ذاك الرجل الذي صادف أنّه رجل طيّب، لكنّها لم تدرك ذلك الأمر عندما اتّجه هذا الخيار صوبها، لم تدركه وتقبّلت وقوع الخيار عليها، ممتنّة، راضية.

منهكةً، تركت نفسها تتهاوى في الرمل.

كانت حافية القدمين لأنّ شبشبَيها بقيا في الماء أو ربّما في قعر القارب.

تلمّست ربلة ساقها الجريحة، وأحسّت تحت أصابعها بدمٍ، ولحمٍ ممزّق.

قالت في نفسها إنّ ساقها لا بدّ أن تكون علقت بمسمارٍ وهي تقفز من حافّة المركب.

كان اللّيل من السواد بحيث لم تستطع تمييز الدم على يدها إذ قرّبتها من عينيها.

فركت أصابعها في الرمل، طويلاً.

بالمقابل، كانت تلمح في مدى ما تسمح لها به الرؤية، في البعيد، أبعد بكثير من المسافة التي بدا لها أنّها اجتازته ركضاً، الأنوارَ الصغيرة الشاحبة التي كان بُعد المسافة يجمّدها، واللّمعان الأبيض والقويّ للمصباح الكشّاف يجتاز العتمة دون توقّفٍ عبر اهتزازات غامضة.

وقبل أن تفتح عينيها، عند الفجر، أدركت أنّ ما أيقظها لم يكن القلق ولا الألم الشديد الذي يتسبّب به الجرح في ربلة ساقها، ولا البهرة الحادّة أيضاً للضوء الشاحب بل نظرات ملحّة جامدة كانت ترنو إليها، وأحست بوطأتها بفعلٍ وخزٍ بسيطٍ في جلدها، وظلّت هنيهةً تفتعل النعاس،

مكتبة

مستنفرةً جميع حواسّها، كيما يتسنّى لها الوقت لتتماسك.

وفجأةً فتحت أجفانها، واستوت جالسة على الرمل.

على مسافة بضعة أمتارٍ منها، كان رجل شابّ جاثياً، لم يخفض بصره حين صوّبت نظراتها باتّجاهه، واكتفى بأن يحني رأسه قليلاً وهو يرفع راحتَي يديه مشيراً بذلك إلى أنّها لا يجدر بها الخوف منه، في حين راحت هي تتفحّصه خلسةً بنظراتها الحذرة، وأجالت في خاطرها صور البارحة بوتيرة سريعة متماسكة كانت تخالها غريبة عن ذهنها فهي عاجزة بالتالي عن امتلاك القدرة للانصياع لها، فعرفتْ فيه أحد الوجوه الكامدة التي لمحتها في حزمة الضوء المنبعثة من المصباح الكشّاف، تماماً قبل صعودها إلى المركب.

بدا لها أكثر فتوّة منها، ربّما كان في العشرين.

وبصوتٍ شبه طفوليّ، على شيء من القوّة والرقّة في آنٍ، سألها:

- قولي لي هل أنت بخير؟

- شكراً، أنا بخيرٍ حقّاً، وأنت؟

- بخيرٍ، شكراً. اسمي لامين.[1]

تردّدت، ومن دون أن تقدر على التخلّي تماماً عن نبرة افتخارٍ في صوتها لا بل بشيء من الادّعاء، قالت له اسمها كاملاً:

- خادي دمبا.

نهض، ثمّ جاء يجلس قريباً منها.

كان الشاطئ برمله الرماديّ مقفراً تملؤه القاذورات من بلاستيك

---

(1) آتٍ بلا شكّ من العربية «الأمين» (والأسماء العربية شائعة في السنغال، مع بعض تحريف للألفاظ)، أثرنا الإبقاء عليه كما يُنطق في البلاد (المُراجِع).

وزجاج وأكياس نفايات مبقورة، وكان الفتى يعاينها بجديّة باردة، ولا يستوقف نظره إلّا النفاية التي يقدّر أنّ استعمالها لا يزال ممكناً، ثمّ ينتقل إلى نفاية أخرى رامياً سابقتها ليس فقط في النسيان بل في العدم، لم يكن يراها بكلّ بساطة.

وحطّ نظره على ربلة ساق خادي فندّت عنه تكشيرة مرتاعة ما لبث أن أخفاها بشكلٍ أخرق خلف ابتسامة غامضة.

- جرحكَ بليغ، أليس كذلك؟

منزعجةً قليلاً، نظرت بدورها إلى الجرح فرأت شقّاً محاطاً من جهتيه بالدم المسودّ، المكسوّ بالرمل.

وبدا وكأنّ الألم المعاند الغافي آنذاك قد استيقظ تحت نظرته، وأطلقت خادي تأوّهاً.

قال لامين:

- أعرف أين بإمكاننا أن نعثر على ماء.

وساعدها لتنهض على قدميها.

وأحسّت بالقوّة المتوتّرة، المشدودة دوماً لجسدها الهزيل المتين وكأنّه ازداد صلابة وقوّة بفضل الحذر، والتيقّظ الدائم، والحرمان المتواصل، وكذلك أيضاً بفضل القدرة على التجرّد من شعورها بالحرمان، تماماً كما محا لامين من بصره، من خلال نفيها، النفايات غير الجديرة بالاهتمام على الشاطئ.

كانت خادي تعرف أنّ لها جسداً نحيلاً مقاوِماً، ولكن ليس كجسد الفتى الذي ازداد صلابة بفضل اغتساله في الحمّام المتجمّد للتضحيات التي تحتّم عليه القيام بها، وللمرّة الأولى في حياتها شعرت بأنّها محظوظة

مكتبة

أكثر من فردٍ بعينه.

وتأكّدت وهي تتلمّس أعلى وزرتها من أنّ لفة الأوراق الماليّة كانت مخبّأة داخل مطّاط سروالها الداخليّ.

ثمّ رفضت مساعدة لامين وسارت إلى جانبه نحو صفّ المنازل والمحالّ ذات السقوف المصنوعة من الصفيح التي كانت تحفّ بالشاطئ خلف خطّ النفايات الأخير. ههنا

وكانت كلّ خطوة تزيد من ألمها.

وزيادةً على ذلك كانت تشعر بجوع كبير، وتمنّت بالتالي بكلّ ما أوتيت من قوّة، أن تمتلك عاجلاً جسداً بارداً، حجريّاً لا رغبة له ولا حاجات، مجرّد أداة في خدمة هدف لا تزال تجهل كلّ شيء عنه، ولكنّها كانت تدرك أنّها ستضطرّ فعلاً إلى تحديد طبيعته.

آهِ، إلّا أنّها كانت تعرف أمراً ما، تعرفه ليس كما اعتادت على معرفته، أي دون أن تعرف أنّها تعرف، بل بطريقة واعية، واضحة.

فكّرت: لا أستطيع العودة إلى العائلة، ولم تتساءل حتّى عن الأمر لعدم جدواه، لم تتساءل عمّا إذا كانت هذه العودة شيئاً حسناً أو مصدراً للخيبة إضافيّاً، موقنة مع ذلك من أنّها، بتفكيرها هكذا بوضوح وهدوء، إنّما تقوم، إلى حدّ ما، بخيار.

وعندما أقرّ لها لامين برغبته هو، عندما أكّد لها، بصوت حادّ قليلاً تقطعه، حين تعوزه كلمة، ضحكات صغيرة متوتّرة يبدو معها وكأنّه يخشى ألّا يُحمَل عندئذٍ على محمل الجدّ، أنّه سيصل ذات يوم إلى أوروبا أو يموت، وأنّه لا يوجد حلّ آخر للمشكلة التي كانتها حياته، بدا جليّاً لخادي أنّه لا يفعل بذلك إلّا أن يجعل مخطّطها بالذات أكثر وضوحاً بالنسبة لها.

وهكذا، إذ قرّرت مرافقته، ألم تكن تسيء بشكل قاطع إلى قناعتها الخاصّة بأنّها باتت تقود بنفسها الحمولة المؤقّتة المتقلقلة لحياتها.

بالعكس تماماً.

حين اقتادها إلى وسط المدينة، إلى إحدى المضخّات لكي تنزع عن جرحها الرمل الملتصق به، ثمّ أعلمها أنّه حاول عدّة مرّاتٍ الرّحيل، وأنّ ظروفاً غير متوقّعة، تافهة أو خطيرة، منعته دوماً من النجاح في مسعاه (وهكذا بالأمس، جعله تداعي المركب يتراجع عن قراره) لكنّه بات يلمّ بهذه الظروف بشكلٍ كافٍ ويستطيع بالتالي أن يأمل بتجاوزها أو تجنّبها أو تقبّلها دون خوف إذ لا يمكنها أن تتعدّد إلى ما لا نهاية، لا بل يظنّ أنّه خبرها كلّها أو أدركها بذهنه، عندئذٍ عرفت خادي ببساطة أنّه كان على علم بأمور لا تستطيع هي حتّى أن تتمثّلها في ذهنها، وأنّها ببقائها معه تجني فائدة وتمتلئ بهذه المعارف، بدلاً من أن تعبر، بوسائلها الخاصّة، الدرب الغامض المؤدّي إليها.

كم كان لافتاً بالنسبة إليها امتناعها عن أن تقول لنفسها: «ماذا بإمكاني أن أفعل، على أيّة حال، سوى الذهاب مع هذا الفتى؟ »بل فكّرت في أن تجني فائدة من هذه الصحبة.

نظّفت جرح ربلة ساقها وهي تنوء تحت وطأة الألم.

كان اللّحم متاذّياً ممزّقاً.

مزّقت شريطاً من قماش الوزرة الذي كانت تضع فيه ثيابها ثمّ لفّته بقوّة حول ربلة ساقها لكي تغلق حافّتَي الجرح.

وعلى مرّ الأيّام التي تتالت جامدة، ثقيلة، ظلّ الهواء رماديّاً، والضوء

مكتبة

على حدّته، وكأنّ البحر بألوانه المعدنيّة الساطعة كان ينشر لمعانه الرصاصيّ.

كان يبدو لخادي أنّ مهلة أعطيت لها لكي تتزوّد بمعلومات لم يتسنَّ لها أن تستوعبها قطّ خلال سنوات حياتها الخمس والعشرين، وذلك بطريقة خفيّة، دون أن يبدو عليها عمليّاً أنّها تكتسب شيئاً، وكان حذر غرائزيّ يردعها عن أن تُظهر للامين مدى جهلها.

اصطحبها إلى الباحة نفسها التي رحلت منها جماعتهم.

كان هنالك أشخاص جدد اجتمعوا هناك، وكان الفتى يتنقّل بينهم مداورةً، مقترحاً عليهم الماء أو الطعام الذي كان يمضي مسرعاً لجلبه من المدينة.

وجلب لخادي ولنفسه سندويشات عجّة وموز وسمك مشويّ، ولم يطلب منها قطّ أن تدفع له الثمن، ولم تعرض خادي عليه لأنّها اتّخذت القرار بألّا تتحدّث عن شيء لم يجرِ التنويه به، مكتفيةً بإجابات وجيزة عن أسئلة مقتضبة، وهكذا لم تتحدّث عن المال بما أنّ لامين لم يكن يتحدّث عنه، وبالمقابل، ما إن يذكر سفره والوسائل الكفيلة بتحقيقه حتّى تسأله بنهمٍ ملجوم، ولجاجة تسعى هي إلى أن تضفي عليها طابعاً كئيباً، منزعجاً، ضجِراً، وكانت تشعر عندئذٍ أنّ وجهها يكتسي بحجاب الأسى الغامض الذي كانت تلوذ إليه حين كانت تعيش عند عائلة زوجها، مستسلمةً إلى ما يشبه تداعيات فاترة كامدة.

أمّا في تلك اللّحظات فكان ذهنها يعمل بسرعة.

كان يحدث لفكرها أن يرتبك وكأنّه منتشٍ بقدراته.

وعندئذٍ يختلط عليه الأمر فلا يعود يعرف تماماً ما إذا كانت المرأة الشابة المتحمّسة هنا أمامه هي خادي زوجة الرجل المتوفّى أم زوجة رجل مجهول

يدعى لامين، ولا الأسباب الدقيقة التي من أجلها لا يجدر به، أي بفكرها، أن ينسى شيئاً ممّا كان يخرج من هذا الفم ذي اللهاث الحارّ، المحموم تقريباً، وكانت تأخذه رغبة في أن يفرغ محتواه، وأن يعود إلى حالته الأوليّة حين لم يكن يُطلب منه شيء إلّا عدم التورّط بأيّ شيء في الحياة الواقعيّة.

ولكنّ الأمر كان يتعلّق فقط بلحظات وجيزة جدّاً.

كانت خادي تحفظ كلّ ذلك في ذاكرتها، ثمّ حين يأتي الليل، متمدّدةً في الباحة، تنصرف إلى تصنيف الأخبار الجديدة وفقاً لأهميّتها.

الشيء الذي كان يستحسن إبقاؤه ماثلاً في ذهنها هو أنّ السفر يمكنه أن يدوم أشهراً، وسنوات، كما حدث مع أحد جيران لامين الذي لم يبلغ أوروبا (أمّا ماذا كانت تعني أوروبا تلك، وأين موقعها فهذا أمرٌ كانت ترجئ معرفته إلى وقتٍ لاحق) إلّا بعد خمس سنوات من رحيله عن المنزل.

وكانت تعرف أيضاً أنّ حيازتها على جواز سفرٍ بات أمراً ملحّاً، وأنّ لامين كان يعرف شركة يوثَق بها.

وأنّ الفتى بات يرفض الرحيل عبر البحر انطلاقاً من هذا الشاطئ.

ستكون الرحلة أطول، أطول بكثير، لكنّه سيجتاز الصحراء ويصل إلى مكان ما يجب تسلّقه للوصول إلى أوروبا.

ومن ثمّ، من ثمّ، قال لامين عدّة مرّات، وكان وجهه الأملس الناحل الملتمع عرقاً، يتجهّم فجأةً ويصبح معانداً، إنّه لا يكترث بالموت إذا كان يتوجّب عليه دفع هذا الثمن لبلوغ هدفه ولكن أن يحيا الحياة التي عاشها لحدّ ذلك اليوم فهذا ما لم يكن يريده.

ومع أنّ خادي استبعدت تلقائيّاً من المعطيات الأساسيّة كلّ ما كان يتعلّق بحياة الفتى السابقة، ومع أنّها حاولت عدم الاستماع إليه ما إن

مكتبة

تشعر بأنّ ذلك لن يعود عليها بفائدة، ولن يتوانى عن جعلها حزينة أو إحراجها، أو، بطريقة لا تفسّر، التسبّب لها بألم خفيّ وكأنّه كان يعيد إحياء ذكرياتها القديمة أكثر ممّا يبتعث ذكرياته هو، لم تستطع أن تنسى ما أخبرها به لامين عن خالته، زوجة والده بعد وفاة والدته، وكيف أنّها ضربته حتّى جعلته مجنوناً، لسنواتٍ طوال.

ورفع الصبيّ قميصه لكي يريها على ظهره آثاراً حمراء، منتفخة قليلاً.

كان قد ذهب إلى المدرسة الثانويّة وسقط مرّتين في امتحان البكالوريا.

ولكن آه كم كان يطمح إلى متابعة دروسه حالماً بأن يصير مهندساً. ماذا يعني هذا؟ سألت خادي رغماً عنها لأنّها لم تكن تريد الاهتمام بذلك.

وحين أرادت بعد بضعة أيّامٍ انتزاع الخرقة الملتفّة حول ربلة ساقها، كانت شديدة الالتصاق بالجرح فاضطرّت لانتزاعها بقوّة، ما تسبّب لها بألم فظيع في العضلة كلّها ولم تستطع أن تتمالك نفسها عن الصراخ.

وضمّدتها بخرقة أخرى من القماش النظيف.

كانت تمشي من زاوية لأخرى في الباحة وهي تعرج محاولةً تعويد جسدها وترويضه على هذه المشقّة بهدف أن يصبح هذا الوضع الجديد، تباطؤ الخطى وتواصُل الألم، جزءاً منها يمكنها نسيانه أو إهماله، أو ردّه إلى الظروف، المشابهة للقصص الأليمة لماضي لامين، التي لم تكن تفيد بشيء، لكنّها كانت قادرة على أن تعيق أو تلجم تطوّر أفكارها الذي لا يزال يافعاً وحائراً، مدخلةً إليه عناصر اضطراب وعذاب لا يمكنها السيطرة عليها.

وبالطريقة نفسها كانت تسرّح نظرها على وجوه الناس الذين كانوا يصلون كلّ يوم، بأعداد وفيرة إلى الباحة. كانت تشعر بأنّ نظراتها باردة،

مجرّدة من أدنى تشجيع للآخرين على توجيه الكلام إليها، ليس لأنّها تخشى أن يطلب منها أحدهم شيئاً ما (هذا لم تكن تخشاه مطلقاً) بل لأنّ فكرها كان يرتعد بمجرّد أن يتصوّر بأنّه بإمكانهم أن يرووا لها حيواتٍ مؤلمة، معقّدة، وطويلة، يصعب عليها فهمها، هي خادي، التي كانت تفتقر إلى مبادئ يبدو أنّ الآخرين كانوا يمتلكونها تلقائيّاً لإدراك أمور الحياة.

وذات يوم اصطحبها الفتى عبر الشوارع الضيّقة، ذات الأرض الرملية، إلى محلٍّ لتزيين الشعر، وخلف المحلّ التقطت امرأة صوراً لوجه خادي.

وبعد بضعة أيّام عاد لامين وبيده بطاقة زرقاء قديمة متغضّنة، أعطاها لخادي وهو يقول لها إنّها صار اسمها بنتو تيام.

كان في نظرات الفتى شيء من الفخر والنصر والثقة، الأمر الذي أثار حفيظة خادي قليلاً.

وشعرت بشكلٍ عابر أنّها تعود من جديد ضعيفة، خاضعة لقرار الآخرين ومعارفهم، كما للنوايا الخفيّة التي كانت تبيّت ضدّها، ولكن بسبب تعبها من الحياة، عاودتها الرغبة في هذا الخضوع، وعدم التفكير في شيء، وترْك وعيها يسبح في موج الأحلام الضبابيّ.

بعد شعورها بالنفور ممّا قد يُحاك ضدّها، عادت وتماسكت.

وشكرت الفتى بهزّة من رأسها.

كانت آلام ربلة ساقها رهيبة تجعلها شاردة الذهن.

ولكن، ومع أنّها كانت مصمّمة دوماً على عدم التحدّث عن المال قبل أن يبادر الفتى إلى ذلك، لم يعد باستطاعتها تجاهل هذه المسألة: أن يشتري

مكتبة

لامين لها جواز سفر، وأن يتصرّف كما لو كان بديهيّاً ألّا يكون بحوزتها مال، أو أن تدفع له الثمن، لاحقاً، بطريقة أو بأخرى، فإنّ ذلك كان يقلقها أحياناً حتّى أنّها كانت تتمنّى أن تراه يختفي ويتلاشى من حياتها.

ومع ذلك كانت متشبّثة بوجهه الخاشع، وصوته المراهق.

وباغتت نفسها تنظر إليه بلذّة، لا بل بحنان بهيج تقريباً، حين كان يثب في الباحة، مثل تلك العصافير الرشيقة ذات القوائم الطويلة الهزيلة التي تتذكّر أنّها كانت قد رأتها وهي طفلة على الشاطئ والتي جعلت تفكّر فيها دون أن تتذكّر اسمها (لأنّها باتت قادرة على أن تتصوّر أنّ لكلّ شيء اسماً وأنّها تجهله، كانت منزعجة من ظنّها أنّه وحده ما كانت تعرفه كان يملك اسماً)، ويتنقّل من جماعة لأخرى، منصرفاً إلى تدبير شؤونها باندفاعٍ بريء، طفوليّ، يوحي بالثّقة.

كان مسكوناً بحدسٍ خاصّ.

وأخذت تُلفي الوقتَ طويلاً ولكن لم يتسنّ لها التفكير لحظة واحدة بالتذمّر من طوله، وحين أعلن لها أنّهما سيرحلان في الغد، رأت أنّ الأمر كان كما لو أنّه أحسّ بالضجر الذي بدأت تشعر به دون أن تعيه تماماً وارتاى أنّه أمر سيّء، ولكن لمَ كلّ هذا الاهتمام؟

أيّ أهميّة يمكن لضجرها أن يشكّل له؟

آه، بالطبع، كان لديها شعور بالمودّة حيال الفتى.

وفي ذاك المساء، في عتمة الباحة حيث كانا ممدّدين، أحسّت أنّه كان يقترب منها، متردّداً، حائراً، غير واثق من ردّ فعلها.

لم تبعده عنها بل شجّعته مستديرة ناحيته.

رفعت وزرتها، وخلعت سروالها وهي تلفّ بعنايةٍ الأوراق الماليّة في

القماش ووضعتها تحت رأسها.

ها إنّها منذ سنوات لم تطارح أحداً الغرام، ولا مرّة مذ توفّي زوجها.

وفيما كانت تداعب بحذرٍ ظهر الصبيّ المترهّل، مندهشة في الوقت نفسه من الخفّة الفائقة لجسده ورقّته ورهافته اللّامتناهية (لأنّها كانت لا تكاد تشعر بوجوده) وهو يتحرّك داخلها، عادت إلى ذاكرتها في الحال، على سبيل الارتكاس، ربّما لشعورها بأنّ جسداً فوقها، مع أنّ جسد هذا الرجل كان مختلفاً تماماً عن الجسد المكتنز الثقيل لزوجها، عادت إلى ذاكرتها الصلوات التي لم تكفّ عن تمتمتها آنذاك طلباً للإنجاب والتي جعلتها بمنأى عن أيّ لذّة ممكنة، وألهتها عن التركيز الضروريّ لكلّ سعيٍ إثر المتعة.

وأبعدت تلك الذكريات عنها بكلّ قوّتها.

غمرها شعور من السرور والراحة الجسديّة لا شيء أكثر حيويّة منهما، لا شيء ممّا يشبه ما كانت شقيقتا زوجها تتحدّثان عنه في سرّهما مطلقتين تنهّدات وضحكات مكتومة، لكنّ خادي كانت سعيدة بِاتّصالها بالشابّ، وممتنّة له.

عندما انفصل عنها، اصطدم سهواً بربلة ساقها وكانت الصدمة قاسية عليها.

واجتاح ألم متفجّر كيان خادي.

كانت تلهث وهي على حافّة الإغماء.

كانت تسمع همسات لامين في أذنها يعبّر لها عن قلقه حيال وضعها، وكانت تفكّر، وهي تتألّم لدرجة انفصالها عن ألمها وقد أخذتها الدهشة لشعورها بالغربة عن نفسها هي التي كانت تكابد عذاباً أليماً، كانت تفكّر:

مكتبة

من اهتمّ يوماً لأمري كما يفعل هذا الشابّ اليافع، أنا محظوظة، محظوظة فعلاً...

وصعدا قبل طلوع الفجر في شاحنة مكشوفة تكدّس فيها عدد هائل من الناس بحيث إنّ خادي لم تجد مكاناً صغيراً تلوذ إليه.

وقفت على كومة من الحُزَم في مؤخّرة الشاحنة، على علوّ بالغ الارتفاع من العجلات.

أمرها لامين بأن تتشبّث بقوّة برباط الحُزَم لئلا تسقط.

كان جالساً على صندوقٍ، ملتصقاً بها. وكان بإمكان خادي أن تشمّ الرائحة الحامزة، الخفيفة لعرقه الذي اتّحد بعرقها عبر ذراعيهما المتلاصقتين.

همس لها الفتى:

إذا سقطتِ فلن يتوقّف السائق وستموتين في الصحراء.

وأعطاها قربة من الجلد مليئة بمياه فاترة.

كانت خادي قد رأته وهو يعطي حزمة من الأوراق الماليّة للسائق قائلاً له إنّه كان يدفع عنها أيضاً، ثمّ ساعدها على تسلّق الشاحنة، إذ كانت ساقها تبدو لها من الثقل بحيث عجزت عن اعتلاء الشاحنة وحدها.

كان لامين يحاول كتم حماسته وإخفاءها خلف حركات بالغة الدقّة (مثل التأكّد عدّة مرّات ممّا إذا كانت سدّادة القربة مشدودةً جيّداً) وأوامر متكرّرة، ملفوظة بصوتٍ خفيض وبطيء (تشبّثي جيّداً، إذا سقطت فلن يتوقّف السائق وستموتين في الصحراء)، إلّا أنّ خادي كانت تستشفّ هذه الحماسة من ارتعاشات خفيفة على وجهه، ثمّ انتقلت إليها عدواها المسكرة قليلاً فلم تعد خائفة أو خجلة من أن ترى الفتى يساعدها في أبسط

الحركات؛ ثمّ إنّ هذه المساندة التي يقدّمها لها، هاتين اليدين اللتين شبكهما لكي تضع عليهما قدمها ثمّ رفعها بقوّة لكي تصل إلى أعلى الشاحنة، لم تزعزع إطلاقاً الفكرة التي باتت تكوّنها عن استقلالها وتحرُّرها من أيّ رغبة للآخرين تتعلّق بها، كما لم ترَ في المال الذي كان لامين يدفعه عنها للسائق أيّ شيء يمكن أن يرتّب عليها أيّ مسؤوليّة تجاهه.

لم يكن يفترض أن يترتّب عن هذا الأمر أيّ تبعات بالنسبة لخادي دمبا.

إذا كان يطيب للامين أن يلعب دوراً حاسماً في بلوغها حريّتها، فهي كانت ممتنّة له؛ نعم كانت عاطفتها حيال الشابّ كبيرة وصادقة ولكنّها لم تكن تجعلها مدينة له بشيء.

كانت تحسّ ببعض الدّوار.

وكان الألم الحادّ المتواصل يمتزج بالفرح، وكان الفرح كما لو أنّه يطلق الألم بعنفٍ هو أيضاً.

اهتزّت الشاحنة ففقدت خادي توازنها.

لكنّ لامين أمسكها في الوقت المناسب.

وصرخ في أذنها:

- تمسّكي جيّداً، تمسّكي جيّداً.

وكان باستطاعتها أن ترى عن قربٍ وجهه الهزيل الأجوف المتورّد في ضوء الفجر، وشفتيه الشاحبتين المتشقّقتين اللّتين كان يرطّبهما بتمرير لسانه عليهما تكراراً، وعينيه الزائغتين، الذاهلتين، الشبيهتين، فكّرت خادي، بالعينين القاتمتين الحائرتين لكلبٍ ضخم رأته يوماً وكانت فروته ضاربة إلى الاصفرار وقد دفعته نساء السّوق لصق حائط متسلّحات بالعصيّ ومستعدّات لإنزال أقسى العقاب به بسبب سرقته لدجاجة؛

مكتبة

عينيه الشبيهتين بعيني ذلك الكلب الممتلئتين ذعراً بريئاً واللّتين التقت نظراتهما بنظرات خادي ولامست قلبها البارد، المنقبض، وجعلته لهنيهةٍ يهتزّ تعاطفاً وخجلاً.

أمِن أجلها شعر لامين بذلك الخوف الشديد؟

ابتعدت بخفّة كبيرة عن هذا الوجه الملتهب إذ شعرت على جلدها بحرارته التي لا تطاق.

متشبّثةً بحبال الرُّزَم، نظرت إلى المنازل الأخيرة تنأى ثمّ تختفي على طول الطريق.

هل من أجلها شعر بمثل ذلك الخوف؟

كان عليها أن تتذكّر ليس من دون مرارة، وبحزنٍ صافٍ، الاهتمام الذي كان لامين قد أظهره حيالها.

كلّ ذلك، سوف تتذكّره متناسيةً مع ذلك أنّه سعى إلى خداعها، وهذا الحزن البعيد الذي سوف تشعر به وهي تفكّر من جديد في القلق الذي ساوره من أجلها والذي كان يعنيه هو أكثر بكثير ممّا يعنيها هي؛ إنّه مصير الفتى الذي سوف يؤثّر فيها منتزعاً من عينيها دمعتين شحيحتين باردتين، في حين أنّها سوف تحكم على مصيرها الخاصّ بحيادٍ، بتجرّدٍ تقريباً، كما لو أنّها، هي خادي دمبا، لم تراهن على الحياة بالقدر ذاته من الأمل الذي به راهن عليها لامين، ولا يحقّ لها بالتالي أن تتذمّر لخسارتها كلّ شيء.

وسوف تفكّر: لم تخسر الشيء الكثير؛ وستقول أيضاً، بهذا الفخر غير المتوقّع، وهذه الثقة الخفرة التي لا تهتزّ: هذه أنا، خادي دمبا، ولن تثنيها عضلات فخذيها المتألّمة، ولا الفرْج المنتفخ المتقرّح، أو المهبل الحارق،

المهتاج، عن النهوض مراراً في اليوم من ذاك الفراش، تلك القطعة المتعفّنة الرماديّة النتنة التي سوف تكون لأشهر طوال مكان عملها.

ستفكّر: لم تخسر الشيء الكثير.

لأنّها أبداً، حتّى في غمرة حزنها وإرهاقها، لن تندم على تلك الفترة من حياتها حين كانت تعيش عند عائلة زوجها وكان فكرها يسرح في الحيّز الضيّق الضبابيّ، الحامي، المدمِّر للأحلام الجامدة.

لا ولن تندم على فترة زواجها، حين كانت كلّ فكرة ترقّباً للحبَل.

وفي الواقع لن تندم على شيء، لانغماسها بكليّتها في حاضر أليم كانت تستطيع مع ذلك أن تتمثّله بوضوح، وتتعاطى معه بفكرٍ مفعم بالحسّ العمليّ والكبرياء في الوقت نفسه (لن تشعر أبداً بالخجل اللّامجدي، ولن تنسى أبداً قيمة الكائن البشريّ الذي كانته، هي خادي دمبا، المستقيمة والشجاعة) وكانت تتخيّله عابراً، مقتنعةً بأنّ زمن العذاب هذا سوف تكون له نهاية وأنّها بالطبع لن تكافأ عليه (لم يكن بإمكانها أن تفكر أنّ أحداً يدين لها بأيّ شيء لكونها تعذّبت) لكنّها سوف تنتقل ببساطة إلى وضعٍ آخر لا تزال تجهله ولكنّها تملك الفضول لمعرفته.

أمّا فيما يتعلق بتسلسل الأحداث التي قادتها إلى هنا، هي ولامين، فكانت تستعيدها في رأسها تحديداً وتجهد بهدوء وبرودة لتفهم ما حدث لها.

بعد نهار وليلة من الترحال على الطريق، توقّفت الشاحنة عند الحدود.

نزل جميع الركّاب وانتظموا صفوفاً ليقدّموا جوازات سفرهم لجنود كانوا يهتفون بكلمة واحدة، فهمتها خادي جيّداً مع أنّها لم تكن في لغتها.

المال.

مكتبة

ولهؤلاء الذين كانوا يُبقون أيديهم وراحاتهم مرفوعة في إشارة منهم إلى أنّهم لا يملكون شيئاً أو الذين كانوا يخرجون مالاً قليلاً من جيوبهم فإنّهم كانوا يتلقّون ضربات هراوة رهيبة كانت توقع بعضهم أرضاً في أمكنتهم، فاقدي الوعد، وأحياناً أيضاً يواصل أحد الجنود ضربهم وكان يبدو أنّ الجهد الذي تتطلّبه مهمّته من لكمات ورفسات وكأنّه يسكره غضباً.

بدأت خادي ترتجف بكلّ جسدها.

وقف لامين قربها وهو يشدّ على يدها.

كان باستطاعتها أن ترى فكّ الصبيّ يرتجف وكأنّ أسنانه تصطكّ خلف شفتيه المزمومتين.

ناول جواز سفره للجنديّ وبعض الأوراق الماليّة الملفوفة مشيراً إلى خادي، ثمّ إلى نفسه.

أخذ الرجل المال بطرف أصابعه بتقزّز.

ورماه أرضاً.

ثمّ أصدر أمراً إلى أحد جنوده فسارع إلى توجيه لكمة إلى لامين في بطنه.

منقصم الظهر تهاوى الصبيّ على ركبتيه دون كلمة، ودون نحيب.

أخرج الجنديّ سكّيناً، ورفع إحدى قدمي الصبيّ وبضربة نصلٍ مزّق نعل أحد حذاءي الفتى.

أغرز سكّينه في الشقّ ثمّ فعل الشيء نفسه مع الحذاء الآخر.

وعندما انتصب لامين واقفاً من جديد في الحال مترنّحاً، وركبتاه الناحلتان ترتطم إحداهما بالأخرى وكأنّ الخطر سيكون أكبر إنْ هوَ ظلّ جاثياً على ركبتيه منه مواجهاً عدوّه، استطاعت خادي أن ترى خيطين من

الدم يسيلان من تحت حذائيه، وسرعان ما يتشرّبهما التراب.

اقترب منها الجنديّ الذي كان يأمر الآخرين.

ناولته خادي جواز السفر الذي كان لامين جهّزه من أجلها.

كان ذهنها صافياً مع أنّها لم تستطع أن تمنع جسدها كلّه عن الارتجاف. دسّت يدها في حزام وزرتها وسحبت الحزمة الهزيلة للأوراق الموضوعة في مطّاط سروالها، وكانت مبلّلة بالعرق، أشبه بخرقة خضراء، ثمّ وضعتها بلطف واحترام في يد الرجل وهي تلصق كتفها بكتف لامين لتثبت له أنّهما كانا سويّة.

أسابيع عدّة مرّت، لم تعد تذكر بالضبط عددها، على جنوحهما في هذه المدينة وسط الصحراء، ليس تلك التي شجّ فيها الجندي قدمَي لامين بل كانت مدينة أخرى، أشدّ ابتعاداً من نقطة انطلاقهما حيث قادتهما الشاحنة بعد تجاوز نقطة التفتيش الأوّل.

المسافرون الذين كان لا يزال في حوزتهم المال، إمّا لأنّهم أخفوه ببراعة تامّة وإمّا لأنّهم لأسباب غامضة لم يتعرّضوا لا للتفتيش ولا للضرب، استطاعوا أن يتابعوا طريقهم وهم يدفعون مجدّداً للسائق.

ولكن هي، خادي دمبا، ولامين، وبضعة أشخاص آخرين، توجّب عليهم أن يتوقّفوا هنا، في هذه المدينة الذي تغمرها الرمال، ذات البيوت الخفيضة بلون الرمل والشوارع والحدائق الرمليّة.

جائعَين، منهكَين، تمدّدا للنوم في المحطّة حيث تركتهما الشاحنة.

وكانت شاحنات أخرى تنتظر، مستعدّة للانطلاق من جديد مع حمولتها من الركّاب.

مكتبة

عندما استيقظا فجراً، كانا متجمّدين برداً، وكان الرمل قد غمرهما بالكامل، وكانت ربلة ساق خادي تؤلمها إلى درجة أنّ التماعات كانت تعبر ذهنها وتُشعرها أنّ هذا الألم لا يمكن أن يكون حقيقياً، إما لأنّها كانت تتخبّط في أحلك كوابيس حياتها، وإمّا لأنّها كانت ميتة أصلاً وتوجّب عليها أن تفهم أنّ هذا هو موتها: ألمٌ لا يُطاق ومع ذلك يدوم، ألمٌ جسديّ متواصل.

القماشة التي ضمّدت بها ربلة ساقها منذ عدّة أيّام كانت وكأنّها انغرزت في الجرح.

كانت رطبة تحت حبّات الرمل، متشبّعة برشح أحمر، نتن.

لم تجرؤ على انتزاعها مع أنّها تعرف أنّه كان يتوجّب عليها فعل ذلك؛ فقط وجدت ما يكفي من الشجاعة لتحرّك بنعومة ساقها المتيبّسة المنمّلة.

وفي آخر الأمر نهضت، ثمّ نفضت الرمل عن شعرها وملابسها.

وقامت ببضع خطوات وهي تعْرج.

كانت أشكال مغمورة بالرمل تتحرّك أرضاً.

عادت إلى لامين الذي جلس دون حذاء، كان ينظر بوجهٍ خالٍ من التعبير إلى أخمص قدميه اللّتين شجّتهما سكّين الجندي وإلى حذائه في الوقت نفسه.

كانت بقعة من الدم المتيّبس ترسم خطّاً قاتماً على الجلد المتخشّن المتشقّق.

كانت تعرف أنّ الصبيّ يتألّم لكنّه لم يكن يظهر ذلك ولم يكن يتحدّث عن جراحه. كانت تعرف أيضاً أنّ نظرته المتسائلة تعني أنّه لن يجيب إلّا بتعبير يتعمّد الكآبة ليحجب شعوره بالإهانة (آه كم كان يشعر بالإهانة،

وكم كانت تشعر بالأسى من أجله وبالحزن لأنّها لم تتلقّ الإهانة بدلاً منه، هي التي تعرف كيف تتحمّل الإهانة والتي لم تكن تؤثّر فيها كثيراً)، إذْ أيّ تفسير مقنع سيكون بإمكانه أن يقدّم لها عن هذا الإخفاق، وعن مثل هذا التأخّر لرحلتهما وهي لا تزال في بدايتها، في حين كان قد أكّد لها أنّه يعرف كلّ شيء عن عقبات الطريق ومخاطرها؟

كانت تدرك ذلك فعلاً، وتفهمه وتتقبّله، هذا الإذلال الذي كان يفرغ نظرته من معناها ويجعله بعيد المنال، شديد الاختلاف عن الفتى الجامح والودود الذي كانه سابقاً.

وإذ فهمت وضعه، لم تقسُ عليه.

الأمر الذي كانت تجهله آنذاك، والذي لم تكن تملك بعدُ الوسائل لتصوّره لكنّه سينجلي تدريجيّاً لذكائها، هو أنّ الفتى أهين كثيراً وبشكل مضاعف من جرّاء ما حصل بالأمس ومن جرّاء أمرٍ لم يحصل بعد، ولم يكن عقل خادي ساذجاً بل عديم الخبرة، لذا لم يقدر على تصوّره، ولكنّ الفتى كان يعرف، من جهته، أنّه سيحدث. هذا هو السبب، كما ستدرك خادي لاحقاً، في أنّه خجل أمام وجهها، خجل من معرفته بما لم تكن تعرفه هي، وخجل من الأمر بحدّ ذاته، ذاك هو السبب في أنّ شخص الفتى كلّه قد انسحب بعيداً عنها، متصلّباً في الذعر، ولم يشأ أن يكون له أيّ صلة ببراءة خادي.

هل قال لها شيئاً محدّداً فيما بعد؟

لم تكن لتتذكّر ذلك بوضوح.

ومع ذلك يبدو لها أنّه لم يقل لها شيئاً.

كلّ ما تذكره أنّهما كانا قد تسكّعاً، وكانا يعرجان كلٌّ على طريقته (كان

مكتبة

الفتى يحاول ألّا يضع على الأرض إلّا الجزء الخارجيّ من قدميه، أمّا خادي، فكانت تتجنّب أن تتّكئ على ساقها المريضة وتتقدّم وهي تنطنط بطريقة غير منتظمة) عبر الشوارع الرازحة تحت وطأة القيظ الجافّ المغبر، وتلك السماء اللامعة، الضاربة إلى الاصفرار، التي كانت بلون الرمال.

كان الرمل يغمر شعر لامين المقصوص، وكذلك وجهه وشفتيه المتشقّقتين.

كانا مخبّلي الذهن وأرادا الهرب من الأمكنة التي لا ظلّ فيها فالتجآ إلى مطعم قذر جدرانه من الطين، لا نافذة فيه، حيث في العتمة الخافتة أكلا قطعاً من لحم الماعز المشويّ، اللّيفيّ القاسي، واحتسيا «الكوكاكولا»، وكلاهما كانا عارفين أنّهما لا يملكان المال ليدفعا ثمن الطعام. كان لامين يلوذ بهذه العزلة المريرة، الأليمة التي كان يستطيع في كنفها وحيداً مع هوانه أن يتجنّب ربّما إفساد خادي، هو الذي كان يعرف إلى أين سوف تذهب الأمور، وربّما كان يظنّ أن خادي لا تزال غافلة عمّا سيجري، لكنّها كانت قد شعرت بذلك وهي تنهي مضغ آخر قطعة لحم ابتلعتها مع آخر جرعة من الصودا، حين التقت عيناها بالعينين المعاديتين، شبه المغمضتين للمرأة التي قدّمت لهما الطعام، والتي كانت تتفحّصهما هي والفتى، متهالكة على أحد الكراسي في الزاوية الأكثر عتمة، متنفّسة بصخب، وعندئذٍ تساءلت خادي كيف سيدفعان ما يتوجّب عليهما دفعه، وعلى طريقتها أجابتها نظرة المرأة الخبيرة، المتحرّية، الخالية من الودّ.

طيلة تلك الفترة تشبّثت بتلك القناعة بشراسة: وحدها حقيقة الألم الجسديّ يجب أخذها بعين الاعتبار.

لأنّ جسدها كان يتعذّب باستمرار.

كانت المرأة تشغّلها في غرفة صغيرة مطلّة على باحة خلف المطعم القذر.

على الأرض ذات البلاط القاسي، وُضع فراش من الإسفنج.

وكانت خادي تتمدّد عليه معظم الوقت مرتدية قميصاً داخليّاً بلون رمليّ، وكانت المرأة تُدخل الزبون، وكان فتىً شابّاً في أكثر الأحيان، بائس الهيئة، حطّ رحاله هو أيضاً في هذه المدينة حيث يعتاش من عمله كخادم، ولدى دخوله الغرفة الخانقة كان يجيل غالباً نظرات جفلة حوله، وكان يبدو لخادي وكأنّه علق في الفخّ الذي تنصبه مديرة الحانة التي تحاول أن تصطحب إلى الغرفة كلّ زبون يرتاد مطعمها القذر، أكثر ممّا في فخّ شهوته بالذات.

ثمّ تغادر المرأة موصدةً الباب بالمفتاح.

وعندئذٍ كان الرجل يخفض سرواله في عجلة يعتريها قلق وكأنّه يريد أن ينهي بأقصى سرعة ممكنة واجباً شاقّاً غامضاً وخطيراً. كان يتمدّد فوق خادي فتبعد ساقها المريضة، التي تغيّر المرأة ضمادها كلّ يوم، إلى أقصى حدّ ممكن تفادياً لأيّ اصطدام بها، ثمّ يلجها الرجل مصدراً أنيناً متعجّباً، لأنّ الحكّة التي تلهب فرج خادي وتجعله جافّاً كانت تثير على الفور عضو الزبون. كانت خادي تجمع كلّ قواها الذهنيّة لتتصدّى لهجمات الألم المتعدّدة التي تداهم ظهرها وأحشاءها وربلة ساقها، وهي تفكّر: سوف يأتي الوقت الذي يتوقّف فيه كلّ هذا. وإذ تشعر بالعرق الغزير للرجُل يتدحرج على عنقها وصدرها شبه المحتجب خلف حافة دانتيل القميص الداخليّ، ممتزجاً بعرقها، كانت تفكّر أيضاً: سوف يأتي الوقت الذي يتوقّف فيه كلّ هذا، إلى أن ينتهي الرجل بعناء في صيحة ألم وخيبة

مكتبة

منسحباً من جوف خادي بسرعة.

وحينئذٍ يقرع الرجل الباب، وكان كلاهما يسمعان الخطوات الثقيلة البطيئة للمرأة التي قدمت لتفتح له.

كان بعض الزبائن يحتّجون معترضين قائلين إنّ الجماع كان يؤلمهم، وإنّ الفتاة كانت مريضة.

وكانت خادي تفكّر مندهشة: الفتاة هي أنا، وكانت تشعر بشيء من المتعة حين يسمّونها هكذا، هي خادي دمبا بكلّ فرادتها.

كانت تظلّ ممدّدة هنيهة بعد رحيل المرأة والرجل.

كانت تتنفّس ببطء وتنظر بهدوء كليّ، وعيناها مفتوحتان على مداهما، إلى شقوق الحائط الورديّ وسقف الصفيح والكرسيّ البلاستيكيّ الأبيض التي وضعت تحته صرّة ثيابها.

كانت جامدة بشكل كامل تصغي إلى دمها يخفق بشكل خفيّ، بهدوء، دمها بالذات ينبض في أذنيها، ولو تحرّكت قليلاً لسمعت ضجّة ارتشاف الفراش المشبّع بالعرق لظهرها الرطب، والاصطفاق الخافت لفرجها الحارق، وكانت تشعر بالألم يصعد بخفّة إليها مهزوماً بالفتوّة الجبّارة، النزقة لبنيتها الصلبة الحازمة، وكانت تفكّر هادئة، شبه صافية: سوف يأتي الوقت الذي يتوقّف فيه كلّ هذا، كانت من الهدوء والصفاء بحيث إنّ المرأة حين كانت تعود، ليس بمفردها كما تفعل عادةً لغسلها والعناية بها وإرواء عطشها، بل برفقة زبون آخر تُدخله بإيماءة غامضة توجّهها إلى خادي أسفاً أو اعتذاراً، لم تكن تشعر إلّا بارتجاف مفاجئ وبلحظة ضياع وضعف، ثمّ تفكّر بهدوء: سوف يأتي الوقت الذي يتوقّف فيه كلّ هذا.

كانت المرأة، بعد أن تفرض على خادي الجماع تلو الآخر، تهتمّ بها

بمراعاةٍ أمومّية حقّيقيّة.

كانت تأتي بدلوٍ من الماء البارد ومنشفة ثمّ تنظّف أسفل بطن خادي برفق.

ومساء كانتا تجلسان كلتاهما في الباحة، وتتناول خادي وجبة جيّدة من حساء الذرة ولحم الماعز بالصلصة مع مشروب الكوكا كولا، وتحتفظ خادي بحصّة منها للامين.

كانت المرأة تنزع ضمّادة خادي وتمسح بالدهن الجرح المتورّم النتن ثمّ تلفّه من جديد بخرقةٍ نظيفة.

وحين كانتا تجلسان هناك في دفء المساء هانئتين متخمتين، كانت خادي، عندما تحين منها التفاتة نحو المرأة وتلمح في الغسق فقط حدود وجهها المستدير الرؤوف، تشعر أحياناً أنّها عائدة إلى عهد طفولتها التي عرفت فيها، رغم العنف والظلام والاضطراب، لحظات أقرب إلى السعادة، حينما كانت تجلس عند قدمَي جدّتها في المساء، أمام البيت، لتسرّح لها شعرها.

قبل حلول الليل بالضبط، كان لامين يصل.

كانت خادي ترى، بشيء من الشفقة والقرف، أنّه كان ينسلّ إلى الباحة أشبه بكلب يخاف الضرب لكنّه يخاف أكثر منه العثور على قصعته فارغة؛ ينسلّ محدودباً رشيقاً في الوقت نفسه، وكانت خادي، وكذلك المرأة، تتظاهران بعدم رؤيته، هي بدافع المراعاة، والمرأة بدافع الاحتقار، وكان لامين يحمل الصحن الملآن ويأخذه إلى غرفة خادي حيث كانت المرأة تسمح له، أو لم تكن تمنعه من ذلك على الأقلّ، بتمضية الليل، مشترطةً عليه ضمنيّاً أن يغادر الغرفة عند الفجر.

مكتبة

قبل أن تذهب للنوم، كانت المرأة تعطي خادي جزءاً صغيراً من الأرباح.

وكانت خادي تنسحب بدورها ذاهبة إلى غرفتها الورديّة المضاءة بمصباح خافت قذر معلّق إلى الصفيح.

كان يخامرها آنذاك الشعور، وهي ترى لامين، المليء بالحيويّة فيما مضى، مقرفصاً في إحدى الزوايا كاشطاً الصحن بملعقته، بأنّ كلّ آلامها كانت تتلقّفها.

لأنّه كيف بإمكانها أن تواجه الهوان الذي لا يشفى للفتى إن لم يكن بحقيقة شرفها بالذات المصان إلى الأبد وإن يكن أصابه الوهن قليلاً، وإدراكها لكرامتها التي لا تمسّ وإن يكن أصابها الوهن قليلاً؟

كان لامين سيفضّل أن يراها مهانة يائسة.

ولكنّه وحده كان يتحمّل وزر المهانة واليأس، وخادي كانت تشعر أنّه حاقد عليها دون علمه، لذا كانت تودّ، في المساء، ألّا يكون في غرفتها، معيقاً الفضاء الضيّق للغرفة بأحزانه، وملاماته الخفيّة، القاتمة، الظالمة.

كانت تعرف أيضاً أنّه حاقد عليها لأنّها باتت ترفض مُطارحته الغرام.

الحجّة التي تذرّعت بها لنفسها وقالتها للفتى هي أنّ فرجها كان محتقناً متورّماً ومحتاجاً للراحة.

ولكنّها كانت تستشعر أيضاً أنّ لامين كان خجلاً منها ومن أجلها بمقدار ما كان خجلاً من نفسه.

وهذا كان يزعجها.

بأيّ حقٍّ كان يزجّها في هذا الشعور بالدناءة الذي كان يحسّ هو به، لأنّه لم يعد يملك قوّة روحه؟

وهكذا كانت ترفض أن يلمسها، لأنّها قلّما كانت راغبة في الشعور بالألم من أجل إرضائه.

كانت تتهاوى على الفراش، صامتة، تعبى.

أمّا ماذا كان يفعل الفتى بنهاراته المتوحّدة في المدينة الخانقة الجافّة فقلّما كانت تهمّها معرفته.

وكانت تشعر أنّها تقلب شفتيها عابسة، وكان من شأن هذه البرطمة أن تحبط كلّ رغبة في الحديث.

وفيما كانت أصابعها تمتدّ تلقائيّاً نحو الجدار مداعبةً شقوقه ونتوءاته، وبالضبط قبل أن يغلبها النعاس، كانت تأخذ جسدها المنهك رعدةُ فرح حين تتذكّر فجأةً، بعد تظاهرها بالنسيان، أنّها كانت خادي دمبا: خادي دمبا.

استيقظت ذات صباح لتجد أنّ الفتى قد رحل.

والغريب في الأمر أنّها فهمت ما جرى قبل أن تتأكّد حتّى من غياب لامين، فهمته منذ استيقاظها من النوم فهرعت إلى الحزمة وكانت محلولة، مفتوحة على الكرسيّ حيث كانت تركتها معقودة جيّداً، وأخرجت القليل الذي تحتويه: قميصين، ووزرة، وزجاجة بيرة فارغة ونظيفة، وتوجّب عليها أن تستنتج، وهي تنتحب، ما سبق لها أن خمّنته قبل أن تتحقّق من أيّ شيء كان، أنّ كلّ مالها اختفى.

فقط في تلك اللحظة، أيقنت أنّها وحدها في الغرفة.

وأخذت تطلق صرخات خافتة حزينة.

كان فمها مفتوحاً على مداه لأنّه بدا لها وكأنّها على شفا الاختناق.

أن تستيقظ وهي متيقّنة من أنّ فعلاً شائناً ارتُكب بحقّها... ألم تسمع،

مكتبة

في اللّيل، شيئاً ما، أم تراها أبصرت أحد تلك الأحلام التي تتطابق تماماً مع ما سيحصل حقّاً؟

خرجت، اجتازت الباحة وهي تعرج بشدّة موشكةً على أن تتعثّر عند كلّ خطوة، ثمّ هرعت إلى المطعم حيث كانت المرأة تحتسي أوّل فنجان من قهوتها الصباحيّة.

صرخت قائلة:

- رحل، وسرق منّي كلّ شيء.

وتهاوت على الكرسيّ.

كانت المرأة ترمقها بنظرات باردة، ثاقبة، يلوح فيها إشفاق بعيد.

أنهت قهوتها بلذّة أفسدها قليلاً ظهور خادي. وجعلت لسانها يصطفق، ثمّ، بصعوبة، نهضت لتقترب من خادي، وتعانقها، وتهدهدها بطريقة خرقاء، واعدةً إيّاها بأنّها لن تخذلها.

همست خادي:

- ليس هناك من مجازفة بالنسبة إليك نظراً لما أجنيه لك.

كانت تفكّر بحزنٍ كبير أنّه يجب البدء بكلّ شيءٍ من جديد، وأنّ كلّ شيء يجب أن يُكابَد من جديد وأكثر من ذي قبل، لأنّ جسدها كان متألّماً بشكلٍ فظيع، فيما بالأمس ليس إلّا، أحصت ما جنته خلال شهرين أو ثلاثة من العمل وكان المبلغ سيكفيهما هي والفتى لمواصلة سفرهما.

الفتى، آه، سرعان ما نسته.

سوف تنسى لبعض الوقت اسمه ووجهه، وسوف تتذكّر هذه الخيانة على أنّها من ضربات القدر.

وحين تتذكّر هذه الحقبة، ستحتسب الزمن الذي انقضى بين المطعم القذر والغرفة الورديّة على أنّه سنة واحدة، لكنّها كانت تعرف، على الأرجح، أنّ زمن إقامتها لا بدّ أنّه طال أكثر ممّا خالته بكثير، وأنّها هي أيضاً غاصت في رمال المدينة الصحراويّة، كأغلبيّة الرجال الذين كانوا يأتون لرؤيتها متسكّعين هناك منذ سنوات أضاعوا عددها الصحيح، آتين من بلدان مختلفة، لا بدّ أنّ عائلاتهم كانت تحسبهم في عداد الموتى لأنّهم لم يكونوا يجرؤون، وقد شعروا بالخزي لما حلّ بهم، أن يمدّوها بأخبارهم، وكانت نظراتهم الهائمة الجامدة تبدو وكأنّها تمرّ على كلّ شيء دون أن تراه.

كان يحدث لهم أن يبقوا متمدّدين بالقرب من خادي جامدين مستغرقين في أسرارهم، وكان يبدو عليهم وكأنّهم نسوا السبب الذي أتوا من أجله أو كانوا يعتبرونه باعثاً على الهزء ومضنياً بحيث إنّهم كانوا يفضّلون في النهاية أن يبقوا هكذا، لا نائمين ولا أحياء حقّاً.

كانت خادي تزداد هزالاً شهراً بعد شهر.

وكان زبائنها يتناقصون، وكانت تمضي وقتاً طويلاً من نهاراتها في عتمة المطعم.

ومع ذلك فإنّ ذهنها كان صافياً ومتيقّظاً، وكانت تشعر أحياناً أنّ فرحاً دافئاً يغمرها حين وحدها في الليل كانت تهمس باسمها وتلفيه مرّة أخرى مطابقاً لذاتها تماماً.

لكنّها كانت تهزل وتزداد وهناً، وكان جرح ربلة ساقها يتأخّر في الشفاء.

ومع ذلك جاء يوم بدا لها فيه أنّ المال الذي وفّرته كان كافياً لكي تحاول الرحيل من جديد.

مكتبة

للمرّة الأولى منذ أشهر، خرجت إلى الشارع وهي تعرج في الحرّ اللاهب، ذاهبة إلى الموقف الذي كانت تنطلق منه الشاحنات.

عادت كلّ يوم بإصرار ساعية لأن تفهم بمن عليها أن تحتكّ من بين الناس الكثر الذين كانوا يتردّدون إلى المكان، علّها تنجح في الصعود إلى إحدى الشاحنات.

لم يعد يفاجؤها الصدى اللّاذع والمشاكس لصوتها القاسي وعديم الجنس حين كانت تطرح الأسئلة مستخدمةً بعض الكلمات الإنجليزيّة التي تعلّمتها في الحانة، كما لم يعد يباغتها انعكاس الوجه الشاحب الهزيل الكامد في مرآة إحدى الشاحنات تكلّله خصلات من الشعر الضارب إلى الحمرة، الوجه ذي الشفتين الجافّتين والبشرة الخشنة الذي يصادف أنّه وجهها آنئذٍ، والذي فكّرت أنّ الناظر إليه قد لا يخاله وجه امرأة، وصورة جسدها الهزيل الذي لا يمكن التكهّن أيضاً بأنّه جسد امرأة، ومع ذلك فإنّها بقيت خادي دمبا الفريدة والضروريّة لانتظام سير الأشياء في العالم، مع أنّها باتت تشبه أكثر فأكثر تلك الكائنات الهائمة، المتضوّرة جوعاً، ذات الحركات البطيئة المتسكّعة في المدينة، كانت تشبهها لدرجة أنّها تساءلت: ما الفارق الأساسيّ بيني وبينها؟ وبعدئذٍ كانت تضحك في سرّها مستحسنةً الدعابة الطريفة التي خطرت لها، وفكّرت: الفارق هو أنا، أنا خادي دمبا!

لا، لم يعد يفاجئها أيّ شيء، لم يعد يخيفها أيّ شيء، ولا حتّى هذا التعب الهائل الذي كان يهدّها طيلة الوقت، جاعلاً فجأةً أطرافها الهزيلة في غاية الثقل فتجد كثيراً من العناء في أن تضع قدماً أمام الأخرى، وأن تحمل الطعام إلى فمها.

هذا أيضاً تعوّدت عليه.

كان هذا الإرهاق يبدو لها وكأنّه الشرط الطبيعيّ لجسدها.

وبعد أسابيع لاحقة، ستمنعها هذه الحالة من التعب الشديد من مغادرة الخيمة المصنوعة من البلاستيك والأغصان التي ظلت ممدّدة تحتها في غابة نسيت اسمها، وكانت أشجارها مجهولة بالنسبة إليها.

لم تكن تعرف كم مضى من الوقت على وصولها إلى هناك ولا كيف يمكن لنور الشمس الذي يخترق بمشقّةٍ البلاستيك الأزرق أن يكشف لنظرها ذراعيها وساقيها وقدميها، أطرافها التي كانت شديدة البعد والهزال في حين أنّها كانت تحسّ أنّ جسدها يرزح بثقله على الأرض بحيث كانت تشعر، ما إن تغمض عينيها، بأنّها تغوص في الأرض تحت ثقل وزنها بالذات.

أمّا هي، خادي دمبا، التي لم تكن تخجل من شيء، فكانت تموت خجلاً من أن ترى نفسها هكذا، هائلة، مربكة، لا تبرح مكانها.

كانت يد رطبة، رائحتها نفّاذة، ترفع رأسها وتحاول أن تدخل لها شيئاً ما في فمها.

كانت تحاول أن تتمنّع عن فتح فمها لأنّ رائحة ذلك الشيء، شأنها شأن رائحة اليد، كانتا تثيران قرفها. ولكنّها كانت من الضعف بحيث أنّ شفتيها كانتا تنفتحان رغماً عنها، وكانت تسمح لنوعٍ من العجينة الدبقة السائغة بأن تنزل إلى أحشائها.

كانت تشعر بالبرد طيلة الوقت، برد قارص رهيب ولا يمكن أن يريحها منه لا الغطاء الذي دُثّرت به، ولا حرارة اليدين اللّتين كانتا تمسّدانها أحياناً.

وفيما كانت تأمل بأن تجد في الأرض، التي تنفتح وتغور تحت دفع

مكتبة

جسدها الهائل، الدفء الكافي الذي قد يجعلها تنهض ثانيةً على قدميها، فإنّها لم تكن تجد، ما إن تغمض عينيها، إلّا برداً يزداد شدّة، وحياله لا يمكنها أن تفعل شيئاً الشمسُ المتسلّلة عبر البلاستيك، والمتلوّنة بزرقته، ولا حتّى الهواء الرطب، المحبوس، الحارّ ولا شكّ، لأنّها كانت تشعر أنّ العرق يتصبّب منها بغزارة في الخيمة اللّائذة بالأشجار.

آه، بالطبع، كانت تشعر بالبرد والألم في كلّ ذرّة من جسدها، لكنّ ذهنها كان من الحضور بحيث كانت تستطيع نسيان البرد والألم. وحين كانت تستعيد وجهَي جدّتها وزوجها، وهما كائنان عاملاها بطيبة وعزّزا لديها فكرة أنّ حياتها وشخصها لم يكونا يقلّان معنى ولا قيمة عن حياتهما وشخصهما، وكانت تتساءل ما إذا كان بإمكان الطفل الذي طالما تمنّت أن تنجبه أن يمنعها من السقوط في وضع بائس مماثل، كانت تلك أفكاراً وليس حسرات، لأنّها لم تكن تشكو من حالتها الراهنة ولا ترغب في أن تستبدلها، بأيّ شيءٍ آخر، لا بل كانت تجد نفسها، بطريقة ما، مسرورة، لا بعذابها بل فقط بطبيعة وجودها ككائن انسانيّ يجتاز بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الشجاعة أخطاراً شتّى.

وما لبثت أن تعافت.

استطاعت أن تجلس، واستطاعت أن تشرب وتأكل بشكلٍ طبيعيّ.

كان رجل وامرأة يعيشان سويّة، على ما يبدو، تحت الخيمة يقدّمان لها القليل من الخبز أو مغلّى القمح المطهوّ في الخارج، على نار من الحطب، في قدر قديمة بلا مقبض.

كانت خادي تتذكّر أنّها سافرت إلى جانبهما في الشاحنة.

كان كلاهما صموتين ولم تكن خادي تستطيع التحدّث إليهما إلّا

بإنجليزيّة تبعث على الضحك، لكنّها استطاعت أخيراً أن تفهم أنّهما كانا يحاولان منذ سنوات أن يعبرا إلى أوروبا حيث استطاع الرجل، فيما مضى، أن يعيش بعض الوقت قبل أن يُطرد.

كان لكلّ منهما أطفالٌ في مكانٍ ما، لم يريا لهم وجوهاً منذ وقتٍ طويل.

كانت الخيمة تشكلّ جزءاً من مخيّم كبير من الأكواخ أو الشوادر المرتكزة إلى أوتاد، وكان أناس في الأسمال ينتقّلون بين الأشجار حاملين مطراتٍ أو أغصاناً.

لاحظت خادي أنّه لم يعد لديها شيء، لا صرّة ثياب، ولا جواز سفر، ولا مال.

كان الرجل والمرأة يمضيان نهاراتهما وهما يصنعان السلالم، كلّ واحد يصنع سلّمه، وأمضت خادي بعض الوقت تراقبهما لتفهم الطريقة التي يتبعانها في صنعها، ثمّ راحت تفتّش عن الأغصان الملائمة وتعمل بدورها على تشييد سلّم، منقّبةً في ذكرياتها عن خبر رواه لها فتىً لا اسم له ولا وجه، عن تسلّقه الفاشل لسلكٍ شائك يفصل أفريقيا عن أوروبا، وسائلةً بصوتها الأجشّ والفظّ الرجل والمرأة فيجيب كلاهما ببضع كلمات لم تكن تعرف معناها ولكنّها مرتبطة بالكلمات التي تعلّمتها أو مجسَّدة باختصار من خلال رسم على الأرض، ذكّرتها أخيراً بما كان الصبيّ قد رواه لها، وكانا يرميان صوبها أطراف الحبل الذي يستخدمانه لتثبيت كلّ قضيب إلى دعامتي السلّم، بحذر وانزعاج، وكأنّهما، فكّرت خادي، بعد أن جرّداها من كلّ ما تملك، وقد فعلا ذلك، لا يستطيعان الامتناع عن مساعدتها بالرغم من الاستياء الذي كانا يشعران به من جرّاء ذلك.

خرجت من الغابة برفقة المرأة وسارتا بمحاذاة طريق إسفلتيّة إلى أن

مكتبة

وصلتا إلى أبواب مدينة.

كانت خادي تعرج بشدّة وكانت ربلة ساقها الجريحة تبين تحت حاشية وزرتها القديمة.

تسوّلتا في الشوارع.

مدّت خادي يدها كما فعلت تلك المرأة.

ووجّه لهما أناس في لغة غير مفهومة ما يفترض أن يكون شتائم وبعضهم بصقوا على أقدامهما، وآخرون أعطوهما خبزاً.

نهشت خادي الخبز بكلّ شهيّة لفرط ما كانت جائعة.

كانت يداها ترتجفان.

تركت على الخبز آثار دماء لأنّ لثّتها كانت تنزف.

ولكنّ قلبها كان يخفق ببطء، بهدوء، وهي نفسها كانت تشعر بأنّها كذلك، متهاونة، هادئة، بمنجى من كلّ خطر، في كنف إنسانيّتها الأزليّة.

بُعَيْد الفجر دوّت صرخات ونباح وأصوات خيول في المخيّمات.

كان الجنود يهدمون الأكواخ ويقتلعون الشوادر، ويبعثرون حجارة المواقد.

أمسك أحدهم بخادي وانتزع وزرتها.

رأته يتردّد وفهمت أنّه تراجع بسبب حالة جسدها، ونحولها، والبقع السوداء التي كانت تملأ جلدها.

وصفعها مرّة أخرى على وجهها ورماها أرضاً وفمه متبرّم غضباً وقرفاً.

ولاحقاً، لاحقاً، بعد مضي فترة طويلة، بعد أسابيع وربّما أشهر،

وفيما كانت كلّ ليلة تزداد برودة، وفيما كانت الشمس تبدو كلّ يوم أكثر انخفاضاً وشحوباً في الغابة، كان الرجال الذين عُيِّنوا أو عَيَّنوا أنفسهم قادة المخيّم، قد أعلنوا عن الهجوم على الحاجز المشبّك بعد الغد.

وتحرّكوا ليلاً، عشرات وعشرات من الرجال والنساء وبينهم خادي، التي كانت تشعر بنفسها رقيقة، أشبه بطيف، بنفحة هواء.

كانت تحمل كالآخرين سلّمها الذي كان، على خفّته، يبدو لها أكثر ثقلاً منها، كما تغدو الأشياء أحياناً ثقيلة في الأحلام. ومع ذلك كانت تتقدّم رغم عرجها بسرعة تضاهي سرعة رفاقها، وهي تشعر بقلبها الهائل يرتطم في قفص صدرها الصغير، الرقيق، الحارق.

ساروا طويلاً صامتين عبر الغابة ثمّ اجتازوا أراضي محصبة حيث تعثّرت خادي عدّة مرّات وسقطت، ونهضت من جديد لتلتحق بالجماعة، هي التي كانت تشعر بأنّها ليست إلّا هبّة هواء طفيفة، أو نفحة اثيريّة متجمّدة؛ كانت تشعر ببردٍ فظيع، كان جسدها كلّه متجمّداً.

ووصلوا أخيراً إلى منطقة مقفرة تضيئها أنوار بيضاء وكأنّها لمعان قمريّ مشتعل، ورأت خادي الأسلاك الشائكة التي كان الجميع يتحدّثون عنها.

وأخذت كلاب في النباح بمقدار ما كانوا يقتربون، وتصادت فرقعات في السماء، وسمعتْ خادي صوتاً جعله القلق حادّاً وغير متساوٍ يقول: إنّهم يطلقون الرصاص في الهواء، ثمّ أطلق الصوت نفسه الصرخة المتّفق عليها، صيحة واحدة، وأخذ الجميع يركضون إلى الأمام.

كانت تركض هي أيضاً، فمها مفتوح ولكنّه غير قادر على الشهيق وعيناها شاخصتان وحلقها مسدود، كان السّلك الشائك أمامها فأسندت إليه سلّمها وها هي تصعده درجة درجة حتّى بلغت آخر درجاتها فتشبّثت

مكتبة

بالحواجز الشائكة.

وكانت تستطيع أن تسمع حولها الرصاص يلعلع، وصرخات الألم والجزع غير عارفة إذا كانت تصرخ مثلهم أو أنّ ذلك كان نبض الدم في رأسها يغمرها بهذا النحيب المتواصل، وكانت تريد أن تصعد أيضاً، وتذكّرت أنّ صبيّاً قال لها إنّه يجب عليها ألّا تتوقّف إطلاقاً، إطلاقاً، عن الصعود قبل أن تبلغ أعلى السياج لكنّ السّلك الشائك كان يقتلع جلد يديها وقدميها وكان بإمكانها أن تسمع صراخها وتشعر بالدم يسيل على ذراعيها، وكتفيها، قائلةً في نفسها إنّها لن تتوقّف أبداً عن الصّعود، أبداً، مكرّرة الكلمات دون حتّى أن تفهمها، ثمّ خانتها قواها وأفلتت قبضتها ساقطة إلى الوراء بنعومة، مفكّرةً أنّ جوهر خادي دمبا، وهي أقلّ من نفحة، من هبّة هواء، هو ألّا تلامس الأرض، وأن تطفو إلى الأبد، مدهشةً، مجنَّحةً بحيث لا تُسحَقُ أبداً في الضياء المبهر الصقيعيّ للكشّافات.

هي ذي أنا خادي دمبا، فكّرتْ أيضاً لحظةَ اصطدم رأسها بالأرض، وبعينيها المفتوحتين على مداهما، كانت ترى محلّقاً ببطءٍ خلف السلك الشائك طائراً بجناحين طويلين رماديَّين.

هي ذي أنا خادي دمبا، فكّرتْ، في سطوع هذا التجلّي، عارفةً أنّها كانت ذلك الطائر وأنّ الطائر كان يعرف ذلك.

طِباق

في كلّ مرّة كانوا يعطون فيها لامين مالاً لقاء عمله، سواء خلف مطبخ المطعم، «مطعم الذوّاقة»، حيث كان يغسل الأواني كلّ مساء، أو في المستودع يُفرغ البضائع المجلوبة من «السوبر ماركت»، سواء في ورشة

أو في المترو، حيثما ذهب ليؤجّر قوّة ذراعيه، وفي كلّ مرّة كانت تنتقل فيها اليوروات من أيادٍ غريبة إلى يديه، كان يفكّر في الفتاة، ويتوسّل إليها بشكلٍ صامت أن تغفر له وألّا تلاحقه بلعناتها أو تسمّم أحلامه. في الغرفة التي كان يتقاسمها مع آخرين، كان يرقد واضعاً تحت مخدّته مالَه، حالماً بالفتاة. كانت تحميه أو على العكس تنذره للأسوأ. وفي أوقات مشمسة، حين كان يرفع وجهه ليهبه للدفء، لم يكن نادراً أن تغيم الشمس فجأةً بشكلٍ لا يفسّر، وعندئذٍ كان يتحدّث إلى الفتاة بعذوبة ويروي لها كلّ ما صار بحاله، مذكّراً بنعمتها عليه، وإذا بطائرٍ يختفي في البعيد.

مكتبة الرمحي أحمد
telegram @ktabpdf

مكتبة

نبذة عن المؤلِّفة

ولدت ماري نداي Marie NDiaye في بيتيفييه، قرب باريس، في الرابع من حزيران 1967، من أب سنغالي، وأمّ فرنسيّة، ونشأت في فرنسا. ولم تكن تجاوزت سنّ السابعة عشرة عندما أرسلت بالبريد مخطوطة روايتها الأولى «أمّا عن المستقبل الثريّ» إلى منشورات «مينوي» الباريسيّة، التي سارعت إلى نشرها، واجتذب العمل الأنظار إلى الكاتبة الشابّة فوراً. بعد ذلك كتبت روايات أخرى وأعمالاً مسرحيّة حقّقت لها رصيداً أدبياً كبيراً بلغ ذروته مع روايتها «روزي كارب»، التي تُوّجت بجائزة «فيمينا» للرواية في 2001، ثمّ مع «ثلاث نساء قديرات»، التي نالت عليها جائزة غونكور للرواية في 2009. بعض شخوص أعمالها أفريقيّة أو زنجيّة من مناطق أخرى، تخوض عودة شائقة وشاقّة إلى الجذور وبحثاً مريراً عن الهويّة. وفي أغلب رواياتها تختار شخوصاً غريبة، مأزومة بغموض، وعلى حافّة الانهيار، أو تكشف لدى كائنات بسيطة تكاد تكون غفلاً عن أعماق مهولة وقدرة على تخطّي مصائرها لا تحدّها حدود. إلى هذا، هناك براعة الكاتبة في تطويع اللغة، وعبارتها السّاحرة، الآتية من ارتياد كبار الآثار الأدبيّة دون أن تفصح عن تأثّرٍ بأيّ منها.

نبذة عن المترجمة

ماري طوق كاتبة ومترجمة من لبنان، من مواليد 1963، حصلت على إجازة في الأدب الفرنسيّ من الجامعة اللبنانية عام 1990، وتقيم وتعمل حالياً في مجال التعليم في مدينة جبيل بلبنان. ترجمت إلى العربيّة عدداً من الأعمال الأدبيّة من أهمّها «الجميلات النائمات» لياسوناري كواباتا، و«المرأة العسراء» لبيتر هاندكه، و«خفّة الكائن التي لا تُطاق» لميلان كونديرا، و«مدافن الكبوشيّين» لجوزف روث، و«أوريليا» لجيرار دو نرفال، و«تاريخ بيروت» لسمير قصير، و«ملك الغائبين» لالياس صنبر، و«المثقّفون» لسيمون دو بوفوار، ورواية «جبل الروح» لغاو شنغجيان (ترجمتها بالاشتراك مع بسّام حجّار)، و«العصفور الأزرق وحكايات أخرى» لماري كاترين دونوا، و«نصوص الصِّبا» لغوستاف فلوبير، وقد صدرت الكتب الأربعة الأخيرة في منشورات مشروع «كلمة» للترجمة في أبو ظبي. ترجمت أيضاً مجموعة سيناريوهات للمخرجة الراحلة رندا الشهال، ونقلت إلى الفرنسية قصائد لعبّاس بيضون وشعراء آخرين، ونشرت قصصاً قصيرة ومقالات نقدية في الصحف اللبنانية والعربية.

مكتبة

ثلاث نساءٍ قديرات

وكانت تستطيع أن تسمع حولها الرصاص يلعلع، وصرخات الألم والجزع غير عارفة إذا كانت تصرخ مثلهم أو أنّ ذلك كان نبض الدم في رأسها يغمرها بهذا النحيب المتواصل، وكانت تريد أن تصعد أيضاً، وتذكّرت أنّ صبياً قال لها إنّه يجب عليها ألّا تتوقف إطلاقاً، إطلاقاً، عن الصعود قبل أن تبلغ أعلى السياج لكنّ السّلك الشائك كان يقتلع جلد يديها وقدميها وكان بإمكانها أن تسمع صراخها وتشعر بالدم يسيل على ذراعيها، وكتفيها، قائلةً في نفسها إنّها لن تتوقّف أبداً عن الصّعود، أبداً، مكرّرةً الكلمات دون حتّى أن تفهمها، ثمّ خانتها قواها وأفلتت قبضتها ساقطة إلى الوراء بنعومة، مفكّرةً أنّ جوهر خادي دمبا، وهي أقلّ من نفحة، من هبّة هواء، هو ألّا تلامس الأرض، وأن تطفو إلى الأبد، مدهشةً، مجنّحةً بحيث لا تُسحَق أبداً في الضياء المبهر الصقيعيّ للكشّافات.

هي ذي أنا خادي دمبا، فكّرتْ أيضاً لحظةَ اصطدم رأسها بالأرض، وبعينيها المفتوحتين على مداهما، كانت ترى محلّقاً ببطء خلف السلك الشائك طائراً بجناحين طويلين رماديّين.

هي ذي أنا خادي دمبا، فكّرتْ، في سطوع هذا التجلّي، عارفةً أنّها كانت ذلك الطائر وأنّ الطائر كان يعرف ذلك.

السعر 85 درهماً

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA
AbuDhabi
9 789948 234012